قصب وطين

بيثنتي بلاسكو إيبانييث

- Author : Vicente Blasco Ibáñez
- Title: Cañas y barro
- Translated by: Sherin Esmat
- First edition: 2021
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

- المؤلف: بيثنتي بلاسكو إيبانييث
- العنوان: قصب وطين
- ترجمة: شيرين عصمت
- الطبعة الأولى 2021
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠٢١ / ٩٥٧٧
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 300 - 8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

بيثنتي بلاسكو إيبانييث

قصب وطين

رواية

ترجمة

شيرين عصمت

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

إيبانييث، بيثنتي بلاسكو.

بيثنتي بلاسكو إيبانييث : قصب وطين

ترجمة: شيرين عصمت

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2021

296 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 9577 / 2021

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 300 – 8

1 – العنوان

2 – إيبانييث، بيثنتي بلاسكو

Cañas y barro

Vicente Blasco Ibáñez

Sherin Esmat

هذا العمل نُشر بمنحة من

وزارة التعليم، الثقافة والرياضة الإسبانية

GOBIERNO DE ESPAÑA
MINISTERIO DE EDUCACIÓN, CULTURA Y DEPORTE

"Esta obra ha sido publicada con una subvención del Ministerio de Educación, Cultura y Deporte de España"

- ١ -

مثل كل مساء، أعلن قارب البريد وصوله إلى پالمار[١] بعدة نفخات من البوق.

كان المراكبي، الرجل الصغير النحيف، مبتور الأذن، يذهب من باب إلى باب يتسلم طلبيات من أجل بلنسية، وعند وصوله إلى المساحات المفتوحة في الشارع الوحيد في القرية، كان ينفخ من جديد في البوق فيخبر الأكشاك المتناثرة على حافة القناة عن حضوره. كان يتبع المراكبي ببعض الإعجاب حشد من الصغار شبه عرايا. كان الرجل- الذي يعبر ألبوفيرا[٢] أربع مرات يوميًّا حاملًا معه إلى بلنسية أفضل صيد البحيرة وجالبًا معه من هناك، من المدينة الغامضة الخيالية بالنسبة لهؤلاء الأطفال الصغار في جزيرة القصب والطين، آلاف الأشياء- يوحي لهم بالاحترام.

---

(١) پالمار: هي قرية تابعة لمدينة بلنسية، تقع في الجنوب الشرقي من بحيرة ألبوفيرا. عبارة عن جزيرة تحُدّها عدة تُرع.

(٢) ألبوفيرا: أصل اسمها من كلمة «البحيرة» في اللغة العربية. هي بحيرة ساحلية ضحلة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب مدينة بلنسية. أُعلنت في عام ١٩٨٦ كمنتزه طبيعي؛ حيث يوجد بها الكثير من أنواع الطيور المهاجرة.

كان يخرج من حانة كانيامِل، التي هي أول دكان في پالمار، مجموعة من الحصَّادين بأكياسٍ على أكتافهم للبحث عن قارب من أجل العودة إلى أرضهم. كانت النساء تتوافد على القناة- مثل شارع في البندقية- بضفافها التي تحجبها الأكشاك وأحواض تربية الأسماك حيث كان الصيادون يحتفظون بالأنقليس. وفى الماء الراكد الذي له بريق القصدير بقي قارب البريد لا يتحرك؛ نعش كبير يحمل أشخاصًا وطرودًا، يلامس جانبه سطح الماء تقريبًا. انتهى الشراع المثلث، ذو البقع الداكنة، إلى خِرقة عديمة اللون والتي كانت في أوقاتٍ أخرى علمًا إسبانيًّا يكشف عن الطابع الرسمي للقارب القديم.

كانت تنتشر رائحة نتنة غير محتملة حول القارب. فقد تشربت ألواحه بالرائحة الكريهة لسلال الأنقليس وقاذورات المئات من الركاب: مزيج مقرف من الجلود الجيلاتينية، قشور سمك نما في الطين، أقدام قذرة وثياب وَسِخة، حيث كانوا باحتكاكهم البسيط ينتهون إلى صقل وتلميع مقاعد القارب.

كان الركاب، وأغلبهم حصّادون، يأتون من بِريوُ[1]، الحد الأخير لألبوفيرا الملاصق للبحر، يصيحون وهم يطلبون من المراكبي أن يغادر بأسرع وقت. القارب ممتلئ بالفعل! لم يعد يتسع لمزيد من الناس!

وهكذا. لكن كان الرجل القصير، وهو يُدير نحوهم الجَدَعة المشوهة لأذنه المقطوعة حتى لا يسمعهم، ينشر ببطء على القارب السلال والأكياس التي سلمتها له النساء على الشاطئ. كان كل شيء

(١) بِريو: كيان محلي صغير ينتمي إلى بلدية بلنسية.

يثير احتجاجات جديدة: كان الركاب يزدحمون أو يغيرون أماكنهم، وتلقى أولئك مَن كانوا مِن پالمار ودخلوا القارب وابلًا من الإهانات لها انعكاسات دينية من الجالسين بالفعل. قليل من الصبر! ستجدون الكثير من الأماكن في الجنة!

كان القارب يغرق عند تلقي الكثير من البضائع، دون أن يُبدي المراكبي أدنى قلق، فهو معتاد على الرحلات الجريئة. لم يعد فيه مقعد شاغر. ظل رجلان واقفان عند حافة القارب، ممسكين بالصارية، وآخر وقف في البِروة[1]، كتمثال يُزين السفينة. لا يزال المراكبي هادئ الأعصاب ينفخ في بوقه وسط اعتراض عام... يا إلهي! ألم يكتفِ المحتال بعد؟ هل كانوا سيقضون هناك طوال المساء تحت شمس سبتمبر، التي كانت تضرب جوانبهم وتحرق ظهورهم؟

فجأة ساد الصمت، ورأى الناس من قارب البريد رجلًا يقترب من الشاطئ وهو يستند على امرأتين، طيف أبيض، مرتعد، بعينين لامعتين، متلحف بغطاء سرير. كانت المياه تبدو وكأنها تغلي بسبب حرارة ذلك المساء من الصيف، كان الجميع يتعرق على القارب، يبذل مجهودًا للتخلص من الاتصال اللزج بجاره، وكان ذلك الرجل يرتعد، تصطك أسنانه مع قشعريرة محزنة، كأن العالم انهار في ليلة سرمدية بالنسبة له. اعترضت السيدتان اللتان كانتا تسندانه بكلمات صفيقة عندما رأتا أن مَن في القارب لا يتحركون. كان يجب عليهم ترك مكان له؛ فقد

(١) البِروة: مقدمة القارب.

كان مريضًا، عاملًا. التقط الحمى وهو يحصد الأرز، حُمى الغِب[1] اللعينة في ألبوفيرا، وكان يسير إلى الرُّصافة[2] للعلاج في بيت بعض الأقارب... ربما لم يكونوا مسيحيين؟ أرجوكم! مكان!

وكان الشبح المرتعد من الحمى يكرر كصدى، مع شهيق من القشعريرة:

- أرجوكم! أرجوكم!

دخل بقوة، دون أن يشق له الجمع الأناني طريقًا، ولم يجد مكانًا، فانزلق بين أرجل الركاب، استلقى في العمق، ووجهه ملتصق بالنِّعال القذرة والأحذية المليئة بالطين، وسط بيئة مقرفة. كان يبدو أن الناس معتادون على هذه المشاهد، فذلك القارب كان يقوم بكل الخدمات؛ كان عربة للطعام، للمستشفى وللمقابر. كان يركبه في كل الأيام مرضى ينقلهم إلى ضاحية الرُّصافة، جيران پالمار، بسبب نقص الأدوية، حيث كانوا يضطرون إلى تأجير بعض الغرف الصغيرة الرديئة من الباطن لعلاج حمى الغِب. عندما كان يموت مسكين دون قارب خاص به، كان يُوضع التابوت أسفل مقعد البريد وكان القارب يشرع في السير بالركاب أنفسهم غير المبالين، حيث كانوا يضحكون ويتحدثون، ضاربين بأقدامهم الصندوق الجنائزي. عند اختفاء المريض يظهر الاعتراض من جديد. ماذا كان ينتظر مبتور الأذن؟ هل تخلف أحد؟

---

(١) حمى الغِب: حمى تحدث نتيجة لدغات بعوض الملاريا.

(٢) الرُّصافة: هي كلمة أصلها عربي، وهي تعني الحديقة. بناها أبو مروان عبد الله بن عبد الرحمن الداخل المعروف بلقب عبد الله البلنسي (توفي في ٢٠٨ هـ) على مقربة من بلنسية على غرار الحديقة التي بناها والده عبدالرحمن الداخل بضاحية قرطبة.

واستقبل جميع الركاب تقريبًا بقهقهاتٍ زوجين خرجا من باب حانة كانيامِل إلى القناة مباشرةً. صرخ كثيرون:

– العم پاكو! العم پاكو كانيامِل!

صاحب الحانة، رجل ضخم، منتفخ، بسبب استسقاء البطن، كان يسير بوثبات صغيرة، وهو يشكو في كل خطوة بتنهدات طفل، مستندًا على زوجته نِلِتا، الصغيرة، ذات الشعر الأحمر الصاخب والعينين الخضراوين والحيويتين اللتين كانتا تبدوان أنهما تتعانقان مع نعومة المخمل. كانيامِل الشهير! دائمًا مريض وينتحب، بينما زوجته في كل مرة أكثر جمالًا ولطفًا، كانت تتسيد من منضدتها خاصةً بالمار وألبوفيرا. كان يشكو من مرض الأغنياء: وفرة المال وفرط الحياة الجيدة. لم يكن فيه شيءٌ آخر لرؤيته غير الكرش، الوجه الضارب إلى الحُمرة، الخدود التي كانت تخفي تقريبًا أنفه المستدير وعينيه المختنقتين بسبب تضخم الشحوم. يلومه الجميع على مرضه! إذا اضطر إلى كسب رزقه وهو يحصد الأرز، والمياه حتى خصره، لن يتذكر أنه مريض! وكان كانيامِل يضع رجله داخل القارب، وهو يتألم، بأنينٍ ضعيف، دون أن يُفلت نِلِتا، بينما كان يتأفف من الناس الذين كانوا يسخرون من صحته. هو يعلم كيف كان حاله! آه، يا إلهي! ومع عناية الفلاحين المفرطة بالرجل الثري استراح في مكان تركوه شاغرًا له، بينما كانت زوجته تواجه دون فزع النكات التي امتدحوها بها، فقد كانوا يرونها جميلة للغاية وشجاعة.

ساعدت زوجها في فتح شمسية كبيرة، وضعت بجانبه قُفة بها مؤن لرحلة لن تستغرق ثلاث ساعات، وانتهت إلى أنها أوصت المراكبي

بأكبر قدر من العناية بزوجها پاكو. كان سيقضي الموسم في منزله الصغير في الرُّصافة. هناك سيزوره أطباء جيدون: كان المسكين مريضًا. قالت ذلك وهي مبتسمة، بتعبير ساذج، مداعبة الرجل الضخم اللين، الذي كان يهتز مع الذبذبات الأولى للقارب كأنه هُلام. لم يكن يعير انتباهًا لغمزات الناس الخبيثة، للنظرات المتهكمة والساخرة التي بعد أن انزلقت عليها ثُبتت على صاحب الحانة، المنطوي في مقعده تحت الشمسية وهو يتنفس بتأفف مؤلم. أسند المراكبي المُردي[1] الطويل على الضفة، وبدأ المركب ينزلق عبر القناة متبوعًا بأصوات نِلِتا، التي كانت دائمًا توصي جميع الأصدقاء، بابتسامة مبهمة، بالاعتناء بزوجها.

كان الدجاج يجري بين قمامة الضفة وهو يتبع القارب. كانت أسراب البط تهز أجنحتها حول البِروة التي كانت تعكر مرآة القناة، حيث كانت أكشاك القرية تنعكس مقلوبةً، وقوارب سوداء لها أسقف من القش مربوطة بأحواض تربية الأسماك بمحاذاة الماء، ومزينة أطرافها بصلبانٍ خشبيةٍ، كأنها تضع الأنقليس في جوفها تحت الحماية الإلهية.

عند الخروج من القناة، بدأ قارب البريد ينزلق بين حقول الأرز، حقول شاسعة من الطين السائل مغطاة بسنابل ذات لون برونزي. كان الحصّادون، الغارقون في الماء، يتقدمون والمنجل في أيديهم، وكانت القوارب الصغيرة، السوداء الضيقة كالجندول، تستقبل في جوفها الحِزم التي تُساق إلى الجُرْن. ووسط هذه النباتات المائية، التي كانت

(١) المُردي: عصا طويلة يستخدمها الملاح لتحريك القوارب الصغيرة عن طريق غرز طرفه السفلي في قاع الماء فيندفع القارب إلى الأمام.

مثل امتداد للقنوات، شُيدت من حين إلى حين، فوق الجزر الطينية الصغيرة، منازل بيضاء صغيرة تعلوها مداخن. كانت الماكينات التي تغمر وتجفف الحقول، حسب متطلبات المحصول.

كانت الضفاف العالية تُخفي شبكة من القنوات، المسارات الواسعة حيث كانت تُبحر المراكب الشراعية وهي تحمل الأرز. كانت أبدانها خفية والأشرعة المثلثة الكبيرة تنزلق فوق الحقول الخضراء، في سكون المساء، مثل أشباح تسير على اليابسة.

كان الركاب يتأملون الحقول كخبراء بارعين، يعطون رأيهم عن الحصاد ويتأسفون على حظ هؤلاء الذين دخلت الملوحة أرضهم، وقضت على الأرز. ينزلق القارب عبر قنوات هادئة، ذات ماء ضارب إلى الصُّفرة، مثل بريق الشاي الذهبي. وفى العمق، كانت النباتات المائية يميل شعرها بلمسة خفيفة من قاعدة المركب. كان السكون وسلاسة الماء يزيدان من الأصوات. ففي اللحظات التي كانت المحادثات تتوقف فيها، كان يُسمع بوضوح التنفس الحزين للمريض المُمدد تحت المصطبة والهمهمة الرتيبة لكانيامِل عندما يتنفس وذقنه تغوص في صدره. وكانت تأتي من القوارب البعيدة غير المرئية تقريبًا أصوات اصطدام المُردي وقت سقوطه فوق سطح القارب، صرير الصواري وأصحاب القوارب وهم ينبهون بعضهم البعض حتى لا يصطدموا عند منعطفات القنوات، والتي زادت بسبب الهدوء. وقد تخلى السائق مبتور الأذن عن المُردي، وهو يقفز فوق رُكَب الركاب من طرف لآخر في القارب مُصلحًا الشراع ليستغل النسيم الخفيف

للمساء. كانوا قد دخلوا في البحيرة، في الجزء الخاص بألبوفيرا المسدود بالبوص والجُزُر، حيث كان ينبغي الإبحار بانتباه شديد. كان الأفق يتسع. في جانب، الخط المظلم والمتموج لأشجار الصنوبر في دِئِسا[١] التي تفصل ألبوفيرا عن البحر، الغابة تقريبًا بكر تمتد فراسخ وفراسخ، حيث ترعى الثيران الشرسة وتعيش الزواحف الكبيرة في الظل، والتي يراها القليل، لكن يتحدثون عنها برعب خلال الأمسيات. على الجانب الآخر، السهل الشاسع لحقول الأرز يضيع في الأفق من جانب سويانا وسويكا[٢]، مختلطًا بالجبال البعيدة. في المواجهة، كان البوص والجُزُر الصغيرة تغطي البحيرة الخالية، ينزلق القارب من خلالها، يغوص بمقدمته في النباتات المائية، يلامس شراعه القصب الذي يتقدم عن الضفاف. كانت تصعد حتى السطح الأعشاب الداكنة والجيلاتينية المتشابكة مثل مخالب لزجة لتتشابك مع مُردي المراكبي، وكانت النظرة تستطلع النبات المعتم والعفن، والذي كان يتكاثر في جوفه بهائم الوحل. عبّرت كل الأعين عن التفكير نفسه: مَن يقع هناك، من الصعب إخراجه.

كان قطيع من الثيران يرعى في شاطئ الأسل[٣] والبِرك المجاورة لدِئِسا. بعضها عبَر سباحةً إلى الجزر المجاورة، كانت تغوص في الوحل حتى بطونها وتجتر القصب، محركةً بقبقبة قوية قوائمها الثقيلة.

---

(١) دِئِسا: غابة من أشجار البلوط وأنواع أخرى مع طبقة منخفضة من الأراضي العشبية والشجيرات.

(٢) سويانا وسويكا: بلديتان في منطقة بلنسية، مشهورتان بزراعة الأرز.

(٣) الأسل: هو نبات ذو أغصان كثيرة شائكة الأطراف، ينبت في الماء وفى الأرض الرطبة، وتُصنع منه الحُصر والحبال.

لقد كانت بضعة حيوانات كبيرة، وَسِخة، ظهورها مغطاة بالقشرة، قرونها ضخمة ويغطي الزَّبَد خَطْمَها. كانت تنظر بشراسة إلى القارب المثقل الذي كان ينزلق بينها، وعند تحريك رؤوسها كانت تتبدد حولها سحابة من البعوض الكثيف التي كانت تسقط من جديد فوق جبهاتها المجعدة.

على مسافةٍ قريبةٍ، على ضفة لم تكن أكثر من لسانٍ ضيقٍ من الوحل بين مائين، رأى ركاب القارب رجلًا يجلس القرفصاء. عَرَفه مَن كان مِن پالمار. صرخوا:

– إنه سانجونِرا! سانجونِرا الثمل!

كانوا يسألونه صارخين، وهم يلوحون بقبعاتهم، أين توسل مشروبه هذا الصباح وإذا كان يفكر أن يبيت هناك. كان لا يزال سانجونِرا ساكنًا، لكنه متعبٌ من ضحكات وصرخات من كانوا على متن القارب، فوقف، وخبط بعض الخبطات على ظهره، وهو يلف في استدارةٍ خفيفةٍ على قدمٍ واحدة، مع تعبير بالازدراء، وعاد فانحنى بشدة.

عند رؤيته واقفًا تضاعفت الضحكات، هائجة بسبب مظهره الغريب. كان يرتدي قبعة مزينة بعودٍ طويل من زهور دِئِسا وعلى الصدر وحول خصره تلتف بعض شرائط اللبلاب البريّ التي كانت تنمو بين قصب الضفة. كان الجميع يتحدث عنه. سانجونِرا الشهير! لم يكن يوجد غيره في قرى البحيرة. كانت لديه نية قوية على أن لا يعمل مثل باقي الرجال، مصممًا على أن العمل إهانة لله، وكان يقضي اليوم يبحث عن من يدعوه للشراب. كان يسكر في بِرِيو لينام في پالمار، كان يشرب

في پالمار ليستيقظ في اليوم التالي في سالِر[١]، وإذا كان هناك احتفال في قرى البر، كان يُرى في سيّا أو في كاتارّوخا[٢] يبحث بين الناس الذين كانوا يزرعون الحقول في ألبوفيرا عن شخص جيد يدعوه. كان عدم ظهور جثته في قاع القناة معجزة، بعد كثير من الرحلات سيرًا عبر البحيرة، في حالة سُكر تام، مُتَّبِعًا حدود حقول الأرز الضيقة مثل حد الفأس، يجتاز فتحات التُّرع والماء حتى صدره ويعبر أماكن الطين المتحرك حيث لا أحد كان يتجرأ على المغامرة لو لم يكن في قارب. كانت ألبوفيرا بيته. كانت غريزة ابن البحيرة لديه تُخرجه من الخطر، وفى ليالٍ كثيرة، عندما كان يأتي إلى حانة كانيامِل ليتسول كأسًا، كانت له اللمسة اللزجة ونتانة الوحل لأنقليس حقيقي. تمتم صاحب الحانة بين تأففه عندما سمع المحادثة. سانجونِرا! الجريء الوقح! ألف مرة يُمنع من دخول منزله! وكان الناس يضحكون وهم يتذكرون زينة المتشرد الغريبة، هوسه بتغطية نفسه بالزهور والتحزم بالأكاليل كهمجي كاد أن يبدأ في تخمير النبيذ في معدته الجائعة.

كان القارب يتوغل في البحيرة. بين مجموعتين من البوص، مشابهتين لأرصفة الميناء، كان هناك امتداد هائل للماء اللامع، الساطع، ذي اللون الأزرق الضارب إلى البياض. كانت براقة، ألبوفيرا الحقيقية، البحيرة الخالية، مع غابات القصب الصغيرة المتناثرة على مساحات كبيرة، حيث كانت تلجأ طيور البحيرة الملاحَقة من قِبَل قناصي المدينة. كان القارب يحاذي جانب دِئِسا، حيث بعض الأراضي الموحلة المغطاة

(١) سالِر: قرية صغيرة على أطراف بلنسية الجنوبية. وهي موطن للعديد من الطيور المائية النادرة.
(٢) سيّا وكاتارّوخا: بلديتان تابعتان لمقاطعة بلنسية.

بالماء والتي تحولت ببطء إلى حقول أرز.

في هَور صغير مغلق بمنحدرات من الوحل، كان رجل قوي العضلات يرمي قُفَفًا من التراب من قاربه. تعجب الركاب. كان العم تونو، ابن العم پالوما، وبدوره والد تونِت الكوبي. وعند تسمية هذا الاسم الأخير، نظر كثيرون بخبث إلى كانيامِل، الذي كان يهمهم كأنه لا يسمع شيئًا. لم يكن يوجد رجل في ألبوفيرا يعمل أكثر من العم تونو. كان مصممًا على أن يكون صاحب مِلك، امتلاك حقول الأرز الخاصة به، عدم العيش على صيد الأسماك مثل العم پالوما، الذي كان المراكبي الأكبر سنًّا في ألبوفيرا، ولأن عائلته كانت تساعده فقط في المواسم- حيث كانت تُجهَد من ضخامة العمل- فقد كان وحده يملأ بالتراب، المجلوب من بعيد، البركة العميقة التي تنازلت عنها سيدة غنية لم تكن تعرف ماذا تفعل بها.

كان مشروع أعوام، ربما حياة كاملة، لرجلٍ وحيد. كان العم پالوما يسخر منه، فابنه كان يساعده من حينٍ لآخر، ليُصرح أنه متعب بعد أيامٍ قليلة، وكان العم تونو يظل، بإيمانٍ لا يتزعزع، مستمرًّا، تساعده لابوردا فقط، فتاة فقيرة أخذتها زوجته المتوفاة من اللقطاء، خجولة مع الجميع ومثابرة في العمل مثله.

- مرحبًا، أيها العم تونو، لا تستسلم! يا ليت الأرز يُقطف من حقله قريبًا!

وابتعد القارب، دون أن يرفع العامل العنيد رأسه لأكثر من لحظة ليُجيب على التحيات الساخرة. وبعد بقليل، في قارب صغير مثل

التابوت، رأوا العم پالوما بجانب صف من الأوتاد يلقي شباكه ليجمعها في اليوم التالي.

كانوا يتناقشون في القارب إذا كان العجوز يبلغ التسعين عامًا أو شارف على المائة. ما رآه ذلك الرجل دون الخروج من ألبوفيرا! الأشخاص الذين تعامل معهم!. كانوا يكررون إهانته المعهودة- والتي تضخمت بسبب السذاجة الشعبية- مع الجنرال بريم حيث كان المراكبي الخاص به في رحلات صيده عبر البحيرة، فظاظته مع سيدات عظيمات وحتى مع ملكات. ظل العجوز- الذي تنبأ بهذه التعليقات وأحس بنفسه متخمًا من الفخر- منحنيًا يتفحص الشباك، يبرز ظهره المغطى ببلوزة ذات مربعات واسعة وغطاء الرأس الأسود حتى الأذنين القاسيتين، واللتين كانتا تبدوان متباعدتين عن الجمجمة. عندما مر بجانبه قارب البريد، رفع رأسه، مُظهرًا العمق السحيق الأسود لفمه الأدرد ودوائر التجاعيد الضاربة إلى الحمرة التي كانت تلتقي حول العينين العميقتين المتقدتين بسبب السخرية. بدأت الرياح تنتعش. انتفخ الشراع مع اهتزازات جديدة ومال القارب المحمل حتى تبللت ظهور من كانوا جالسين على السطح. وحول البِروة، كان الماء، المنشطر بعنف، يغني جلوجلو[1] في كل مرة أكثر قوةً. كانوا بالفعل في لا ألبوفيرا الحقيقية، في اللمعان الشاسع، الأزرق والمصقول مثل مرآة بندقانية[2]، والتي كانت تصور المراكب المعكوسة والشواطئ البعيدة

(١) جلوجلو: صوت المياه الجارية.

(٢) نسبة إلى البندقية أو فينيسيا.

مع المحيط الأفعواني قليلًا. كانت السُّحب تدور في عمق البحيرة مثل خصلة متلبدة من الصوف الأبيض: على شاطئ دِئِسا، بعض القناصين تتبعهم كلاب تضاعف حجم صورتها على الماء، يسيرون ورأسهم لأسفل. في جزء اليابسة، كانت تبدو القرى الكبرى لريبِرا[1]، بأراضيها المخبأة بسبب المسافة، تطفو فوق البحيرة.

غيرت الرياح، الأكثر قوةً في كل مرة، سطح ألبوفيرا. أصبحت التموجات أكثر عمقًا، أخذ الماء الصبغة الخضراء المماثلة للبحر، اختفت أرض البحيرة، وعلى شواطئ الرمل الخشن المتكونة من الصدف بدأ التموج يُرَسِّب خصلات ضاربة للصُّفرة من الزَّبَد، وفقاعات صابون كانت تسطع بألوان قوس قزح في ضوء الشمس.

انزلق القارب على طول دِئِسا وعبرت بسرعة من أمامه تلال الحجر الرملي وعلى قمتها أكواخ الحراس، ستائر كثيفة من الشجيرات، مجموعات من الصنوبر الملتوي بأشكالٍ مرعبة، مثل حزمة من الأطراف المعذبة. كان الركاب، الهائجون من السرعة، المتحمسون من الخطر الذي كان يبديه الزورق وهو يجر أحد حوافه في مستوى البحيرة، يحيّون بصراخ القوارب الأخرى التي كانت تمر من بعيد وكانوا يمدون أيديهم لتلقي صدمة الأمواج المهتزة بسبب سرعة السير. كانت المياه تدور حول الدفة. وعلى مسافة قصيرة كان يطفو غطاسان، عصفوران داكنان كانا يغمران نفسيهما ويعودان ليُخرجا رأسيهما بعد غطسٍ

(١) ريبِرا: منطقة تابعة لمقاطعة بلنسية، وهي ثاني أكثر المناطق الحضرية فيها اكتظاظًا بالسكان.

طويل، ليلهيا الركاب بتطورات صيد الأسماك. وأبعد، على الشجيرات، على جزر القصب المائي الكبيرة، طارت طيور الغُرّة[١] والبُركة[٢] ببطء عند اقتراب القارب، كأنها تتكهن أن هؤلاء الناس كانوا مسالمين. تلون بعضهم من التأثر عند رؤيتها... يا لها من طلقة رائعة! لماذا كان يجب منع الرجال من القنص كما يشاءون دون إذن؟ وبينما كان المولعون بالقتال مغتاظين، رن في عمق القارب أنين المريض وتأوه كانيامِل مثل طفل مصاب بـأشعة الشمس التي انزلقت تحت مظلته.

بدت الغابة وكأنها ابتعدت عن البحر، تاركة بينها وبين ألبوفيرا سهلًا منخفضًا شاسعًا مُغطى بالنباتات البرية، تخترقه مسافات من المظهر اللامع للبحيرات الصغيرة. كان سهل سانتشا. قطيع من الماعز يحرسه صبي كان يرعى بين الأدغال، وعند رؤيته لاح في ذاكرة أبناء ألبوفيرا الرواية التي منحت الوادي اسمه. تساءل مَن كانوا مِن وسط البلاد، الذين عادوا إلى منازلهم بعد أن كسبوا أجر الحصاد الكبير، عن تلك السانتشا التي سمتها النساء ببعض الرعب، وكان مَن هم من البحيرة يحكون إلى الأجنبي الأقرب الأسطورة البسيطة التي كان الجميع يتعلمها منذ الصغر. راعٍ صغير مثل الذي يسير على الشاطئ كان يرعى أغنامه في السهل نفسه فيما مضى. كان هذا قبل سنوات عديدة، عديدة..! كثيرة، حيث لم يكن أحد من عجائز ألبوفيرا الآن يعرف الراعي، ولا العم پالوما نفسه. كان الصبي يعيش مثل همجي في وحدة،

(١) الغُر: طائر مائي يتميز بلونه الأسود أو الرمادي الغامق، ووجود علامات بيضاء مميزة على الجبهة.
(٢) البُركة: البط البري أو البط الخضاري.

وكان أصحاب المراكب الذين يصطادون السمك في البحيرة يسمعونه يصرخ من بعيد جدًّا، في الصباح الهادئ:

- سانتشا! سانتشا!

كانت سانتشا حية صغيرةً، الصديقة الوحيدة التي كانت تصاحبه. كانت الدويبة الكريهة تأتي على صوت الصياح، وكان الراعي، يحلب أفضل أغنامه، ويقدم لها وعاء من الحليب. فيما بعد، في الساعات المشمسة، كان يصنع مزمارًا مُقَطِّعًا القصب من البوص وينفخ بعذوبة، كان يستقيم جزء من جسد الزحّافة، وهي عند قدميه، ثم تقلصه كأنها تريد الرقص على إيقاع الصفارات الرقيقة. في أوقاتٍ أخرى، كان الراعي يتسلى بأن يفكك حلقات سانتشا، ممددًا إياها في خط مستقيم على الرمال، ويُسر عندما يرى اندفاعها العصبي وهي تلتف مرة أخرى على نفسها. عندما كان يأخذ قطيعه، وهو متعب من هذه الألعاب، إلى الطرف الآخر من السهل الكبير، كانت الحية تتبعه مثل جرو، أو تلتف على رجليه فتصل حتى رقبته، تبقى هناك خائرةً مثل الميت، بعينيها الماسيتين المثبتتين على عيني الراعي، فينتصب زغب وجهه مع صافرة فمها المثلث.

كان أهالي ألبوفيرا يعتبرونه ساحرًا، وكانت أكثر من امرأة ممن كن يسرقن الحطب من دِئِسا، يقمن بعمل إشارة الصليب عند رؤيته وسانتشا على رقبته وكأن الشيطان قد حضر. وهكذا كان الجميع يستوعب كيف كان يستطيع الراعي النوم في الغابة دون خوف من الزواحف الكبيرة التي كانت تكثر في الدَّغَل. كانت سانتشا، التي لا بد أنها شيطان، تحفظه من كل خطر.

كبُرت الحية وأصبح الراعي رجلًا، بينما لم يعد يراه سكان ألبوفيرا. ذاع أنه صار جنديًّا وذهب ليقاتل في حروب إيطاليا. لم يعد أحد يرعى أي قطيع آخر في السهل البري مرةً أخرى. لم يرق للصيادين، عند النزول إلى اليابسة، المجازفة بين الأسل الطويل الذي كان يغطي الهور النتن. كان لا بد أن سانتشا تطارد أرانب دِئِسا التي لا تُحصى، فقد افتقدت الحليب الذي كان يهديه إليها الراعي.

مرت ثمانية أو عشرة أعوام، وذات يوم رأى سكان سالِر في طريق بلنسية، جنديًّا، طويل القامة هزيلًا وعابسًا، مستندًا على عصا وحقيبة على ظهره، يرتدي مِسماة[1] سوداء تصل إلى ما فوق الركبتين، سترة عسكرية طويلة بيضاء مع زركشة من الجوخ الأحمر وقلنسوة على شكل تاج أسقف على شعره الممشط بضفيرة. لم يمنع شاربه الكبير من التعرف عليه. كان الراعي، الذي عاد متشوقًا ليرى أرض طفولته. بدأ طريق الغابة المتاخم للبحيرة، ووصل إلى السهل المستنقعي حيث كان في أوقاتٍ أخرى يحفظ ماشيته. لا أحد. كانت اليعاسيب تحرك أجنحتها فوق الأسَل الطويل مع طنين ناعم، وفى البرك المختفية تحت الأدغال كانت العلاجيم، الخائفة من اقتراب الجندي طويل القامة، تخوض في الماء.

– سانتشا! سانتشا!

نادى الراعي القديم برفق.

(١) المِسماة: جورب من الصوف طويل يقي من البرد.

صمت مطلق. حتى وصلته الأغنية الناعسة لمراكبي غير مرئي كان يصطاد السمك في وسط البحيرة.

– سانتشا! سانتشا!

عاد ليصرخ بكل قوة في رئتيه.

وعندما كرر نداءه مراتٍ كثيرة، رأى أن الأعشاب الطويلة كانت تهتز وسمع جلبة قصب متكسر، كأن جسمًا ثقيلًا يزحف. تلمع عينان من بين الأسَل بمثل ارتفاع عينيه وتتقدم رأس مفلطحة وهي تحرك لسانها الذي يُشبه المذراة الصغيرة، بنفخات كئيبة بدت أنها تجمد دمه وتشل حياته. كانت سانتشا، لكنها ضخمة، بديعة، ترتفع إلى ارتفاع رجل، تجر ذيلها بين الدغل حتى اختفى عن الأنظار، بجلدها متعدد الألوان وجسمها السميك مثل جذع صنوبر. صرخ الجندي، متراجعًا بدافع الخوف:

– سانتشا! كيف كبرتِ! كم أنتِ ضخمة!

حاول الهرب. لكن الصديقة القديمة، بعد أن مرت لحظات الدهشة الأولى، بدا أنها تعرفت عليه والتفت حول كتفيه، تشد عليه بحلقة من جلدها الغليظ المهتز بسبب ارتعاشات عصبية. جاهد الجندي.

– أفلتيني، يا سانتشا، أفلتيني! لا تحتضنيني. لقد أصبحتِ ضخمة للغاية على هذه الألعاب.

ضغطت حلقة أخرى على ذراعيه، كبلتهما. كان فم الزاحفة يداعبه كما كان قديمًا، كان نَفَسها يهز شاربه، مسببة له قشعريرة مقلقة، وبينما

كانت الحلقات تنقبض، كانت تضيق، حتى إن الجندي المخنوق، وعظامه تطقطق، سقط على الأرض محاطًا بأسطوانة من الحلقات المرقطة. في غضون أيامٍ قليلة، وجد بعض صيادي السمك جثته: كتلة لا شكل لها، بعظام مهشمة ولحم ضارب إلى البنفسجي بسبب قبضة سانتشا التي لا تُقاوم. وهكذا مات الراعي، ضحية حضن من صديقته القديمة.

في قارب البريد كان الغرباء يضحكون وهم يسمعون القصة، بينما كانت السيدات تهز أقدامهن ببعض الاضطراب، معتقدين أن ما كان يتحرك بالقرب من تنانيرهن مع الآهات المكتومة هي سانتشا، تحتمي في قاع القارب.

انتهت البحيرة. دخل القارب مرةً أخرى شبكة من القنوات، وبعيدًا، بعيدًا جدًّا، فوق حقول الأرز الهائلة، كانت تظهر منازل سالِر، قرية ألبوفيرا الصغيرة الأقرب إلى بلنسية، بمينائها المشغول بعدد لا يُحصى من المراكب الصغيرة والقوارب الكبيرة التي كانت تقطع الأفق بصواريها غير المنحوتة، التي تشبه الصنوبر المقشر.

حل المساء. كان القارب ينزلق بسرعة أقل عبر الماء الراكد في القناة. كان ظل الشراع يمر مثل سحابة فوق حقول الأرز الضاربة إلى الحمرة بسبب غروب الشمس، وعلى الضفة برزت خيالات الركاب على خلفية برتقالية. كان الناس العائدون من الحقول يحركون المُردي باستمرار، واقفين في القوارب السوداء الصغيرة، الصغيرة جدًّا، وحافتها بمحاذاة الماء تقريبًا. كانت هذه الزوارق أحصنة ألبوفيرا. منذ الطفولة، كان كل المواليد في تلك العشيرة البُحيرية يتعلمون قيادتها.

فقد كان لا غنى عنها من أجل العمل في الحقل، الذهاب إلى الجار، وكسب الرزق. ما كان يمر طفل، امرأة أو عجوز عبر القناة، حتى يحرك الجميع المُردي بخفة ويغرزوه في العمق الموحل لجعل أقدامهم، أي زوارقهم، تنزلق فوق المياه الراكدة. كانت تنزلق قوارب صغيرة أخرى في الترع القريبة، غير مرئية خلف المنحدرات، وفوق الأدغال كان الملاحون يتقدمون بجذعهم المنتصب، وهم يسيرون بدفعات سريعة من قبضات أيديهم. ومن حين لآخر كان قارب البريد يفتح فجوات واسعة في الضفاف، يتناثر خلالها ماء القناة دون جلبة ولا حراك، راقدةً تحته طبقة من الخَضار اللزج والطافي. كانت شبكات الأنقليس المعلقة على أعواد تغلق هذه المداخل. وعند اقتراب القارب، كانت تقفز من أراضي الأرز جرذان ضخمة، تختفي في طين الترع. شعر مَن كانوا من قبل متحمسين لصيد طيور البحيرة بالغضب يولد من جديد وهم يرون جرذان القنوات. يا لها من طلقة جيدة! عشاء رائع للمساء! كان الناس من وسط البلاد يبصقون بتعبير اشمئزازي، بين ضحكات واعتراضات من أهالي ألبوفيرا. طعام لذيذ! كيف يمكنهم الكلام لو لم يحاولوا مطلقًا؟ كانت جرذان المستنقع تأكل الأرز فقط، كانت طبق الأمير. لم يكن هناك شيء أكثر يمكن رؤيته في سوق سويكا، مسلوخة، معلقة بالدزينة من ذنبها الطويل على طاولات الجزارين. كان يشتريها الأثرياء، الأرستقراطيون من سكان ريبِرا لم يكونوا يأكلون شيئًا آخر. وكان كانيامِل يتوقف عن التأوه ليؤكد بجدية أنه عرف حيوانين فقط في العالم من دون مرارة: الحمامة والجرذ. فلِكَونه ثريًّا يعتقد أنه من الضروري أن يقول شيئًا، رغم كل ما قيل.

نشطت المحادثة. علامات الاشمئزاز البادية على الغرباء أدت إلى إثارة سكان ألبوفيرا. الفقر المادي لأهل البحيرة، بؤس قرية محرومة من اللحم، لم يعرفوا بهائم غير التي رأوها تجري من بعيد في دِئِسا ويعيشون محكومًا عليهم طوال حياتهم أن يتغذوا على الأنقليس وأسماك الطين، يكشفون عن أنفسهم بطريقة متبجحة، برغبة واضحة في إذهال الغرباء وهم يمتدحون شجاعة بطونهم. وكانت السيدات تعددن جودة الجرذان في البايِّيا، فقد كان الكثيرون يأكلونها دون معرفة ذلك، يُذهَلون بالطعم غير المعروف. تذكر آخرون يخنة الثعبان، يمتدحون حلقاته البيضاء اللذيذة، التي تتفوق على حلقات الأنقليس، وقطع المراكبي صمته طوال الرحلة لكي يتذكر قطة حديثة الولادة تناولها على العشاء هو وأصدقاء آخرون في حانة كانيامِل أعدها بحار صار ماهرًا في هذه الأطباق بعد أن طاف معظم أرجاء العالم.

هبط الليل. اسودت الحقول. تلونت القناة ببياض القصدير في ضوء الشفق الخافت. في عمق الماء كانت تلمع أولى النجمات، تهتز مع عبور القارب. كانوا قريبين من سالِر. فوق أسطح الأكواخ الخشبية كان ينتصب بين عمودين مربعين الجرس الكبير لمنزل لادِمانا، حيث كان يجتمع القناصون وأصحاب المراكب عشية جولات الصيد لاختيار الأماكن. بجانب المنزل كانت هناك عربة ضخمة، والتي كانت تقود ركاب البريد إلى المدينة.

كان النسيم قد توقف، سقط الشراع على طول السارية، وكان الرجل مبتور الأذن يمسك بالمُردي، متكئًا على الضفاف لدفع المركب.

مر باتجاه البحيرة قارب صغير محمل بالتراب. كانت تتعلق صبية

بهمة في البِروة، وفي الطرف الآخر كان يساعدها شاب يرتدي قبعة من القش كبيرة. عرفهما الجميع. كانا أبناء العم تونى، اللذين كانا يحملان التراب إلى حقله: لابوردا، تلك اللقيطة التي لا تكل، والتي كانت أفضل من الرجل، وتونِت الكوبي، حفيد العم پالوما، الفتى الأكثر جمالًا في كل ألبوفيرا، رجل سافر كثيرًا وكان لديه ما يحكيه. صاحوا عليه بألفة:

- وداعًا بيجوتِ!

أطلقوا عليه هذا اللقب بسبب الشارب الذي كان يُلقي ظله على وجهه الأسمر، زينة عفا عليها الزمن في ألبوفيرا، حيث كان الجميع يحلق وجهه. سأله آخرون بتعجب وسخرية: منذ متى كان يعمل؟.

ابتعد المركب الصغير، دون أن يُبدي تونِت، الذي كان يرمي نظرات سريعة على الركاب، أنه سمع النكات. نظر الكثيرون ببعض الوقاحة إلى كانيامِل الذي سمح لمثل هذه النكات الفظَّة أن تُقال في حانته... احذر، أيها العم پاكو! هو سيذهب إلى بلنسية، بينما تونِت سيقضي الليل في پالمار! تظاهر صاحب الحانة في البداية أنه لم يسمعهم، حتى إنه، وقد تعب من المعاناة، اعتدل بدفعة عصبية، بينما مرت في عينيه شرارة غضب. لكن الكتلة الدهنية من جسده بدت أنها أثقلت على إرادته، وانكمش على المقعد، كأن المجهود يسحقه، وهو يئن مرةً أخرى بشكلٍ مؤلم ويهمهم بين آهاته:

- عديمو الأدب! عديمو الأدب!

- ٢ -

كان كوخ العم پالوما الخشبي يقف عند أحد أطراف پالمار. قسَّم حريق ضخم البلدة، فغيّر مظهرها. نصف پالمار التهمه اللهب. تحولت الأكواخ التي كانت من القش إلى رماد، وبنى أصحابها، الذين يرغبون في العيش من الآن فصاعدًا دون خوف من النار، مباني من الطوب الشمسي المحروق، يرهن الكثير منهم ثرواتهم الزهيدة لإحضار المواد التي تصير باهظة التكاليف بعد اجتيازها البحيرة. يُغطَّى الجزء الذي عانى من الحريق في القرية بالمنازل الصغيرة، مع واجهات مطلية باللون الوردي، الأخضر أو الأزرق. الجزء الآخر من پالمار حافظ على الطابع البدائي، بأسقف أكواخها الدائرية من الجهتين، مثل القوارب المعكوسة على الجدران الطينية.

من الساحة الصغيرة للكنيسة حتى آخر البلدة على جانب دِئِسا، كانت الأكواخ تمتد متباعدة الواحد عن الآخر خوفًا من الحريق، كأنها مزروعة بشكلٍ عشوائي. كان كوخ العم پالوما هو الأقدم. كان قد بناه والده في الأزمان التي كانت تنتشر فيها الحُمى في ألبوفيرا.

كانت الأدغال حينها تصل حتى جدران الأكواخ. كان الدجاج يختفي عند باب المنزل، حسب ما كان يقصه العم پالوما، وعندما يعود للظهور، بعد أسابيع، يكون خلفه موكب من الكتاكيت حديثة الولادة. كذلك كانوا يصطادون ثعلب البحر من القنوات، وكان سكان البحيرة قليلين، بحيث لم يكن يعرف أصحاب المراكب ماذا يفعلون بصيد السمك الذي كان يملأ شباكهم. كانت بلنسية بالنسبة لهم في الطرف الآخر من العالم، والوحيد الذي كان يحضر من هناك المارشال سوتشِت، مُعيَّن من قِبَل الملك خوسيه دوق ألبوفيرا وسيد البحيرة والغابة، بكل ثرواتهما. كانت ذكراه هي الأبعد في ذاكرة العم پالوما. ما زال العجوز يعتقد أنه رآه بشعرٍ أشعث وسوالف عريضة، مرتديًا حلة مراسم رمادية وقبعة دائرية، محاطًا برجال بزي رسمي يحملون له البنادق. كان المارشال يصطاد في قارب والد العم پالوما، وكان الولد الصغير يتأمله بإعجاب، وهو يمسك بالبِرِوة. كان في أحيانٍ كثيرةٍ يضحك من اللغة غير المتقنة التي كان يشرح بها القائد وهو ينتحب تأخر البلاد أو كان يحكي أحداث الحرب بين إسبانيا وإنجلترا، والتي كانوا يعرفون أخبارًا مبهمة عنها في البحيرة.

ذات مرة ذهب مع والده إلى بلنسية من أجل إهداء دوق ألبوفيرا أنقليسًا بحريًّا، لافتًا النظر إلى حجمه، واستقبلهم المارشال ضاحكًا، مرتديًا زيًّا رسميًّا فخمًا مبهرًا بتطريزه الذهبي، وسط ضباط كانوا يتألقون مثل تألقه. عندما أصبح العم پالوما رجلًا، ومات والده أصبح صاحب كوخ خشبي وقاربين، ولم يعد هناك دوق لألبوفيرا، بل قضاة،

كانوا يحكمون باسم سيدهم الملك، سادة أفاضل من المدينة لم يكونوا يأتون إلى البحيرة قط، تاركين القناصين ينهبون في دِئِسا ويصطادون بكامل حريتهم الطيور التي كانت تتربى في البوص.

كانت تلك عصور جيدة، وعندما كان العم پالوما يتذكرها بصوت الشيخ الهَرِم في جلسات السمر في حانة كانيامِل، كان الشباب ينتفضون من الحماسة. كان يتم اصطياد السمك والقنص في الوقت ذاته، دون الخوف من الحراس ولا الغرامات. وعندما يهبط الليل كان الناس يعودون إلى منازلها بدزينات من الأرانب التي اصطادها ابن المِقرَض في دِئِسا، وأكثر من هذا، سلال من الأسماك وسلاسل من الطيور التي تم اصطيادها في حقول القصب. كان كل شيء مِلك الملك، والملك كان بعيدًا. لم يكن الأمر مثل الآن، صارت ألبوفيرا تتبع الدولة (من سيكون هذا السيد!) ويوجد متعهدون للصيد ومستأجرون من دِئِسا، والفقراء غير قادرين على إطلاق رصاصة واحدة ولا جمع حزمة من الحطب دون أن يظهر الحرس في لحظة بالعَلَم على صدورهم والكاربين[1] مصوبة.

حافظ العم پالوما على تفوق والده. كان أول مراكبي في البحيرة، ولم يكن يصل شخص إلى ألبوفيرا لم يكن يحمله هو خلال جُزر القصب الصغيرة مُظهرًا له طُرَف المياه واليابسة. كان يتذكر الشابة إيسابيل الثانية، تملأ بتنانيرها الواسعة مؤخرة القارب الصغير المزين، ويتحرك نصفها العلوى الذي كان لفتاة جميلة مع كل دَفعة من مُردي

(١) الكاربين: عبارة عن سلاح ناري يشبه البندقية ولكن سبطانته أقصر من البندقية وأطول من المسدس.

المراكبي. كان الناس يضحكون وهم يتذكرون رحلته عبر البحيرة مع الإمبراطورة أوخينيا. هي في البِروة، رشيقة، ترتدي زيًّا أمازونيًّا، مع بندقية جاهزة دائمًا، تُسقط الطيور التي جعلها الكشافة الماهرون تخرج من حقول القصب بالعصا والصراخ، وفى الطرف المعاكس، كان العم پالوما، الماكر والخبيث، مع بندقيته القديمة بين ساقيه، يقتل الطيور التي كانت تهرب من السيدة العظيمة ويحذرها بقشتاليته الرائعة من وجود بطة برية، «صاحبة الجلالة... احذري! هربت من خلفك بطة برية».

كان الجميع راضين عن المراكبي العجوز. كان وقحًا، له فظاظة ابن الهَور، لكن التملق الذي كان يفتقده لسانه كان يوجد في بندقيته، سلاح جليل، مليء بالإصلاحات، إلى حد عدم معرفة ماذا تبقى من صناعتها الأصلية. كان العم پالوما مُطلق نار مدهشًا. كان كذابو البحيرة يكذبون في حساباتهم، حتى إن الأمر وصل بهم إلى أنهم أكدوا موت أربعة من طيور الغُرة ذات مرة بطلقةٍ واحدة. وعندما كان يريد أن يتملق راميًا متوسط المستوى، كان يقف خلفه في القارب ويطلق النار في الوقت ذاته بمنتهى الدقة، بحيث يتم الخلط بين دوي الرصاصتين، وكان القناص يندهش، وهو يرى سقوط القطع، من مهارته، بينما المراكبي، من خلفه كان يحرك أنفه بخبث. كانت أفضل ذكرى له هي الجنرال پريم. كان قد قابله في ليلةٍ عاصفة فحمله في قاربه عبر البحيرة. كانت أزمنة المحن. كان المينيونِس[1] يسيرون بالقرب، وكان

(١) المينيونِس: هم كيان أُنشئ في عام ١٧٧٤ في بلنسية بأمرٍ ملكي، وذلك للحفاظ على النظام العام وقمع قطاع الطرق.

الجنرال متنكرًا في زي عامل، هرب من بلنسية بعد محاولة غير ناجحة لتمرد الحامية. سار به العم پالوما حتى البحر، وعندما عاد ليراه، بعد عام، أصبح رئيس الحكومة ومعبود الأمة. تخلى عن الحياة السياسية وهرب من مدريد، بضع مرات، لكي يقنص في البحيرة، وكان العم پالوما، الجريء والمألوف له بعد المغامرة السابقة، يوبخه كأنه صبي لو أنه أخفق الطلقة. بالنسبة له لم يكن يوجد أُناس عظماء: فقد كان الرجال ينقسمون إلى قناصين جيدين وسيئين. فعندما كان البطل يُطلق النار دون إصابة هدف، كان المراكبي يغتاظ حتى أنه يتحدث معه دون كُلفة. «جنرال... الأكاذيب. هل هو الشجاع الذي فعل كثيرًا من الأمور هناك في المغرب؟... انظر، انظر وتعلم».

وبينما كان التلميذ المجيد يضحك، كان المراكبي يُطلق النار من بندقيته تقريبًا دون أن يصوب، فكان يقع طائر الغُرة في الماء مُحدثًا كرة. كل هذه النوادر أعطت للعم پالوما سمعة عظيمة بين الناس في البحيرة. ما يمكن أن يكون عليه هذا الرجل لو فتح فمه وطلب شيئًا من زبائنه! لكنه دائمًا متحفظ وبذيء، يتعامل مع الأشخاص على أنهم رفاق حانة، يجعلهم يضحكون من وقاحته في لحظات مزاجه السيئ أو بعبارات ثنائية اللغة ملتوية عندما يريد أن يكون لطيفًا. كان سعيدًا في حياته، وكان الأمر يزداد قسوة وصعوبة، كلما تقدم في العمر. مراكبي، دائمًا مراكبي! كان يحتقر الناس الذين كانوا يزرعون الأرض أرزًا. كانوا مزارعين، وبالنسبة له هذه الكلمة تعني إهانة عظيمة. كان فخورًا بكونه رجل ماء، وفى أوقاتٍ كثيرة كان يفضل متابعة انعطافات القنوات

بدلًا من قطع مسافات سيرًا على طول الضفاف. فلم يكن قد وطأ أرضًا أخرى طوعًا غير أرض دِئِسا، لكي يُطلق بضع طلقات من بندقيته على الأرانب، هاربًا عند اقتراب الحراس، وبدافع السرور كان يأكل وينام في القارب، وهو ما يشبه بالنسبة له درع حيوان مائي، كانت غرائز الأجناس البدائية في البحيرة تحيا مرة أخرى في العجوز.

لم يكن يريد تكوين عائلة ليظل سعيدًا، كان يريد العيش مثل سمك البحيرة أو عصفور حقول القصب، يبني عشه اليوم على جزيرة صغيرة وغدًا في حقل القصب. لكن والده كان يصر على زواجه. لم يكن يريد رؤية ذلك الكشك مهجورًا، كان هذا شاغله، فاضطر بوهيمي الماء إلى العيش في مجتمع مع أشباهه، إلى النوم تحت سقف من القش، إلى دفع نصيبه من النفقات العلاجية وإلى طاعة عمدة الجزيرة المحلي، فبحسب ما يقول، كان على الوغد البحث عن حماية أسياد المدينة حتى لا يعمل.

بالكاد احتفظ لزوجته بصورة مبهمة في ذاكرته. كانت قد قضت بالقرب منه الكثير من سنوات عمره، دون أن تترك له ذكريات أخرى غير إصلاح الشباك وبراعتها في عجن خبز الأسبوع، كل أيام الجمعة، فتحمله إلى فرن ذي قبة دائرية بيضاء، يشبه عش النمل الأفريقي، يقف عند أحد أطراف الجزيرة.

كان لديهما الكثير من الأبناء، الكثير جدًّا، لكنهم، باستثناء واحد، ماتوا جميعهم في اللحظة المناسبة. كانوا كائنات بيضاء ومريضة، وُلدوا بهدف المساهمة في دعم المنزل، اجتمعوا دون رغبة إلا لنقل الحرارة حيث كانوا يهتزون من ارتعاشات حمى الملاريا. مات بعضهم

من الهُزال، كانوا ضعفاء بسبب الطعام الذي لا طعم له من صيد الماء العذب، آخرون غرقوا بسبب سقوطهم في القنوات القريبة من البيت، ولو أن أحدهم نجا، وهو الأصغر، كان بسبب التشبث بعناد بالحياة، برغبة مجنونة في البقاء، واجه الحمى وامتص من صدر والدته الهزيل الخلاصة القليلة لجسدها المريض إلى الأبد.

كان العم پالوما يجد هذه المصائب منطقية ولا غنى عنها. كان عليه أن يحمد الرب، الذي يتذكر الفقراء. كان مقززًا رؤية تزايد العائلات في البؤس، حيث كان من حين لآخر يتبدد وباء الأطفال هذا، ومن دون رحمة الرب لن يظل في البحيرة طعام للجميع وسيضطرون إلى افتراس بعضهم البعض. ماتت زوجة العم پالوما عندما أصبح، وهو بالفعل عجوزًا، أبًا لطفل يبلغ سبعة أعوام. ظل المراكبي وابنه تونو وحيدين في الكشك. كان الصبي حكيمًا ومجتهدًا مثل والدته. كان يطهو الطعام، يصلح الأضرار في الكشك ويأخذ دروسًا من الجيران لكي لا يلاحظ والده غياب امرأة في المنزل. فعل كل شيء بجدية، كأن الكفاح الرهيب المستمر من أجل البقاء ترك أثرًا فيه لا ينضب من الحزن.

كان الأب يبدو راضيًا عندما كان يسير نحو القارب يتبعه الصبي، مختفيًا تقريبًا تحت كومة من الشباك. كَبُر سريعًا، كان مجهوده في كل مرة أكبر، وكان العم پالوما يفتخر عند رؤية القوة التي يُخرج بها شباك المصيدة من الماء أو يجعل القارب ينزلق على البحيرة. كان يقول لأصدقائه:

– هو الأكثر رجولة في ألبوفيرا بأكملها.

ينتقم جسده الآن من الأمراض التي عانى منها وهو صغير. كانت نساء پالمار تمدحن عاداته السليمة. لا جنون مع الشباب الذين يجتمعون في الحانة، ولا ألعاب مع بعض الفاشلين الذين بمجرد أن ينتهي صيد السمك حتى يجلسون فوق الأسَل، خلف أي كشك، ويقضون الساعات في ألعاب الورق القذرة.

دائمًا جاد ومُبكر في العمل، فلم يكن تونو يسبب لوالده أدنى استياء. لم يكن العم پالوما- الذي لم يكن قادرًا على الصيد بصحبة أحد، حيث كان يغضب عند أدنى إهمال ويحاول ضرب رفيقه- يوبخ ابنه أبدًا، وعندما كان يحاول، بين نوبات المزاج السيئ، أن يأمره بشيء، كان الصبي بالفعل يبدأ في تنفيذه مخمنًا إياه. عندما أصبح تونو رجلًا، اختبر والده الذي كان مولعًا بحياة التجوال ومتمردًا على وجود عائلة نفس الرغبات التي عاشها العم پالوما البدائي. ماذا كان يفعل الرجلان المعزولان في وحشة الكشك الخشبي القديم؟ كان يشمئز من رؤية ابنه، رجل كبير، عريض وقوى، ينحني أمام الفرن، في وسط الكشك، ينفخ في النار ويحضّر العشاء. أحيانًا يشعر بالندم وهو يتأمل يديه القصيرتين والمشعرتين، بأصابع حديدية، يحك القدور ويجعل قشور سمك البحيرة الصلبة، ذات الانعكاسات المعدنية، تقفز بسكين.

فى ليالي الشتاء كانا يبدوان لاجئين غرقا في جزيرة صحراوية. ولا كلمة بينهما، ولا ضحكة، ولا صوت امرأة يسرهما. كان الكشك له مظهر كئيب. كانت تشتعل في الوسط حفرة النار بمستوى الأرض: مكان صغير مربع بحافة من الطوب. في مواجهة منضدة المطبخ، مع

صف بسيط من الأواني والبلاط القديم. على كلا الجانبين جداران حاجزان لغرفتين، مبنيتين من القصب والطين، مثل جميع الأكشاك، وفوق هذين الحاجزين اللذين لهما ارتفاع رجل، كان السقف الداخلي الأسود من طبقات السخام، مدخن من نار سنوات كثيرة، دون فتحة تهوية أخرى غير فتحة غطاء القش، حيث كان يدخل صفير رياح الشتاء. كانت البدلات المقاومة لتسرب الماء الخاصة بالأب والابن تتدلى من السقف من أجل صيد السمك في الليل: بنطالان جامدان وثقيلان، سترتان بعصوين تجتازان الأكمام، قماش ثقيل، أصفر ولامع بسبب تدليكه بالزيت. كانت الرياح، عند اختراقها الفتحة التي بمثابة المدخنة، تُؤرجح هذه الأشكال الغريبة، التي ينعكس على سطحها الدهني الضوء الأحمر للموقد. كان يبدو أن ساكنا الكشك شنقا نفسيهما في السقف.

كان العم پالوما يشعر بالملل. كان يروق له التحدث، ففي الحانة كان يسُب كيفما يشاء، يعامل الصيادين الآخرين معاملة سيئة، يبهرهم بذكر الشخصيات المهمة التي كان يعرفها، لكن في بيته لم يكن يعرف ماذا يقول، محادثته لم تكن تستحق أقل رد من الابن المطيع والصامت، معلقًا كلماته في صمتٍ مبجلٍ وساحقٍ. صرخ المراكبي بهذا في الحانة بسعادة فظة. كان ذلك الابن صالحًا جدًّا، لكنه لا يشبهه، دائمًا صامت وخاضع. لا بد أن المرحومة مارست عليه بعض الخدع. ذات يوم اقترب من تونو، وكعادته بلهجةٍ آمرة لأبٍ يعتبر أن أبناءه يفتقرون إلى الإرادة، ويتصرف دون مشورة في مستقبلهم وحياتهم. كان لا بد أن يتزوج، فلم يكن الوضع هكذا جيدًا بالنسبة لهما: كان المنزل ينقصه امرأة. وقد

استقبل تونو الأمر كأنه قال له إنه لا بد من تجهيز القارب الكبير في اليوم التالي لينتظر في سالِر قناصًا من بلنسية. كان صالحًا. سيسعى لتنفيذ أمر والده في أقرب وقت ممكن.

وبينما كان الصبي يبحث بنفسه، كان المراكبي العجوز قد أخبر نواياه إلى كل القابلات في پالمار. كان ابنه تونو يريد أن يتزوج. كل ما يخصه كان للصبي: الكشك، القارب الكبير بشراعه الجديد والآخر القديم الذي لا يزال أفضل، قاربان صغيران، لم يذكر عدد الشباك، وفوق ذلك، أحوال الفتى: عامل جاد، خالٍ من العيوب ومعفيٌّ من الخدمة العسكرية بسبب عدد جيد في الاقتراع. الخلاصة: لم يكن عريسًا رائعًا، لكن ابنه تونو لم يكن فقيرًا مثل علجوم التُّرع، خاصةً بالنسبة لفتيات پالمار!

كان العجوز، مع احتقاره للمرأة، يبصق عند رؤيته للشابات، اللاتي بينهن كانت تختبئ زوجة ابنه المستقبلية. لا، لم تكن عذراوات البحيرة عظيمات، بثيابهن المغسولة في ماء القنوات العفِن، تُشم رائحة الوحل والأيادي المتشربة باللزوجة التي كانت متغلغلة حتى العظام. شعرهن، عديم اللون بسبب الشمس، ضارب إلى البياض وضعيف، بالكاد كان يظلل وجوههن النحيلة والضاربة للحمرة، والتي كانت أعينهن تلمع بها من نار حمى متجددة دائمًا عند الشرب من ماء البحيرة. كان مظهرهن الجانبي ذو الزوايا، رقة أجسامهن الزلقة ونتانة تنانيرهن تمنحهن بعض الشبه بالأنقليس، كأن تغذيتهن التي كانت على منوالٍ واحد لأجيالٍ كثيرة انتهت إلى أن ثبَّتت في هؤلاء الناس ملامح الحيوان الذي كان بمثابة قُوت لهم.

اختار تونو واحدة: أي واحدة، الأقل اعتراضًا على خجله. تم العُرس، وكان لدى العجوز في الكشك كائن آخر يتحدث معه ويجادله. كان يشعر بالمتعة عندما يرى أن كلماته لا تضيع في الفراغ وأن زوجة ابنه كانت تعترض على مطالبه المضطربة.

تلاقى هذا الرضى مع الاستياء. وبدا أن ابنه قد نسي تقاليد العائلة. فكان يحتقر البحيرة للبحث عن الحياة في الحقول، وفى سبتمبر، عندما جمعوا الأرز ودُفعت أجور عالية، تخلى عن القارب، عمِل حصّادًا، مثل آخرين كثيرين أثاروا سخط العم پالوما. مهمة العمل في الوحل والعذاب في الحقول كانت تتناسب مع الغرباء، الذين كانوا يعيشون بعيدًا عن ألبوفيرا. كان أبناء البحيرة أحرارًا من هذه العبودية. لقد خلقهم الله بجانب تلك المياه، وهي نعمة. كان الطعام في قاعها، فكان من الحماقة والعار العمل طوال اليوم والوحل إلى خصرهم، وأرجلهم طعام للعلق وظهورهم تتحمص من الشمس، من أجل جمع بضع سنابل ليست لهم في النهاية. هل ذهب ابنك للعمل «كمزارع»؟ حين يُصاغ ذلك السؤال، كان العجوز يضع في كلماته كل الدهشة، استغراب هائل لفعل غير مسبوق، كأنه يتحدث عن يوم يمكن أن تجف فيه ألبوفيرا.

كان تونو، لأول مرة في حياته، يتجرأ على معارضة كلمات والده. سيصطاد السمك، كعادته، باقي العام. لكن الآن هو تزوج، وقد زادت رعايته للمنزل، وسيكون من قلة الفطنة احتقار أجور الحصاد الرائعة. بالنسبة له كانوا يدفعون له أفضل من الآخرين، بسبب مجهوده ومثابرته في العمل. كان لا بد من تقبل ما يأتي به الزمن، كل مرة كان يُزرع أرز

أكثر على ضفاف البحيرة، كانت تُغطى البرك القديمة بالتراب، أصبح الفقراء أغنياء، وهو لم يكن أحمق لهذه الدرجة حتى يضيع نصيبه في الحياة الجديدة. كان العجوز يتقبل هذا التحول في عادات المنزل متذمرًا. كانت حصافة ورصانة ابنه تفرض عليه بعض الاحترام، لكنه كان يحتج، وهو يستند إلى الصارية، على ضفاف القناة، متحدثًا مع مراكبية آخرين من زمنه الجيد. سيبدلون ألبوفيرا! خلال أعوامٍ قليلة لن يعرفها أحد. كانوا يضعون من جهة سويكا بعض الآلات الثقيلة من الحديد عديمة النفع داخل بضعة منازل صغيرة لها مداخن ضخمة، و... تتصاعد منها سُحب الدخان! كانت السواقي القديمة، الهادئة والبسيطة، بعجلاتها الخشبية المستهلكة وقواديسها السوداء، قد استُبدلت بآلات جهنمية كانت تحرك الماء مع جحيم من الضوضاء. ستكون معجزة أن لا يسلك كل الصيد طريق البحر، منزعجًا من مثل هذه الابتكارات! كانوا سيزرعونها كلها، يرمون ترابًا وترابًا أكثر فوق البحيرة. وفي السنوات القليلة الباقية له، سيرى أيضًا كيف أن آخر أنقليس حرك ذنبه عند مصب بِرِيو، بسبب نقص المساحة، واختفى في البحر. شارك تونو في عمل القراصنة هذا! كان عليه رؤية ابنه هو، پالوما، يتحول إلى «مزارع»! ولكن كان العجوز يضحك، كأنه يتخيل حدثًا غير واقعي.

مر الوقت، ومنحته زوجة ابنه حفيدًا، تونِت، الذي كان جده يحمله في مساءات كثيرة بين ذراعيه حتى ضفة القناة، وغليونه يميل في فمه الأدرد لكي لا يضايق الدخانُ الصبيَّ. صبي شيطاني، وكم كان جميلًا! كانت زوجة ابنه الطويلة، النحيفة والقبيحة مثل كل إناث العائلة، مثل

المرحومة زوجته: ينجبن أبناءَ لم يكن يشبهون آباءهم في شيء. كان الجد يفكر في المستقبل وهو يداعب الصغير. كان يشير إليه لرفقاء شبابه، الذين يقل عددهم في كل مرة، ويتنبأ بالمستقبل. «سيكون هذا واحدًا منَّا: لن يمتلك بيتًا غير القارب. قبل أن تنمو جميع أسنانه سيعرف كيف يحرك المُردي...». لكن قبل أن تنمو أسنانه، حدث ما لم يكن يتوقعه العم پالوما في حياته. قالوا له في الحانة إن تونو أجّر بعض أراضي الأرز، بالقرب من سالِر، والتي كانت تملكها سيدة من بلنسية، وعندما عرض الأمر على ابنه في الليل، صُعق لعدم إنكاره الجريمة. متى عُرف أن شخصًا من عائلة پالوما له سيد؟ كانت العائلة تعيش دائمًا حرة، مثلما يقتضي أن يعيش أبناء الرب الذين يُقَدِّرون أنفسهم، باحثين عن قوتهم في الهواء والماء، يقنصون ويصطادون. أصبح أسيادهم الملك أو ذلك المحارب الفرنسي الحقير الذي كان مارشالًا في بلنسية، السيدان اللذان كانا يعيشان بعيدًا جدًّا، ولم يكونا ذا أهمية ويمكن أن يتسامحا لأجل عظمتهما. لكن هل أصبح ابنه مستأجرًا من سيدة متأنقة من المدينة ويحمل لها كل عام جزءًا من عمله نقدًا؟ هيا يا رجل! كان على استعداد أن يسلك الطريق للتحدث مع تلك السيدة وإلغاء العقد! لم تخدم عائلة پالوما عند أحد وفى البحيرة شيء يُؤكل: حتى لو كانت ضفادع.

لكن كانت دهشة العجوز تتزايد أمام مقاومة تونو غير المتوقعة. لقد فكر جيدًا في الأمر ولن يندم عليه. كان يفكر في زوجته، في ذلك الصبي الصغير الذي كان يحمله بين ذراعيه، ويشعر بالطموح. من

كانوا؟ بعض متسولي البحيرة، يعيشون مثل الهمجيين في كوخ خشبي، من دون طعام غير حيوانات التُّرع ويضطرون إلى الهرب مثل المجرمين أمام الحراس عندما كانوا يقتلون أحد الطيور ليمنحوا القِدر مادة أكبر. وكان بعض الطفيليين من القناصين يأكلون اللحم فقط عندما كان الغرباء يسمحون لهم بمشاركتهم مؤونتهم. وهذا البؤس يمتد من الآباء إلى الأبناء، كأنهم يعيشون مقيدين إلى الأبد في طين ألبوفيرا، من دون حياة ولا تطلعات أكثر من تطلعات العلجوم، الذي يظن أنه سعيد بين القصب لأنه يجد حشرات الورد المائي!

لا، كان يتمرد، كان يريد أن يُخرج عائلته من الوهن البائس، أن يعمل، ليس فقط من أجل الطعام، بل من أجل التوفير. كان يُمعن النظر في فوائد محصول الأرز: عمل قليل ومنفعة كبيرة. كان هناك بَرَكة حقيقية من السماء، لا شيء في العالم كان يدر أكثر. يُزرع في يونيو ويُحصد في سبتمبر، قليل من السماد وأيضًا قليل من العمل، جُملة ثلاثة أشهر ويُجمع الحصاد، مياه البحيرة، الزاخرة بسبب أمطار الشتاء، تغطي الحقول وحتى العام القادم! يُحفظ الربح، وفى الأشهر المتبقية يتم اصطياد السمك في ضوء الشمس والقنص في الخفاء للحفاظ على العائلة. هل يمكن أن يتمنى أكثر من ذلك؟ كان الجد فقيرًا، وبعد حياة بائسة استطاع فقط أن يبني ذلك الكوخ الخشبي، حيث كانوا يعيشون في الدخان إلى الأبد. لم يستطع والده، الذي كان يحترمه كثيرًا، الحفاظ على كسرة خبز يابس لشيخوخته. ليتركوه يعمل كما يشاء، وابنه، الصغير تونِت، سيكون ثريًّا، سيزرع الحقول التي ستضيع حدودها على مدى

النظر، وفوق أرض الكوخ الخشبي ربما يرتفع مع الوقت منزل أفضل من كل منازل پالمار. أخطأ والده في أن يكون ساخطًا لأن نسله كان يزرع الأرض. كان أكثر قيمةً أن يكون الشخص مزارعًا على أن يعيش شاردًا في البحيرة، يتضور جوعًا مرات كثيرة ويُعرض نفسه لإطلاق النار من أحد حراس دِئِسا. كان العم پالوما، وقد شحب من الغضب بسبب ما سمعه من ابنه، يتأمل مُرديًّا واقعًا على طول الجدار، كان قد كُسر فيما مضى بسبب تمرده، ويداه ستتجهان إليه ليكسره بضربةٍ على رأس ابنه، فقد اعتبره حقه بعد هذا التعدي على سلطته كأب عجوز.

لكنه كان ينظر إلى زوجة ابنه وحفيده بين ذراعيها، وبدا أن هذين الكائنين يعظمان ابنه، يضعانه في مستواه. لقد كان أبًا، مثله. ولأول مرة ينتبه إلى أن تونو لم يعد الطفل الذي كان يطهو العشاء فيما مضى، مطرقًا برأسه وهو يرتعد أمام واحدة من نظراته. تصاعدت احتجاجاته بين التوبيخ، وهو يرتجف من الغضب لأنه لم يستطع ضربه مثلما كان يفعل عندما كان يرتكب حماقة على القارب. بات الأمر جيدًا، كل شخص لِما يخصه، واحد للبحيرة والآخر لتسطيح الحقول. كانا يعيشان معًا، فلم يكن هناك وسيلة أخرى. لم يسمح له عمره بالنوم في وسط البحيرة، فهو يتحمل بمشقة روماتيزم الشيخوخة، لكن، بخلاف ذلك، كأنهما لا يعرفان بعضهما. آه، لو رفع پالوما الأول رأسه، مراكبي سوتشِت، ورأى عار العائلة!

كان العام الأول عذابًا مستمرًّا بالنسبة للعجوز. كان يجد، عند دخوله ليلًا إلى الكوخ الخشبي، أدوات الحراثة بجانب معدات صيد

السمك. ذات يوم تعثر بمحراث كان تونو قد أحضره من البر ليُعيد تركيبه خلال السهرة، وقد جعله ذلك مثل تنين وحشي متمدد في وسط الكشك. كل هذه الأدوات الفولاذية جعلته غير مبالٍ وغاضبًا. كان يكفي أن يرى منجلًا سقط على بُعد خطوات قليلة من شباكه، حتى أنه اعتقد أن النصل المقوس سيسير من تلقاء نفسه ليقطع معداته، وكان يتشاجر مع زوجة ابنه لإهمالها، يأمرها وهو يصيح فيها أن ترمي بعيدًا، بعيدًا جدًّا، عدة «المزارع». في كل الأماكن كانت هناك أشياء تذكره بزراعة الأرض. وهنا في كوخ عائلة پالوما، حيث لم يكن يُعرف فولاذ غير فولاذ السكاكين الكبيرة لفتح السمك! هيا، كان هذا كافيًا ليُفجر الغضب! كان تونو، في أوان البَذْر، عندما كانت الأراضي جافة ويتم حرثها، يأتي وهو يتصبب عرقًا بعد أن يرعى طوال النهار الدواب المستأجرة. كان والده يحوم حوله، وهو يشمه بتلذذ خبيث، وبعد ذلك كان يركض إلى الحانة، حيث يغفو رفقاؤه القدامى والكؤوس في أيديهم. السادة الأفاضل، الخبر العظيم! رائحة ابنه كالحصان. هه، هه، حصان في جزيرة پالمار! لقد انقلب العالم بالفعل رأسًا على عقب.

عدا هذه الوقاحة، كان العم پالوما يحتفظ بموقف غير مبالٍ ومنعزلٍ وسط عائلة ابنه. كان يدخل الكوخ الخشبي في الليل وعلى ذراعه المونوت، كيس من الشبك والأطواق الخشبية، كان يحتوي على بعض الأنقليس، ويدفع بقدمه زوجة ابنه لتُفسح له مكانًا عند الموقد. كان يعد العشاء بنفسه. مراتٍ كان يدحرج الأنقليس فيخترقه بعصا ويشويه، يحمصه بصبرٍ من كل الجوانب على اللهب. مراتٍ أخرى كان

يبحث في القارب عن قِدره القديمة المليئة بالإصلاحات، وكان يطهو في الزبدة سمكة تنش ضخمة أو يعد البصل، فيخلطه مع الأنقليس، كما لو أنه يحضر طعام نصف البلدة. كان ذلك العجوز الضئيل والهزيل نهِمًا مثل نهَم كل عجائز ألبوفيرا. لم يكن يأكل بجدية إلا في الليل، عند عودته إلى الكوخ الخشبي، ويجلس على الأرض في إحدى الزاويا، والقِدر بين ركبتيه، يقضي ساعات كاملة صامتًا، وهو يحرك على الجانبين فمه مثل ماعز عجوز، مبتلعًا كميات هائلة من الطعام من المستحيل أن تحتويها معدة بشرية. كان يأكل بمفرده، ما كان يظفر به خلال اليوم، ولم يكن يهتم بما كان يأكله أبناؤه ولا كان يقدم لهم جزءًا من قِدره. كل شخص يسمن من عمله! كانت عيناه الصغيرتان تلمعان برضى خبيث عندما كان يرى على مائدة العائلة طبقًا خزفيًّا من الأرز، كطعام وحيد، بينما كان هو يقضم عظام أحد الطيور التي اصطادها وهو داخل حقل القصب عند رؤية الحراس بعيدًا. لم يعد تونو ينفذ إرادة الأب، لم يكن يفكر في الخضوع للعجوز، واستمر الانعزال بينه وبين العائلة. كان الصغير تونِت هو الرابط الوحيد في الوحدة. كان الحفيد في مراتٍ كثيرة يقترب من العم پالوما، كما لو أن رائحة القِدر الجيدة تجذبه. كان الجد يقول بشفقة حنونة، كأنه يراه في بؤس عظيم:

– خذ، أيها المسكين، هاك!

وكان يهديه فخذ طائر الغُرة، الدسم والممتلئ وهو يبتسم عندما يرى كيف كان الصغير يلتهمه.

وعندما كان يعد الثوم والفلفل الأحمر[1] مع رفاقه القدامى في الحانة، كان يصطحب معه حفيده دون أن ينبس بكلمة لوالديه. في مراتٍ أخرى كان الاحتفال أكبر. كان في الصباح، وهو يشعر برغبة ملحة في المغامرة، ينزل من القارب مع رفيق له في مثل عمره في شجيرات دِئِسا. كانا ينتظران طويلًا وهما ممددان على بطنهما بين الأدغال، يتجسسان على الحراس الذين كانوا يجهلون وجودهم. وما إن كانت تظهر الأرانب وهي تقفز حول سيقان الأحراج، يُطلِق النار عليها! اثنان في الكيس ثم الهروب، والدخول إلى القارب، وهما يضحكان لاحقًا، من وسط البحيرة، من ركض الحراس على طول الشاطئ وهم يبحثون دون جدوى عن الصيادين الخفيين. هذه الجرأة كانت تجدد شباب العم پالوما. كان يجب سماعه في الليل، وقت طهو الصيد في الحانة بين رفاقه الذين كانوا يدفعون النبيذ، كيف كان يتباهى بمآثره. لا يوجد اليوم أي فتى قادر على فعل الشيء نفسه! وعندما كان الحكماء يحدثونه عن القانون وعقوباته، كان المراكبي ينتصب بنصفه العلوى المحني بفعل العمر وإدارة المُردي. كان الحراس كسالى، لقد قبلوا الوظيفة لأنهم كرهوا العمل، والسادة مؤجرو أراضي القنص هم بضعة لصوص حيث كانوا يريدونها كلها لهم... . كانت ألبوفيرا ملكه هو وكل الصيادين. لو أنهم وُلدوا في قصور، لكانوا ملوكًا. عندما خلقهم الله هناك، كان لسببٍ ما. عدا ذلك كان كذبًا اخترعه الرجال. وبعد التهام العشاء، بينما

(١) الثوم والفلفل الأحمر: هي صلصة بلنسية النموذجية تستخدم لطهي السمك، ومن أشهر الأطباق التي تُستخدم فيها الطبق الذي يكون الأنقليس مكونه الرئيس. لذلك أصبح من المعتاد الإشارة إلى هذا الطبق باسم الثوم والفلفل الأحمر.

لا يزال النبيذ في الأباريق، كان العم پالوما يتأمل حفيده النائم بين ركبتيه ويُظهره لأصدقائه. ذلك الصغير سيكون ابنًا حقيقيًّا لألبوفيرا. لقد أخذ على عاتقه تعليمه، لكي لا يتبع طرق والده السيئة. سيتحكم في بندقية الصيد بقدرة مذهلة، سيعرف قاع البحيرة مثل أنقليس، وعندما يموت الجد، كل من يأتي للصيد سيجد القارب لبالوما آخر، لكن متجدد الشباب، مثلما كان هو عندما جلست الملكة نفسها في قاربه الصغير وهي تضحك على دعاباته.

بعيدًا عن هذا الحنان، كان العداء بين المراكبي وابنه مستمرًّا وكامنًا. لم يكن يريد رؤية الأراضي الحقيرة التي كان يزرعها، لكنها ثابتة في ذاكرته. وكان يضحك بفرح شيطاني عندما يعرف أن أعمال تونو كانت تسير بشكلٍ سيئ. في العام الأول أُدخل ملح البارود في الحقول عندما كان الأرز ينمو، وخسر الحصاد. كان العم پالوما يحكي للجميع هذه المصيبة بتلذذ، لكن عندما لاحظ الحزن وبعض الضيق في عائلته بسبب النفقات، التي لم تكن مثمرة، شعر ببعض الشفقة، حتى إنه كسر الصمت مع ابنه لتقديم النصيحة له. ألم يقتنع بعد أنه كان رجل ماء وليس مزارعًا؟ كان يجب عليه ترك الحقول لأهل المدن الداخلية في البلاد، التي كرست نفسها منذ القدم لانتزاع أحشائها. كان هو ابن صياد سمك، ويجب عليه العودة إلى الشباك. لكن تونو أجاب بهمهمات غاضبة، موضحًا غرضه من المضي قدمًا، ويعود العجوز ليُغرق نفسه في كرهه الصامت. آه، أيها العنيد!. منذ ذلك الحين تمنى لأراضي ابنه كل أنواع النكبات، كوسيلة لترويض مقاومته المتغطرسة. لم يكن يطلب

شيئًا في المنزل، لكن عند عبور قاربه الصغير في البحيرة مع العبّارات الكبيرة التي كانت تأتي من ناحية سالِر، كان يستفهم عن مسيرة الحصاد ويشعر ببعض الرضى عندما كانوا يخبرونه أن العام سيكون سيئًا. ابنه العنيد سيموت جوعًا. الآن يتعين عليه أن يطلب منه راكعًا، ليأكل، مفتاح حوض السمك القديم الذي له غطاء من القش المحطم والذي كان بالقرب من پالمار.

غمرته عواصف نهاية الصيف بالفرح. كان يتمنى أن تُفتح شلالات السماء، حيث أتى من ضفة إلى ضفة مجرى تورِنتِ الذي كان يُصرَف في ألبوفيرا ليغذيها، ففاضت البحيرة فوق الحقول، كما كان يحدث أحيانًا، وبقيت السنابل التي قاربت على الحصاد تحت الماء. كان المزارعون سيموتون جوعًا، وكان هناك وفرة سمك في البحيرة كالعادة، وسيسره رؤية ابنه يتضور جوعًا ويتوسل حمايته.

لحسن حظ تونو، لم تتحقق أمنيات العجوز الشرير. أصبحت السنوات جيدة، سادت بعض الراحة في الكوخ الخشبي، كان يأكل، وكان المزارع المفعم بالحيوية يحلم بإمكانية زراعة أراضٍ تكون ملكه ذات يوم، فلا يُفرض عليه الذهاب مرة في العام إلى المدينة لتسليم نتاج كل المحصول تقريبًا. وكأنها سعادة لا يمكن تحقيقها.

غيم الظل على حياة الأسرة. كان تونِت يكبر وكانت والدته حزينة. كان الصبي يذهب مع جده إلى البحيرة. وعندما أصبح أكبر سنًّا، كان يرافق والده إلى الحقول، وتقضي المرأة المسكينة اليوم بمفردها في الكوخ الخشبي.

كانت تفكر في مستقبلها، أخافتها العزلة المستقبلية. آه، لو كان لديَّ أبناء آخرون! كانت ابنة هي كل ما تطلبه من الله بكثير من الحماسة. لكن الابنة لم تأت، لا يمكنها أن تأتي، حسب ما يؤكد العم پالوما. كانت زوجة ابنه متوعكة، أمور السيدات. ساعدتها جارات پالمار في ولادتها، وتركوها، بحسب ما قاله العجوز، في حالة سيئة. لذلك كانت تبدو دائمًا مريضة، بلون شاحب، كورقة ممضوغة، لم تكن تستطيع الوقوف لوقتٍ طويل دون شكوى، تسير لبضعة أيام كما لو كانت تزحف، مع أنين كانت تمتصه بين دموعها لكي لا تزعج الرجال. كان تونو يتشوق لتحقيق رغبات زوجته. لم يكن يضايقه وجود صبية في المنزل تساعد المريضة. فقام الاثنان برحلة إلى المدينة، وأحضرا طفلة تبلغ ستة أعوام، همجية، خجولة، عابسة وقبيحة، والتي أخرجاها من دار للقطاء. كان اسمها بيسانتِتا، لكن الجميع، ولكي لا تنسى أصلها، وبقسوة غير واعية لجهل شعبي، أطلقوا عليها لابوردا[1]. تذمر المراكبي بسخط، فمٌ آخر! وجد الصغير تونِت، ذو العشرة أعوام، الكثير ليرضيه في تلك الصبية الصغيرة لجعلها تعاني من أهوائه ومطالب ابن مدلل ووحيد. لم تجد لابوردا في الكوخ الخشبي عطفًا آخر غير عطف تلك المرأة المريضة، كل مرة أكثر ضعفًا وألمًا. كانت التعيسة تتصور وهمًا أنها أنجبت ابنة، وفى المساء، تجعلها تجلس على باب الكوخ، ووجهها ناحية الشمس، وكانت تمشط الذيل القصير الأحمر، وتدهنه جيدًا بالزيت.

(١) هذا الاسم يعني في اللغة الكتالونية (اللغة الرسمية لمنطقة كتالونيا في شمال شرق إسبانيا ومن ضمنها منطقة بلنسية) لقيطة أو ابنة سِفاح.

كانت مثل جرو مرح ومطيع يسعد الكوخ الخشبي بهرولته، مستسلمة للعناء، خاضعة لكل شرور تونِت. جَرَّتْ إبريقًا كبيرًا بحجمها مليئًا بماء دِئِسا بجهد فائق بالنسبة لذراعيها الصغيرتين، من القناة حتى المنزل. كانت تركض في القرية طوال اليوم لتقوم بمهمات والدتها الجديدة، وعلى الطاولة كانت تأكل وعيناها منخفضتان، لا تجرؤ على دس ملعقتها في فمها حتى يكون الجميع في منتصف وجباتهم. كان العم پالوما، بصمته ونظراته الشرسة، يلقي في نفسها خوفًا شديدًا. في الليل، حيث الغرفتان كانتا مشغولتين، واحدة للزوجين والأخرى لتونِت وجده، كانت تنام بالقرب من الموقد، في وسط الكوخ الخشبي، على الوحل الذي كان يتسرب من نسيج الأشرعة والذي كان بمثابة الفراش، تغطي نفسها بالشباك من تيارات الهواء التي كانت تدخل عن طريق المدخنة والباب المتهالك الذي قضمته الجرذان.

كانت ساعات متعتها الوحيدة في المساء، عندما يكون كل شيء هادئًا في القرية والرجال في البحيرة أو في الحقول، كانت تجلس مع والدتها لتخيط الأشرعة أو لتنسج الشباك عند باب الكوخ. كانت الاثنتان تتحدثان مع الجيران، في السكون الهائل للشارع المقفر وغير المنتظم، المغطى بالعشب والذي كان يركض خلاله الدجاج ويقرق البط ويبسط أجنحته الرطبة البيضاء.

لم يعد تونِت يذهب إلى مدرسة القرية، كوخ رطب دفع ثمنه مجلس المدينة، حيث كان الأطفال والطفلات يقضون اليوم، وسط ركام كريه الرائحة، وهم يغنون لوحة الحروف الأبجدية أو يرنمون الجُمل.

كان رجلًا بكل معنى الكلمة، حسب ما كان يقوله جده، الذي كان يتحسس ذراعيه ليدرك صلابتهما وكان يضربه بيده على صدره. في عمره، كان العم پالوما قادرًا على أكل ما كان يصطاده من السمك وإطلاق النار على أي نوع من الطيور التي كانت موجودة في ألبوفيرا. اتبع الصبي بسرور جده في رحلاته عبر الأرض والماء. تعلم قيادة المُردي، كان ينطلق كالبرق خلال القنوات على أحد قوارب العم پالوما الصغيرة، وعندما كان يصل قناصون من بلنسية كان يختبئ في البِرِوة أو يساعد جده في التحكم في الشراع، قافزًا على المنحدر بخطوات صعبة ليمسك بالحبل، ويسحب القارب. ثم جاء التدريب على القنص. حتى إنه تعامل مع بندقية الجد بسهولة نسبية، الطبنجة الحقيقية التي كانت متميزة عن جميع الأسلحة في ألبوفيرا بسبب فرقعتها. لقمها العم پالوما بكثافة، وجعلت الطلقات الأولى الصبي يتمايل، حيث إنه أوشك على السقوط على ظهره في قاع القارب. شيئًا فشيئًا أصبح مسيطرًا على الوحش القديم وتمكن من إسقاط طيور الغُرة، وفرح جده كثيرًا.

هكذا كان يجب أن يتعلم الصِّبية. بدافع السرور، لم يكن تونِت يأكل شيئًا آخر غير الذي قتله بالبندقية أو اصطاده بيده. لكن بعد عام من التعليم القاسي، لاحظ العم پالوما ضعفًا كبيرًا في تلميذه. كان يروق له إطلاق النار والاستمتاع بصيد السمك. لكن كان يبدو أن ما لا يسره كثيرًا هو النهوض قبل الفجر، قضاء اليوم بكامله ويداه ممتدتان تحركان المُردي وتقذفان حبل السحب مثل حصان. رأى المراكبي بوضوح ما كان يكرهه حفيده، كره غريزي توقظه رغباته، العمل. كان العم پالوما

يحدثه دون جدوى عن صيد السمك الكثير الذي سيصطادانه في اليوم التالي في رِكاتي، رينكون دي لا أويا أو أي مكان آخر في ألبوفيرا. وبمجرد أن يغفل عنه المراكبي حتى كان حفيده يختفي. كان يفضل التسكع في دِئِسا مع أطفال الحي، الاستلقاء تحت شجرة صنوبر وقضاء ساعات وهم يستمعون إلى غناء عصافير الدوريّ أعلى الأشجار الدائرية، أو وهم يتأملون رفرفة الفراشات البيضاء والنحل الطنان على الزهور البرية.

كان الجد يهدده دون نتيجة. حاول ضربه وهرب تونِت، مثل وحش صغير شرس، وهو يبحث عن حجارة على الأرض للدفاع عن نفسه. استسلم العجوز واستمر في البحيرة وحده كما كان. كان يقضي حياته وهو يعمل، وكان ابنه تونو، على الرغم من ضياعه بسبب ميله للزراعة، أكثر قوة منه في العمل. يُشبه مَن إذن ذلك الولد الصغير؟ يا إلهي! من أين خرج، من أين أتى، بمقاومته التي لا تُقهر لكل تعب، ورغبته في البقاء بلا حراك، مستريحًا لساعاتٍ في الشمس مثل الضفدع على حافة الترعة؟

كان كل شيء قد تغير في ذلك العالم الذي لم يكن يخرج منه أبدًا العجوز. كان الرجال بزراعتهم قد بدلوا ألبوفيرا وشوهوا عائلاتهم، كما لو أن تقاليد البحيرة ضاعت إلى الأبد. أصبح أبناء أصحاب المراكب عبيدًا للأرض، أصبح الأحفاد يرفعون ذراعهم المسلحة بالحجارة ضد أجدادهم، كان يمكن رؤية الصنادل التي تحمل الفحم في البحيرة، كانت حقول الأرز تمتد في كل مكان، تتقدم في البحيرة، تبتلع الماء،

وتلتهم الغابة، راسمة فراغات كبيرة فيها. آه، يا إلهي! كان من الأفضل أن يموت، بدلًا من أن يرى كل ذلك، وأن يشهد تدمير العالم الذي يعتبره أبديًّا!

منعزلًا عن ذويه، لا يوجد داخله عاطفة أخرى غير الحب العميق الذي يشعر به تجاه أمه ألبوفيرا، كان يتفقدها، يعيد النظر إليها يوميًّا، كما لو أن العجوز القوي يحتفظ بكل ماء البحيرة وأشجار دِئِسا التي لا حصر لها في عينيه المتيقظتين والماكرتين. لم يكونوا يُسقِطوا شجرة صنوبر في الغابة دون أن يلاحظها على الفور من مسافة كبيرة، من وسط الهَور. واحدة أخرى! كان الفراغ الذي خلفته الشجرة المنهارة بين أوراق الأشجار المجاورة يسبب له أثرًا مؤلمًا، كأنه يتأمل فراغ المقبرة. كان يلعن مستأجري ألبوفيرا، اللصوص الذين لا يشبعون. كان أهل پالمار يسرقون حطبًا من الغابة، لا يحرقون في منازلهم فروعًا أخرى غير فروع دِئِسا، فقد كانوا راضين بالأدغال ذات الجذوع المنهارة والجافة، وهؤلاء السادة غير المرئيين، الذين كانوا يظهرون فقط مع كاربين الحارس وحيل القانون، كانوا يصرعون بهدوء كبير أجداد الغابة، العمالقة الذين كان يراهم وهو يحبو صغيرًا في القوارب، كانوا ضخامًا عندما كان والده، پالوما الأول، يعيش في الدغل، يقتل بضربة قصبة الثعابين التي كانت تكثُر على ضفة النهر، مخلوقات أكثر ودًّا من رجال الحاضر. في حزنه على انهيار ما هو قديم، كان يبحث في أكثر أركان البحيرة غير المزروعة، تلك التي لم تصلها بعد الرغبة في الاستغلال.

سببت له رؤية الساقية القديمة ارتجافات، وتأمل بعاطفةٍ العجلةَ السوداء المتآكلة، القواديس المتكسرة، الجافة، المليئة بالقش، حيث كانت الجرذان تخرج مسرعة عند ملاحظة اقترابه. كانت أطلال موت ألبوفيرا، ذكريات، مثله، من الزمن الأفضل.

عندما كان يرغب في الراحة، كان يقترب من سهل سانتشا، بأهواره جيلاتينية السطح وأحواض أسَله الطويل، ويتأمل المنظر الطبيعي الأخضر والقاتم، الذي سُمعت فيه طقطقة حلقات وحش الأسطورة، ابتهج عندما فكر في أن هناك شيئًا لا يزال خاليًا من شره الرجال المعاصرين، كان من بينهم، آه! ابنه.

❊ ❊ ❊

- ٣ -

عندما تخلى العم پالوما عن تعليمه القاسي لحفيده، تنفس الأخير الصعداء.

كان يشعر بالملل عندما كان يرافق والده إلى أراضي سالِر، وكان يفكر بقلق بشأن مستقبله وهو يرى العم تونى عالقًا في طين حقول الأرز، بين العلقات والعلاجيم، وساقاه مبتلتان وصدره يحترق من الشمس.

كانت غريزة الصبي الكسول تتمرد. لا، لن يفعل ما يفعله والده، لن يعمل في الحقول. يكون شرطيًّا، للاستلقاء على رمال الساحل، أو حارسًا مدنيًّا مثل الذين كانوا يأتون من بستان الرُّصافة مع حمالة السلاح الصفراء وغطاء القفا الأبيض، كان يبدو له أفضل من زراعة الأرز وهو يتعرق داخل الماء، وساقاه متورمتان من اللدغات.

في أيامه الأولى أثناء مرافقته لجده عبر ألبوفيرا، وجد هذه الحياة مقبولة. كان يروق له الذهاب متجولًا خلال البحيرة، يبحر دون وجهة محددة، يعبر من قناة إلى أخرى، ويتوقف في وسط ألبوفيرا ليتحدث مع صيادي السمك. كان أحيانًا يقفز إلى جزر القصب الصغيرة ليحث

بصفيره الثيران الوحيدة. وأحيانًا أخرى، كان يدخل إلى دِئِسا، يقطف التوت الأسود من العليق وينقب في جحور الأرانب، ليبحث عن أرنب صغير في القاع.

كان الجد يصفق له عندما كان يراقب غُرًّا أوراسيًّا أو بطًّا بريًّا نائمًا على سطح الماء ويصطاده بطلقة بندقية سديدة. كان يروق له أيضًا أن يظل في القارب ساعات كاملة مستلقيًا على ظهره، وهو يسمع من الجد حكايات عن الماضي. كان العم پالوما يتذكر أكثر الأحداث الجديرة بالذكر في حياته: تعامله مع الشخصيات، بعض المداخل للتهريب في شبابه مصحوبة بطلقات نارية: تحدث عن والده، پالوما الأول، وهو محلق في ذاكرته، ومكرر ما كان يرويه له بدوره، ذلك المراكبي الذي كان من أزمنة أخرى أيضًا رأى أمورًا عظيمة دون الخروج من هناك.

حكى العم پالوما لحفيده عن رحلة كارلوس الرابع وزوجته إلى ألبوفيرا، عندما لم يكن قد وُلد بعد. لم يمنعه هذا من أن يصف لتونِت الخيام الكبيرة ذات اللافتات والمفروشات التي أقيمت بين أشجار الصنوبر في دِئِسا للمأدبة الملكية، الموسيقى، زمام الكلاب، خدم بشعرٍ مستعار يحرسون عربات المؤنة. كان الملك يرتدي زي الصياد، ويحيط نفسه برماة ألبوفيرا الريفيين، وهم شبه عراة وبطبنجات قديمة، معجبًا بمآثرهم، بينما كانت ماريا لويسا تتجول عبر الفروع المورقة في الغابة وهي متأبطة ذراع دون مانويل جودوي.

وكان العجوز، وهو يتذكر هذه الزيارة الشهيرة، يغني مقطعًا علمه إياه والده:

أسفل شجرة صنوبر خضراء

قالت الملكة للملك:

«أحبك كثيرًا يا كارليتو،

لكني أحب مانويل أكثر».

كان صوته المرتجف يغني بتعبير خبيث، ويصاحب كل بيت بغمزات، كما لو كانت قبل أيام عندما اخترع الناس في ألبوفيرا المقطع، منتقمين من رحلة استكشافية بدت أنها، ببذخها، تهين بؤس الصيادين المُسلم به.

لكن هذا الزمن السعيد، بالنسبة لتونِت، لم يكن طويل الأمد. أصبح الجد كثير الطلبات ومستبدًّا. فعندما رآه ماهرًا في التعامل مع القارب، لم يعد يسمح له بالتجول حسب هواه، فقد كان يسجنه في الصباح ويجعله يحمل الصيد. كان يضطر إلى جمع المورنِيّ من الليلة السابقة- وهو أكياس كبيرة من الشبك كان يلتف الأنقليس بعضه على بعض في قاعه- وإغراقه في الماء من جديد: مهام لها جهد معين، تجبره على الوقوف على حافة القارب، وظهره يحترق تحت نار الشمس.

كان الجد يشاهد عمله بلا حراك، من دون مساعدته. وعند العودة إلى القرية، كان يتمدد في قاع القارب مثل العاجز، تاركًا القيادة لحفيده الذي كان يلهث وهو يدير المُردي.

كان الصيادون يحيون، من بعيد، الرأس المجعدة للعم پالوما المطلة من الحافة: «آه، أيها المخادع! كم كان يقضي اليوم في راحة!

هو مستريح كأنه راهب پالمار، وحفيده المسكين متعرق وهو يقود المُردي». وكان الجد يجيب بوقار معلم: «هكذا يتعلم! علمني والدي بالطريقة نفسها!». بعد ذلك كانت تُشعَل النار لصيد السمك: التجول عبر البحيرة منذ أن تغيب الشمس حتى تشرق، دائمًا في عتمة ليالي الشتاء. كان تونِت يراقب من البِروة حزمة الحشائش الجافة التي كانت تحترق مثل شعلة، متبعثرة فوق الماء الأسود كبقعة كبيرة من الدماء. كان الجد يذهب إلى المؤخرة ممسكًا بالفيتورا- شوكة حديدية لها رؤوس مدببة- السلاح الرهيب، والتي كانت بمجرد تثبيتها لا يمكن إزالتها إلا بجهد كبير وتدمير رهيب. كان الضوء ينزل حتى قاع البحيرة، يعترض مرقد الأصداف، النباتات المائية، كل العالم الغامض، غير المرئي خلال النهار، وكان الماء صافيًا جدًّا، بحيث يبدو القارب وكأنه يطفو في الهواء، ينقصه دعامة. كانت حيوانات البحيرة، التي خدعها الضوء، تنجذب وهي عمياء إلى الوهج الأحمر، والعم پالوما، ووووش! لا يرمي الفيتورا دون أن تسحب من القاع سمكة ضخمة تهز ذيلها بيأس على طرف الحربة الحادة. تحمس تونِت في البداية بهذا الصيد، لكن المرح تحول شيئًا فشيئًا إلى استعباد، وبدأ يكره البحيرة، وهو ينظر بحنين إلى منازل پالمار البيضاء، التي كانت تبرز فوق الخطوط المظلمة لحقول القصب.

كان يفكر بشوق في سنواته الأولى، عندما كان يتسكع في شوارع القرية، دون التزام آخر غير ذهابه إلى المدرسة، وهو يسمع جميع جيرانه يدعونه بالوسيم، فتُسر والدته. حينها كان سيد حياته. كانت الأم،

المريضة، تحدثه بابتسامة شاحبة، تعذره بكل شيطنته، وكانت لابوردا تدعمه بوداعة الكائن الأدنى الذي يُعجب بالقوي. كان الصِّبية الذين يكثرون بين الأكواخ الخشبية يعرفونه بالرئيس، ويسيرون معًا على طول القناة، وهم يرجمون البط الذي كان يهرب وهو ينعق بين اعتراضات النساء.

كانت القطيعة مع جده تعني العودة إلى المتعة القديمة. لم يكن الآن يخرج من پالمار قبل شروق الشمس ليظل في البحيرة حتى الليل. كان اليوم بطوله له في هذه القرية، حيث لم يبقَ رجلٌ غير الراهب في بيته، المعلم في المدرسة والعريف من الشرطة البحرية وهو ينزه شواربه الشرسة وأنفه الأحمر من الكحول على ضفة القناة، بينما كانت النساء تقمن بصنع الشبك عند أبواب أكواخهن، تاركات الشارع تحت رحمة الصغار. تونِت، بعد أن تحرر من العمل، جدد روابط صداقاته. كان له رفيقان مولودان في الكشكين المجاورين له: نِلِتا وسانجونِرا.

لم يكن للفتاة أب، وكانت والدتها بائعة أنقليس عجوز في سوق المدينة، كانت تحمل أسبتتها في منتصف الليل على عبّارة عامة، تُسمى «عربة الأنقليس». وفى المساء تعود إلى پالمار، مع ترهلها والسمنة المفرطة، مستسلمةً إلى الرحلة اليومية ومشاجرات ومساومات سوق السمك. كانت المسكينة ترقد قبل حلول الظلام، لتستيقظ مع النجوم وتواصل هذه الحياة غير العادية، والتي لم تكن تسمح لها برعاية ابنتها. كَبُرت الأخيرة دون حماية أكثر من حماية الجيران، وبخاصةً حماية والدة تونِت، التي كانت تُطعمها مراتٍ كثيرةٍ، وتعاملها كابنة جديدة.

لكن الفتاة كانت أقل سهولة في الانقياد من لابوردا وكانت تفضل أن تتبع تونِت في هروبه بدلًا من قضاء ساعات كاملة في تعلم الغرز المختلفة للشِّبَاك.

كان سانجونِرا يحمل نفس كنية والده، السكران الأكثر شهرة في كل ألبوفيرا، عجوز ضئيل كان يبدو متيبسًا بسبب الكحول منذ سنوات طويلة. عندما أصبح أرمل، مع ابنه الوحيد سانجونِرا الصغير، انغمس في السُّكر، وكان الناس عندما يرونه وهو متعلق بالمشروب، يقارنونه بالعلقة، وهكذا اُخترعت كنيته.

كان يختفي من پالمار لأسابيع كاملة. وكان يُقال من حين لآخر إنه يمشي في القرى الأخرى طالبًا صدقة من المزارعين الأغنياء في كاتارّوخا وماساناسا وينام وهو ثمل في أكوام القش. وعندما يظل كثيرًا من الوقت في پالمار كانت تختفي خلال الليل الأكياس الشبكية المخرمة من القناة، كان المورنِيّ يُفرغ من الأنقليس قبل أن يصل أصحابه، وأكثر من جارة كانت تصرخ حتى السماء عند عد بطها وملاحظة غياب أحدها. كان الشرطي البحري يكح بقوة وينظر عن قرب للعجوز سانجونِرا، كأنه يحاول خرق عينيه بشاربيه المخيفين. لكن كان السكران يعترض لعدم وجود شهادة موثوق بها، ويجعل القديسين شهودًا. كانت نية الناس سيئة، لديهم رغبة في خسارته، كما لو أنه لم يكتف بعد من بؤسه الذي جعله يسكن أسوأ كوخ خشبي في القرية! ولإرضاء الممثل الشرس للقانون- الذي شرب إلى جانبه أكثر من مرة، لكنه خارج الحانة لا يتعرف على أصدقائه- يبدأ مرة أخرى

رحلاته على الشاطئ الآخر للبحيرة، ولا يعود إلى پالمار لبضعة أسابيع.

كان ابنه يرفض متابعته في هذه الرحلات. وُلد في كوخ حقير، حيث لم يكن يدخله الخبز أبدًا، ويضطر إلى بذل قصارى جهده منذ أن كان صغيرًا ليستولي على الطعام، وبدلًا من أن يتبع والده حاول الابتعاد عنه، حتى لا يشارك في حيله.

عندما كان يجلس صيادو السمك على الطاولة، كانوا يرون ظلًّا حزينًا يمر ويعود عبر باب الكوخ الخشبي، والذي ينتهي به الأمر إلى التحديق من جانب المدخل، برأس منخفض ونظرة إلى الأعلى، مثل عِجل أوشك على الانقضاض. كان سانجونِرا، الذي يجتر جوعه بتعبير منافق من الخوف والخجل، بينما يلمع في عيني الوغد التعطش إلى الاستيلاء على كل ما كان يراه. كان مظهره يؤثر في الناس. الفتى المسكين! ويمسك وهو يحلق عظمة غُرة مقضوم نصفها، قطعة من التنش أو كِسرة خبز يابس، كان يملأ جوفه من بيت إلى بيت. لو رأى الكلاب تنادي بعضها بنباحٍ مكتوم وتجري نحو أحد حانات پالمار، كان سانجونِرا يجري أيضًا كما لو كان خفيًّا. كان القناصون يطهون البابيا الخاصة بهم، ويأتي ناس من بلنسية إلى البحيرة لتناول الثوم والفلفل، وعندما يضطر الغرباء، وهم يجلسون أمام منضدة الحانة، بين ملعقة وأخرى، إلى الدفاع عن أنفسهم أمام تدافع الكلاب الجائعة بالركلات، كان يساعدهم الفتى رث الثياب، الذي بقوة ابتساماته وتخويفه للكلاب الضارية، ينتهي الأمر بامتلاكه بقايا المقلاة. أعطاه الشرطي قبعة قديمة من المعسكر، أهداه مأمور القرية القضائي بنطال صياد غرق في حقول

القصب، وكانت قدماه، الحافيتان دائمًا، قويتين بمقدار ما كانت يداه ضعيفتين، واللتان لم تلمسا مُرديًّا أو مجذافًا قط. كان سانجونِرا، القذر، الجائع، الذي يُدخل يده في كل لحظة تحت القبعة المليئة بالقاذورات ليحك نفسه بعنف، يتمتع بهيبة كبيرة بين الصِّبية. كان تونِت أكثر قوة، كان يضربه بسهولة، لكنه كان يدرك أنه أقل شأنًا منه، فيتبع كل إشاراته. كانت له هيبة مَن يعرفون كيف يعيشون بمفردهم، دون الحاجة إلى دعم. كان الصِّبية معجبين به مع بعض الحسد عند رؤيته يعيش دون خوف من تصحيحات الوالدين ودون أي التزام. بالإضافة إلى ذلك كان لخبثه سحر خاص، وكان الصِّبية، الذين يتلقون في أكواخهم صفعات قوية لأقل خطأ، يعتقدون أنهن سيكونون أكثر رجولة عند مرافقة ذلك الوغد الذي يعتبر كل شيء ملكه ويعرف كيف يستفيد منه لمصلحته، ولا يرى شيئًا متروكًا في قوارب القناة إلا ويجعله ملكًا له.

لقد أعلن الحرب على مخلوقات الهواء، حيث إن صيدها كان يتطلب عملًا أقل من صيد حيوانات البحيرة. كان يصطاد، بفنون بارعة من اختراعه، عصافير الدوري المسماة بالموريسكوس، التي تغزو ألبوفيرا ويخافها المزارعون كأنها طاعون سيئ، حيث تلتهم جزءًا كبيرًا من محصول الأرز. كان وقته الأفضل هو الصيف، عندما تكثر الخرشنة الهجينة، وهي طيور نورس البحيرة الصغيرة، التي كان يسجنها عن طريق شبكة.

كان حفيد العم پالوما يساعده في هذه المهمة. كانا شريكين في العمل، بحسب ما كان يصرح تونِت بجدية، وكان الفتيان يقضيان

ساعات مترصدين على ضفاف البحيرة، وهما يرميان الحبل الصغير ويسجنان في الشبكة العصافير الغافلة. وعندما يحصلان على مؤونة جيدة، كان سانجونِرا، المسافر الجريء، يسير في طريق بلنسية حاملًا على ظهره الكيس الشبكي، الذي كان بداخله الخرشنة الهجينة تهز أجنحتها القاتمة وتتلوى بيأس مُظهرة بطونها البيضاء. كان الوقح يسير في الشوارع المجاورة لسوق السمك وهو ينادي على الملأ على عصافيره، ويجري عليه صِبيان المدينة لشراء الخرشنة الهجينة لجعلها تطير في مفترق الطرقات بخيط مربوط في قوائمها.

وعندما يعود تنشب الخلافات بين الشريكين ثم الانفصال التجاري. من المستحيل الحصول على حسابات مع مثل هذا الوغد. كان تونِت قد سئم من ضرب سانجونِرا، دون الحصول على فلس من البيع، لكنه دائمًا سريع التصديق وخاضع لمكره، ليعود ليبحث عنه في ذلك الكوخ المحطم الذي كان بلا أبواب حيث كان ينام وحده أغلب العام.

عندما اجتاز سانجونِرا الأحد عشر عامًا بدأ في التخلي عن أصدقائه. جعلته غريزته الطفيلية يتردد على الكنيسة، التي كانت الطريق الأفضل للدخول إلى بيت القِس. في بلدة مثل پالمار، كان الراهب فقيرًا مثل أي صياد، لكن سانجونِرا كان يشعر ببعض الإغواء نحو نبيذ الإبريق[1]، الذي كان يسمع عنه كلمات ثناء كثيرة في الحانة. علاوة على ذلك، في أيام الصيف، عندما كانت البحيرة تبدو أنها تغلي تحت الشمس، كانت تبدو له الكنيسة الصغيرة كقصر مسحور، بضوئها الغسقي المتسرب

(١) إبريق صغير يُستخدم في القداس لحمل الماء والنبيذ الذي يتم سكبه في الكأس.

من النوافذ الخضراء، وجدرانها الكلسية وبلاطها الذي كان من الطوب الأحمر والذي كان يتنفس رطوبة الأرض المستنقعية.

استقبل العم پالوما، الذي كان يحتقر الفتى الوقح لكونه عدو المُردي، بسخط ميوله الجديدة. آه، أيها المتشرد الأعظم! يعرف جيدًا كيف يختار تجارته!

عندما كان القسّ يذهب إلى بلنسية، كان يحمل له المنديل الواسع، المعروف بمنديل الأعشاب، المليء بالثياب، حتى القارب، وكان يتبعه على طول الضفة مودعًا الراهب بالكثير من العاطفة، كما لو أنه لن يراه مجددًا.

ساعد خادمة الكهنوت في الأعمال المنزلية، فكان يُحضر حطبًا من دِئِسا وماءً من الينابيع التي كانت تتدفق في البحيرة، وشعر برعشة قِط شره عندما ابتلع في الغرفة الصغيرة التي كانت بمثابة الخزانة، وحده وفى صمت، بقايا مائدة القِس. في الصباح، كان يشعر، عند سحب حبل الناقوس موقظًا القرية بأكملها، بالفخر لحاله. بدت له الضربات التي كانت تُحيي نشاط الكهنة علامة تميز كانت تضعه فوق رفاقه.

لكن هذا الجهد للعيش في ظل الكنيسة كان يضعف في بعض الأحيان، ليفسح المجال لبعض الحنين لحياته الشريدة القديمة. حينها بحث عن نِلِتا وتونِت، وعادوا معًا للبدء في الألعاب والسباقات على الضفة، ليصلوا إلى دِئِسا، والتي كانت تبدو بالنسبة لرفاقه البسطاء حدود العالم. وفى أحد أمسيات الخريف، أرسلتهم والدة تونِت إلى الدغل من أجل الحطب، فبدلًا من أن يزعجوها وهم يلعبون داخل

الكوخ، من الممكن أن يكونوا مفيدين بإحضارهم بعض الحزم، فقد كان الشتاء يقترب. أقدم الثلاثة على السفر. كانت دِئِسا مزهرة وعطرة مثل حديقة. فقد كانت أراضي الشجيرات، تحت ملاطفة الشمس التي كانت تبدو أنها صيفية، مغطاة بالزهور، وفوقها كانت تلمع الحشرات مثل أزرار ذهبية، ترفرف بطنين مكتوم. كانت تتحرك أشجار الصنوبر الملتوية التي تبلغ المائة عام بضجة مهيبة، وتحت القِباب التي كانت تشكلها قممها تمتد كآبة حلوة مشابهة لكآبة صحن كاتدرائية ضخمة. وفى بعض الأحيان، كان يتسرب من خلال جذعين شعاع شمس كأنه يدخل من نافذة كبيرة.

كان تونِت ونِلِتا، اللذان يتسللان دائمًا إلى دِئِسا، يشعران أن نفس المشاعر تسيطر عليهما. كانا خائفين دون أن يعرفا ممن، يتخيلان نفسيهما في قصرٍ مسحور لعملاقٍ غير مرئي كان من الممكن أن يظهر في أي لحظة. كانا يسيران عبر المسارات المتعرجة في الغابة المطيرة، ما إن يختفيان عبر الشجيرات التي كانت تتموج فوق رأسيهما، حتى يصعدان على قمة كثيب، ليريا من هناك، ومن خلال صف من الجذوع، المرآة الضخمة للبحيرة المُرقطة بقوارب صغيرة مثل الذباب.

كانت أقدامهما تنزلق على الأرض المغطاة بطبقاتٍ من الدُّبال[1]. على صوت ضجيج خطواتهما، الذي كان منخفضًا بالنسبة لصرخاتهما، كانت الشجيرات ترتج بسبب الجري المجنون لحيوانات غير مرئية.

(١) الدُّبال: هو المادة الناتجة من تحلل المواد العضوية (المخلفات النباتية والحيوانية) في التربة بفعل الكائنات الدقيقة.

كانت الأرانب تهرب. ومن بعيد كانت ترن ببطء أجراس الماشية التي ترعى جهة البحر.

بدا الصِّبية في حالة سُكر بسبب هدوء وعطور ذلك المساء الهادئ. عندما كانوا يدخلون الغابات المطيرة في أيام الشتاء، كانت تجبرهم الشجيرات العارية والجافة، برد ريح الشرق الذي كان يهب من البحر ليجمد أيديهم، المظهر المأساوي لِدِئِسا تحت الضوء الرمادي لسماء ملبدة بالغيوم، على الإسراع في جمع حزم الحطب الخاصة بهم عند حافة الغابة والفرار على الفور باتجاه پالمار. لكنهم تقدموا عصر ذلك اليوم بثقة، متلهفين للركض في الغابة المطيرة بأكملها، حتى لو وصلوا إلى نهاية العالم.

كانوا يسيرون من مفاجأة إلى أخرى. كانت نِلِتا، بغريزتها الأنثوية الراغبة في تجميل نفسها بدلًا من البحث عن الحطب الجاف، تقطع أغصان الريحان، وتلوح بها على رأسها الأشعث. فيما بعد شكلت باقات من النعناع والأعشاب العطرية الأخرى المغطاة بالزهور الصغيرة، والتي أزعجتها بعطرها الحاد. أخذ تونِت لبلابًا بريًّا وشكَّل تاجًا، ووضعه على شعر صديقته الفوضوي، وهو يضحك عندما رآها تشبه الرؤوس الصغيرة المرسومة على مذابح كنيسة پالمار. كان سانجونِرا يحرك خَطْمَه المتطفل وهو يبحث عن شيء يمكن استخدامه في تلك الطبيعة الرائعة والعطرة. كان يلتهم عناقيد الكرز الأحمر الصغيرة، بنهم سببه الجوع فقط، وينتزع قلوب النخل من الأرض، وهو يبحث عن الدوم، عن ساق النبات المُر بين غلافها اللُبّي فيجد بذرة النخيل اللدنة ذات الطعم الحلو.

كانت اليعاسيب والفراشات ترفرف في الأراضي الجرداء في الغابة المطيرة، والتي تُسمَّى مايايس، وهي أراضٍ منخفضة خالية من الأشجار بسبب الفيضانات خلال الشتاء، وبينما يركض الصِّبية، كانوا يتلقون في أرجلهم وخزات الشجيرات، وشكّات الأسَل الحاد كالرماح، لكنهم يضحكون من الحكة ويستمرون في الركض، مندهشين من جمال الغابة المطيرة. ووجدوا على الدروب ديدانًا قصيرة وسميكة وذات ألوان زاهية، كما لو كانت أزهارًا متحركة تزحف بتموج عصبي. فيأخذون هذه اليرقات بين أصابعهم وهم مندهشون كأنها كائنات غامضة لا يستطيعون التكهن بطبيعتها، ويعيدونها إلى الأرض ويتابعونها، وهم على أربع، أثناء تموجاتها البطيئة حتى تختفي في الشجيرات. جعلتهم اليعاسيب يركضون من جانب إلى آخر، وأبدى الثلاثة إعجابهم بالطيران العصبيّ لمقترنات الأجنحة، وهي أكثر أنواع اليعاسيب شيوعًا واحمرارًا، وللماروتا التي كانت مثل الجنيات، بأجنحة فضية وظهر أخضر وصدر مغطى بالذهب.

تجولوا بشكلٍ عشوائي في وسط الغابة المطيرة، حيث لم يصلوا أبدًا من قبل، رأوا فجأة المنظر الطبيعي يتبدل. كانوا يغوصون في شجيرات الأراضي المنخفضة حتى أصبحوا في ظلام الشفق. كان يبدو الهدير المتواصل في كل مرة أكثر قربًا. كان البحر يضرب الشاطئ على الجانب الآخر من سلسلة الكثبان الرملية التي أغلقت الأفق.

لم تكن أشجار الصنوبر مستقيمة ورائعة، كما هو الحال جهة البحيرة. كانت جذوعها ملتوية، وكانت الفروع بيضاء تقريبًا وتتدلى

القمم إلى أسفل. نمت جميع الأشجار في الاتجاه نفسه، كما لو أن عاصفة هوجاء غير مرئية هبت في هدوء المساء العميق. كانت رياح البحر، أثناء العواصف العاتية، تعذب هذا الجانب من الغابة، مما جعله يبدو كئيبًا. تراجع الأولاد. لقد سمعوا عن هذا الجزء من دِئِسا، وهو الجزء الأكثر وحشية وخطورة. أخافهم صمت الشجيرات وعدم حركتها. هناك كانت تتسلل الأفاعي الضخمة التي كان حراس دِئِسا يطاردونها، وكانت ترعى الثيران الشرسة التي انفصلت عن القطيع، مما أجبر القناصين على تحميل بنادقهم بالملح الخشن لإخافتها وليس قتلها.

كان سانجونِرا، بصفته أكثر دراية بدِئِسا، يقود رفاقه نحو البحيرة، لكن قلوب النخيل التي وجدها في الطريق جعلته ينحرف، مضيعًا وجهته. كان المساء قد حل وخافت نِلِتا من رؤية الغابة مظلمة. ضحك الصَّبيان. كانت أشجار الصنوبر تشكل منزلًا كبيرًا، حيث العتمة هناك في الداخل كما هو الحال في أكواخهم الخشبية عندما لا تكون الشمس قد غابت بعد، ولكن خارج الغابة كانت لا تزال هناك ساعة من الضوء. لم يكن هناك داعٍ للعجلة. واستمروا في البحث عن شجر النخيل، وهم يهدئون الفتاة ببذور النخيل التي أعطاها لها تونِت، حيث كانت تمصها، وتتباطأ. وعندما وجدت نفسها وحيدة في الطريق، ركضت للانضمام إليهما.

الآن هبط الليل بالفعل... أخبرها سانجونِرا، بصفته خبيرًا في دِئِسا. لم تعد أجراس الماشية الكبيرة تدق من بعيد. كان يجب عليهم

الخروج من الغابة على الفور، ولكن بعد جمع الحطب، لتجنب الشجار عند العودة إلى المنزل. فبحثوا عن الأغصان الجافة عند سفح أشجار الصنوبر بين الشجيرات. شكلوا على عجل ثلاث حزم صغيرة، وبدأوا يتحسسون السير تقريبًا. وبعد خطوات قليلة كان الظلام تامًّا. كان وهج النار، من الجهة التي من المفترض أن تكون فيها ألبوفيرا، على وشك أن ينطفئ، ولكن داخل الغابة المطيرة بالكاد برزت الجذوع والشجيرات كظلال قوية على الخلفية الدامسة. فقد سانجونِرا هدوءه، ولم يكن يعرف يقينًا أين يسير. كانوا خارج الدرب. كانوا يغوصون في الشجيرات الشائكة التي خدشت أرجلهم. تنهدت نِلِتا خائفة، وفجأة صرخت وسقطت. تعثرت في جذور شجرة صنوبر مقطوعة على الأرض، مما أدى إلى إصابة قدمها. كان سانجونِرا يتحدث عن الاستمرار في التقدم، تاركًا وراءه تلك التافهة التي تعرف فقط كيف تئن. كانت الفتاة تبكي سرًّا، وكأنها تخشى أن تثير صمت الغابة، فتجذب الوحوش المخيفة التي تسكن الظلام، وهدد تونِت سانجونِرا بكميات هائلة من الركلات والصفعات إذا لم يبقَ معهما ليقودهما. كانوا يسيرون ببطء، وهم يتحسسون الأرض بأقدامهم، حتى توقفوا فجأة عن التعثر فوق الشجيرات، ووجدوا دُبال الممرات الزلق. ولكن حينها، عندما تحدث تونِت، لم يتلق ردًّا من رفيقه الذي كان يسير في المقدمة.

– سانجونِرا! سانجونِرا!

كان الجواب الوحيد هو ضجيج الأغصان المكسورة، والشجيرات التي تتطاير أثناء الهرب، كما لو أن حيوانًا بريًّا يهرب. صرخ تونِت

بغضب. أيها اللص الكبير! كان يفر لمغادرة الغابة المطيرة سريعًا، لم يكن يريد الاستمرار مع رفيقيه لعدم مساعدة نِلِتا. عندما تُرك الصبيان بمفردهما، شعرا فجأة بالانهيار من قلة السكينة داخلهما. فقد كان سانجونِرا، بتجربته في التشرد، يبدو لهما مساعدًا عظيمًا. كانت نِلِتا، المرتعبة، تصرخ، متجاهلة أي حكمة، ويتردد صدى بكائها في صمت الغابة المطيرة، الذي بدا هائلًا. أحيا خوف رفيقته طاقة تونِت مرةً أخرى. وضع ذراعه حول ظهر الفتاة، يسندها، ويشجعها، وقد سألها عما إذا كانت تستطيع السير، وإذا كانت تريد أن تتبعه وهو يتقدم دائمًا، دون أن يعرف الفتى المسكين إلى أين.

ظل الاثنان متمسكين ببعضهما لفترة طويلة: كانت هي تبكي، وهو يرتعش بسبب ما أحدثه المجهول فيه، لكنه كان يريد التغلب عليه.

مر بقربهما شيء لزج وجليدي، ضرب وجههما: ربما خفاش، وهذه اللمسة، التي أصابتهما بالقشعريرة، أخرجتهما من حالة الجمود المؤلم. انطلقا على عجل، يسقطان وينهضان، يشتبكان في الشجيرات، يصطدمان بالأشجار، يرتجفان من الضجة التي بدت أنها تحفزهما في هروبهما. كلاهما كان يفكر في الشيء نفسه، لكنهما يخفيان الفكرة بشكل غريزي حتى لا يزيدا من خوفهما. كانت ذكرى سانتشا ثابتة في عقلهما. مرت سريعًا في مخيلتهما جميع حكايات البحيرة التي كانت تُسمع ليلًا بالقرب من موقد الكوخ الخشبي، وعندما اصطدمت يداهما بجذوع الأشجار، اعتقدا أنهما كانا يلمسان الجلد القاسي والبارد للزواحف الضخمة. كانت تبدو لهما صرخات طيور الغُرة التي تدوي

بعيدًا، في حقول القصب في البحيرة، رثاء للناس القتلى. كان ركضهما المجنون عبر الشجيرات، وهما يكسران الأغصان، ويقطعان الأعشاب، قد أيقظ تحت عتمة الأدغال كائنات غامضة كانت تجري أيضًا وسط قعقعة الأوراق الجافة.

وصلا إلى مساحة واسعة، دون أن يخمنا أين كانا في الغابة المطيرة التي لا نهاية لها. كان الظلام أقل كثافة في هذا الفضاء المكشوف. وفوق كانت تمتد السماء الزرقاء الكثيفة، تتلألأ بالضوء، مثل لوحة قماشية كبيرة ممتدة فوق الكتلة السوداء للغابة التي كانت تحيط بالسهل. توقف الطفلان عند هذه الجزيرة المشرقة والهادئة. كانا يشعران بالعجز عن الاستمرار في التقدم. كانا يرتجفان خوفًا من الأجمة العميقة التي كانت تتحرك من جميع الجهات مثل موجة من الظلال.

جلسا، وهما يحتضنان بعضهما البعض بشدة، كما لو أن لمسة جسديهما أعطتهما الثقة. لم تعد نِلِتا تبكي. مستسلمة من الألم والإرهاق، فأسندت رأسها على كتف صديقها، متنهدة بضعف. كان تونِت ينظر في كل مكان، كما لو كان يخيفه، حتى أكثر من عتمة الغابة المطيرة، ذلك الوضوح الشفقي، حيث تصور أنه كان يرى فيه من لحظة إلى أخرى صورة ظلية لوحش شرس، عدو الأطفال التائهين. كان غناء طائر الوقواق يشق الصمت، واستعادت ضفادع البركة القريبة، التي كانت قد صمتت عند وصولهما ثقتها، وعادت لاستئناف غنائها الرتيب، وكان البعوض، اللزج والثقيل، يطن حول رأسيهما بأزيز حزين في شبه العتمة. شيئًا فشيئًا، استعاد الطفلان سكينتهما. لم يكونا سيئين

هناك، فيمكنهما قضاء الليل. ويبدو أن حرارة جسديهما، المغروسين بعضهما في بعض، تمنحهما حياة جديدة، تجعلهما ينسيان الخوف والركض المجنون عبر الغابة المطيرة.

فوق أشجار الصنوبر، من جهة البحر، بدأ يتلون الفضاء بلون ضارب إلى البياض. كانت تبدو النجوم خافتة مغمورة في تموج أبيض. كان الصبيان، المتحمسان من بيئة الغابة الغامضة، ينظران إلى هذه الظاهرة بقلق، كما لو أن شخصًا ما جاء مسرعًا لمساعدتهما محاطًا بهالة من الضوء. كانت أغصان الصنوبر، مع النسيج الخيطي لأوراقها، تبرز كما لو كانت مرسومة باللون الأسود على خلفية مضيئة. بدأ شيء مشرق يلوح فوق قمم الأجمة، في البداية كان خطًّا صغيرًا قليل التقوس مثل الحاجب الفضي، ثم نصف دائرة مبهر، وأخيرًا، وجه ضخم، له لون العسل اللطيف، الذي كان يجر شعره اللامع بين النجوم القريبة. كان القمر يبدو وكأنه يبتسم إلى الصبيين اللذين كانا يحدقان فيه بعشق المتوحشين الصغار.

تبدلت الغابة المطيرة مع ظهور ذلك الوجه الممتلئ الذي كان يجعل قصب السهل يلمع مثل العِصيّ الفضية. عند سفح كل شجرة، انتشرت بقعة سوداء مضطربة، وكانت الغابة تبدو أنها تنمو وتتضاعف، وتنشر على الأرض المضيئة أجمة أخرى من الظل. بدأت في الغناء طيور البوسكويرو وبلابل البحيرة البرية، المغرمة جدًّا بحريتها لدرجة أنها تموت بمجرد أن يتم سجنها، في كل حدود المساحة الواسعة، وحتى البعوض كان يطير بشكلٍ أكثر لطفًا في الفضاء المليء بالضوء.

بدأ الصبيان في العثور على مغامرة لطيفة. ولم تعد نِلِتا تشعر بالألم في قدمها وتتحدث بهدوء في أذن شريكها. غريزتها المبكرة كامرأة، ومكرها كقطّة صغيرة ضالة ومهملة، جعلها تتفوق على تونِت. سيبقيان في الغابة المطيرة، هل هذا صحيح؟ وفى اليوم التالي، عندما يعودان إلى القرية، سيبحثان عن ذريعة لشرح مغامرتهما. سيكون سانجونِرا المسؤول. سيقضيان الليل هناك، وهما يريان ما لم يرياه من قبل، سينامان معًا: سيكونان مثل زوج وزوجة. وفى جهلهما، كانا يرتجفان وهما يتفوهان بهذه الكلمات ويشدان على أذرعهما بقوة أكثر. كانا يضغطان على بعضهما، كما لو أن الغريزة أقنعتهما بأن تجاذبهما الناشئ كان يحتاج إلى مزج حرارة جسديهما.

كان تونِت يشعر بنشوة غريبة لا يمكن تفسيرها. لم يسبق أن كان لجسد رفيقته، الذي تخبط به أكثر من مرة في الألعاب الخشنة، تلك الحرارة اللطيفة التي بدت وكأنها تنتشر في عروقه وترتفع إلى رأسه، فسببت له الارتباك نفسه الذي سببته كؤوس النبيذ التي قدمها له جده في الحانة. كان ينظر أمامه بشكلٍ مبهم، لكن كان كل انتباهه موجهًا إلى رأس نِلِتا، الذي كان يثقل على كتفه، وإلى المداعبة التي كان ذلك الفم يلف بها رقبته، عندما يتنفس، كما لو كانت يد مخملية تدغدغ جلده. كان كلاهما صامتًا، وزاد صمتهما سحر اللحظة. كانت تفتح عينيها الخضراوين اللتين ينعكس على خلفيتهما القمر كقطرة ندى، وهي تتحرك للعثور على وضع أفضل، وتغلقهما مرةً أخرى. كانت تهمهم كما لو كانت تحلم، وتشد على رفيقها:

– تونِت.. تونِت..

كم كان الوقت؟ كان الصبي يشعر أن عينيه تغلقان، من السُّكر الغريب الذي بدا أنه يغمره، أكثر من النوم. كانا لا يحسان من همسات الغابة سوى بطنين البعوض الذي يرفرف مثل هالة من الظل على جلدهما الصلب كأطفال البحيرة. كانت حفلة موسيقية غريبة هدأتهما، فقد هزهزتهما على موجات النوم الأولى. كان البعض يصرخ مثل آلات الكمان الحادة، فتطول النغمة نفسها إلى ما لا نهاية، البعض الآخر، الأكثر جدية، كان يُنغِّم سُلمًا قصيرًا، والآخرون السِّمان، الضخام، كانوا يطنون باهتزاز خافت، مثل الكمان الأجهر العميق أو دقات الساعة البعيدة. في صباح اليوم التالي أيقظتهما الشمس، وهي تحرق وجهيهما، ونباح كلب الحراس الذي كان يضع أنيابه بالقرب من عينيهما.

كانا على حافة دِئِسا تقريبًا، وكان الطريق قصيرًا للوصول إلى پالمار.

كانت والدة تونِت، اللطيفة والحزينة دائمًا، من أجل تعويض ليلة من القلق، ركضت على ابنها وفى يدها مُردي، وضربته بعض الضربات رغم خفتها. وبالمثل، عندما أتت والدة نِلِتا في «عربة الأنقليس»، كالت لها العديد من اللكمات، وكأنها دفعة مسبقة، حتى لا تضيع في الغابة مرة أخرى. بعد هذه المغامرة، وصفت المدينة بأكملها، وكأنه اتفاقٌ ضمني، تونِت ونِلِتا كخطيبين، وهما، كما لو كانا ارتبطا إلى الأبد بسبب ليلة الاتصال البريء التي قضياها في الغابة المطيرة، وقد سعى كلٌّ منهما إلى الآخر وأحبا بعضهما دون قول ذلك بالكلمات، كأنه أصبح من المفهوم أنهما لا يمكن إلا أن يكون أحدهما للآخر.

كانت هذه المغامرة نهاية طفولتهما. انتهت جولاتهما، وحياتهما المبهجة والطائشة، دون أي التزام. عاشت نِلِتا مثل حياة والدتها: كانت تخرج إلى بلنسية كل ليلة مع سلال الأنقليس، ولا تعود حتى مساء اليوم التالي. أما تونِت، الذي كان يراها للحظة واحدة فقط عند الغسق، كان يعمل في أرض والده أو يذهب لصيد السمك معه ومع جده.

الآن صار العم توني، الذي كان لطيفًا في السابق، كثير الطلبات مثل العم پالوما عندما رأى ابنه يكبر، أما تونِت كان، مثل البهيمة المستسلمة، يتم جره إلى العمل. كان والده، بطل الأرض العنيد، مصممًا على قراراته. عندما حان وقت زراعة الأرز أو الحصاد، كان الفتى يمضى يومه في أراضي سالِر. أما باقي العام كان يصطاد السمك من البحيرة، أحيانًا مع والده وأحيانًا أخرى مع جده، الذي اعترف به كرفيق في قاربه، لكنه كان يلعن في كل لحظة حظه العثر الذي جعله ينجب مثل هؤلاء المتشردين في عائلته. بالإضافة إلى أن الضجر كان قد دفع الفتى إلى العمل. فلم يبقَ أحد في القرية ليرفه معه عن نفسه خلال النهار. فنِلِتا كانت في بلنسية، ورفاقه القدامى قد كبروا الآن مثله وأصبحوا ملتزمين بكسب الرزق، يركبون قوارب والديهم. ظل سانجونِرا، هذا الوغد، بعد المغامرة في دِئِسا، يبتعد عن تونِت، متذكرًا الضرب المبرح الذي ناله بسبب التخلي عنهما تلك الليلة.

لجأ المتشرد إلى منزل القِس كخادم- كما لو أن هذا الحدث قرر مستقبله- ينام كالكلب خلف الباب، دون أن يتذكر والده الذي كان يظهر من حين لآخر في ذلك الكوخ المهجور، الذي كان المطر يسقط من سطحه مثل الأرض العراء.

اكتسب سانجونِرا العجوز الآن مهارة اصطياد ثعالب البحيرة، عندما لا يكون مخمورًا، والتي لم يكن يصل عددها إلى دزينة، حيث كان يتم اصطيادها بشراسة عبر قرون. ذات مساء عندما كان يهضم نبيذه على إحدى الضفاف، رأى بعض الدوامات وغليان الماء في فقاعات كبيرة، كان أحدها يغوص في القاع، بين الشباك التي أغلقت القناة، باحثًا عن مصائد مليئة بالأسماك، فدخل الماء، مع مُردي أقرضوه له، وطارد حيوانًا أسودَ كان يجري على طول القاع بالعصي، حتى تمكن من قتله، والاستيلاء عليه.

كان ثعلب الماء الشهير، الذي يُحكى عنه في پالمار بوصفه حيوانًا رائعًا. ثعلب الماء، الذي كان يتدفق فيما مضى بأعداد كبيرة في البحيرة لدرجة أن الصيد كان مستحيلًا، حتى أنه كان يكسر الشباك. اعتبر المتشرد العجوز نفسه الرجل الأول في ألبوفيرا. كانت جمعية الصيادين في پالمار، وفقًا للقوانين القديمة المسجلة في الدفاتر التي يحتفظ بها رئيس هيئة المحكمين، ملزمة بدفع خمس بزيتات عن كل ثعلب ماء مقدم إليها. أخذ الرجل العجوز جائزته، لكنه لم يتوقف هنا. كان ذلك الحيوان كنزًا. وكرس نفسه لدراسته في ميناء كاتارّوخا، في ميناء سييّا، حيث وصل إلى سويكا وكوييرا في رحلته الانتصارية حول البحيرة.

كانوا يستدعونه من كل مكان. لم يكن هناك حانة لم يستقبلوه فيها بأذرعٍ مفتوحةٍ! هيا، أيها العم سانجونِرا! لنرَ الحيوان الصغير الذي اصطاده! وبعد أن قُدمت له عدة أكواب أخرج المتشرد بلطف من تحت البطانية الوحش المسكين، الناعم وذا الرائحة الكريهة، الذي أُعجب

بجلده وسمح لهم بملامسته بأيديهم- ولكن بعناية كبيرة، يا هذا؟- من أجل تقدير نعومة شعره.

لم يكن سانجونِرا الصغير، عندما جاء إلى العالم، يُحمل بين ذراعي والده بهذه اللطافة الرقيقة مثل هذا الحيوان الصغير. لكن مرت الأيام، وسئم الناس من ثعلب البحر، فلم يعطه أحد ولا كأسًا سيئة من البراندي، ولم يكن هناك حانة لم يُطرد منها سانجونِرا مثل شخص موبوء بالطاعون، بسبب الرائحة التي لا تُحتمل لذلك الوحش الفاسد الذي كان يحمله معه في كل مكان تحت البطانية. وقبل التخلي عنه، كان قد وجد فيه فائدة جديدة، فباعه في بلنسية إلى محنط حيوانات، ومنذ ذلك الحين أعلن مهنته للجميع: سيكون صياد ثعالب الماء.

انطلق في البحث عن آخر، مثل من يسعى وراء السعادة. فلم يكن يغيب عن ذاكرته جائزة جمعية الصيادين وأسبوع السُّكر المتواصل والمجاني، مع حلوى الأناناس ومعاملته كملك. لكن الثعلب الثاني لم يكن يريد أن يُقبض عليه. ذات مرة اعتقد أنه رآه في أبعد ترع البحيرة، لكنه اختفى على الفور، كما لو أن جميع أفراد عائلته قد لاحظوا مهنة سانجونِرا الجديدة. جعله يأسه يسكر بسبب ثعالب الماء التي لا بد أن يصطادها، وكان قد تناول بالفعل أكثر من مشروبين، عندما وجده بعض الصيادين ذات ليلة غارقًا في إحدى القنوات. لقد انزلق في الوحل، ولم يتمكن من النهوض بسبب سكره، وبقي في الماء إلى الأبد يطارد ثعالب الماء.

تسبب موت والد سانجونِرا في لجوء الأخير إلى منزل القِس إلى

الأبد، ولم يعد أبدًا إلى كوخه الخشبي. توالى الرهبان في پالمار، فهي بلدة العقاب، حيث كان يذهب إليها فقط اليائسون أو أولئك الذين قد وقعوا في مصيبة، ليخرجوا من هذا البؤس بأسرع ما يمكن. كان جميع القساوسة مسؤولين أيضًا عن سانجونِرا، عندما يستحوذون على الكنيسة الفقيرة، كشخص لا غنى عنه من أجل التعبد. ففي القرية، كان هو فقط الذي يعرف كيفية المساعدة في القداس. حفظ في ذاكرته كل الثياب المحفوظة في المَوهِف[1]، بعدد مِزقها، بقعها وثقوب العُث، وكان معتنيًا بكل شيء وتوَّاقًا إلى الإرضاء، لم يكن سيده يصوغ أمرًا لا ينفذه على الفور.

كان يشعر ببعض الفخر أنه الوحيد في المدينة الذي لم يكن يعمل وفى يده مُردي أو يقضي الليالي وسط ألبوفيرا، مما جعله متغطرسًا مع الآخرين. في أيام الآحاد، وقت الفجر، كان هو من يقود الطريق بالصليب عاليًا على رأس صلاة مسبحة الفجر. كان رجال ونساء وأطفال، في طابورين طويلين، يغنون بخطوة بطيئة في الشارع الوحيد في المدينة، ثم ينتشرون عبر المنحدرات والأكواخ الخشبية المنعزلة، حتى يستمر الاحتفال لفترة أطول. في كآبة الفجر، كانت القنوات تلمع مثل صفائح من الصلب القاتم، وكانت الغيوم الصغيرة من جهة البحر ملونة باللون الأحمر، وعصافير الدوري الموريسكية تحلق في أسراب، تخرج من تسقيفات أحواض السمك، تُجيب بزقزقة مبهجة لمشردين راضين بالحياة وبالحرية، على غناء المخلصين الحزين والمأساوي. «استيقظ يا

(١) المَوهِف: حجرة مجاورة لهيكل الكنيسة تُحفظ فيها الأواني المقدسة وملابس القساوسة.

مسيحي!» كانت صلاة المسبحة تُغَنَّى في جميع أنحاء القرية، والغريب في الدعوة هو أن الحي كله كان يسير في الموكب، وفى البيوت الخالية، استيقظت فقط الكلاب مع نباحها والديوك التي شقت الإنشاد الحزين بغنائها الجهوري مثل البوق الذي يُحيي النور الجديد وفرحة يوم آخر. بينما كان تونِت يسير في موكب صلاة المسبحة، ينظر بحنق إلى رفيقه السابق، الذي كان على رأس الجميع كجنرال يرفع الصليب كعلم. آه، أيها اللص! لقد تمكن هذا الشخص من ترتيب الحياة حسب رغبته!

في هذه الأثناء، كان يعيش خاضعًا لوالده، في كل مرة أكثر جدية وأقل تواصلًا: كان طيبًا في أعماقه، ولكنه يصل إلى حد القسوة مع أهله فيما يخص شغفه العنيد بالعمل. كانت الأوقات سيئة. لم تمنح أراضي سالِر محصولين جيدين على التوالي، وكان الربا، الذي لجأ إليه العم توني كمساعدة في أعماله، يلتهم الجزء الأكبر من جهده. في الصيد، كانت عائلة پالوما دائمًا غير محظوظة، حيث احتلوا أسوأ الأماكن في البحيرة في قرعة الجمعية. إضافةً إلى ذلك، كانت الأم تتلاشى ببطء، كانت تحتضر، كما لو أن الحياة تذوب بداخلها مثل شمعة، وتهرب بسبب جرح أحشائها المختلة، دون أي ضوء آخر غير اللمعان غير الصحي في عينيها.

كانت الحياة حزينة بالنسبة لتونِت، فلم تعد پالمار تتأثر بشيطنته، ولم يعد الجيران يُقبّلونه، وهم يقولون إنه أجمل فتى في القرية، ولم يعد هو المفضل من بين زملائه في يوم قرعة مواقع الصيد، فيدس يده في الحقيبة الجلدية للجمعية ويسحب القرعة. لقد أصبح الآن رجلًا. وبدلًا

من أن تُشكل رغباته كطفل مدلل حملًا في المنزل، كانوا يأمرونه، فقد كانت رغباته أمرًا سخيفًا مثل رغبات لابوردا، وعند أقل تمرد، كانت يد العم توني الثقيلة ترتفع مهددة بينما كان الجد يوافق بضحكة حادة، مؤكدًا أن هذه هي الطريقة التي يتم بها تربية الناس باستقامة.

عندما ماتت الأم، بدا أن المودة القديمة بين الجد وابنه قد ولدت من جديد. تأسف العم پالوما لغياب ذلك الكائن المطيع الذي كان يعاني في صمت من كل عاداته الغريبة، لقد شعر بالفراغ الذي نشأ من حوله وتمسك بابنه، يذعن قليلًا لرغبته، لكنه لم يكن يجرؤ على معارضته في وجوده.

قاما بالصيد معًا، كما كان الحال فيما مضى، كانا يذهبان إلى الحانة في بعض الأحيان كرفيقين، بينما كانت لابوردا المسكينة في الكوخ الخشبي تهتم بالأعمال المنزلية بنضج مبكر لمخلوقة تعيسة.

كانت نِلِتا أيضًا مثل فرد من العائلة. لم تعد والدتها قادرة على الذهاب إلى سوق بلنسية. كان يبدو أن رطوبة ألبوفيرا قد تسربت إلى نخاع عظامها، وشلت جسدها، وظلت المرأة المسكينة بلا حراك في كوخها الخشبي، تئن من آلام الروماتيزم، وتصرخ مثل امرأة ملعونة وغير قادرة على كسب لقمة العيش. كان يعطيها رفقاء السوق شيئًا من سِلالهم كصدقة، وعندما شعرت الصغيرة بالجوع في كوخها الصغير، ركضت إلى تونِت، لمساعدة لابوردا في مهامها بسلطة الفتاة الأكبر سنًّا. رحب العم توني بها جيدًا. كان كرمه كمقاتل في معركته المستمرة مع البؤس يجعله يساعد جميع من يسقطون. نشأت نِلِتا في كوخ خطيبها.

كانت تذهب إليه بحثًا عن الرزق، واتخذت علاقتها مع تونِت طبيعة أكثر أخوّة من كونها محبة.

لم يهتم الصبي كثيرًا بخطيبته، كان واثقًا منها. من يمكن أن تحب؟ هل كان لها الحق في النظر إلى شخص آخر، بعد أن اعترفت القرية بأنهما مخطوبان؟ طمأنه امتلاك نِلِتا، التي كبرت في بؤسٍ مثل زهرة نادرة يتعارض جمالها مع الفقر الجسدي لبنات پالمار الأخريات، فلم يعتنِ بها كثيرًا، وعاملها بثقة من كانا متزوجين بالفعل. كانت أحيانًا تمر أسابيع كاملة دون أن يتكلم معها. جذبت ذلك الرجل الصغير ميول أخرى، أن يُعرف بأنه أكثر فتى حسن النشأة في پالمار. كان فخورًا بهيبة الشجعان التي اكتسبها بين رفاق اللعب القدامى، رجال مثله الآن. لقد كان يتقاتل مع بعض الأصدقاء، ويخرج دائمًا منتصرًا. كان قد شج رأس بعضهم بالمُردي الذي في يده، وذات مساء ركض عبر الضفاف، معه حربة الصيد، وراء مراكبي من كاتارّوخا كان يُوصف بأنه مخيف. كان الأب يقطب وجهه عندما يعلم بهذه المغامرات، لكن الجد كان يضحك، حيث تصالح مؤقتًا مع حفيده. أكثر ما كان العم پالوما يثني عليه هو أن الصبي واجه، ذات مرة، حراس دِئِسا، وأخذ أرنبًا عنوة كان قد قتله للتو. لم يكن شغوفًا بالعمل، لكنه كان يحمل دماء عائلة پالوما.

هذا الشاب الصغير الذي لم يكن يبلغ الثامنة عشرة بعد، والذي كان يُحكى عنه كثيرًا في القرية، كان له مكانه المفضل، حيث كان يركض إليه فور خروجه من قارب والده أو جده الراسي في القناة.

كانت حانة كانيامِل متجرًا جديدًا كانوا يثنون عليه في كل ألبوفيرا.

لم تكن، مثل الحانات الصغيرة الأخرى، المُقامة في كوخ ذي سقف منخفض مدخن، من دون فتحة تهوية أخرى غير الباب. كان منزله الخاص، مبنى بدا عجائبيًّا بين الأكواخ التي كانت من القش، له جدران حجرية مطلية باللون الأزرق، وسقف من القرميد وبابان، أحدهما يطل على الشارع الوحيد في القرية والآخر على القناة. كانت المساحة بين البابين مليئة دائمًا بزارعي الأرز والصيادين، الأشخاص الذين كانوا يشربون يقفون أمام المنضدة، وهم يحدقون، كأنهم منومون مغناطيسيًّا، في صفي براميل حمراء، أو يجلسون على مقاعد مصنوعة من الحبال أمام طاولات صغيرة من الصنوبر، مستمرون في ألعاب البريسكولا والخدع التي لا تنتهي.

جعلت رفاهية هذه الحانة الزبائن فخورين بها. كانت الجدران مكسوّة ببلاط مانيسِس[1] القاشاني حتى ارتفاع رؤوسهم. كانت المناظر الطبيعية غير المألوفة، الخضراء أو الزرقاء، ممتدة في الأعلى على الحوائط، مع خيول مثل الجرذان وأشجار أصغر من الرجال، عوارض تتدلى منها سلاسل من نقانق الدم، نعال فلاحين من الحَلفاء، وحزم من الحبال الصفراء والواخزة التي كانت تُستخدم كحبال للأشرعة في القوارب الكبيرة في البحيرة.

كان الجميع معجبًا بكانيامِل. يا له من مال يمتلكه ذلك السمين! لقد كان حارسًا مدنيًّا في كوبا وفى شرطة التهريب في إسبانيا، ثم عاش الكثير من السنوات في الجزائر، كان يعرف شيئًا من كل مهنة، كان

(١) مانيسِس: بلدة في مقاطعة بلنسية تشتهر بصناعة الخزف.

يعرف الكثير، والكثير! والذي بحسب تعبير العم پالوما، كان يستعلم أثناء نومه عن مكان كل بيزيتا، وفى اليوم التالي يذهب للحصول عليها. لم يُشرب مطلقًا نبيذ مثل نبيذه في پالمار. كل شيء كان الأفضل في ذلك المنزل. كان صاحبه يستقبل الزبائن جيدًا ويأخذ أسعارًا معقولة.

لم يكن كانيامِل من پالمار، ولا حتى من بلنسية. كان من بعيد جدًّا، من هناك حيث يتحدثون القشتالية. كان في شبابه شرطي تهريب في ألبوفيرا، تزوج من فتاة من پالمار، فقيرة وقبيحة. بعد حياة مضطربة، وعندما جمع بعض المال، أتى ليستقر في قرية زوجته، مستسلمًا لرغباتها. فقد كانت المسكينة مريضة وكشفت عن حياة قصيرة: كانت تبدو منهكة بسبب تلك الرحلات التي جعلتها تحلم بركنها الهادئ من البحيرة. كان أصحاب الحانات الآخرون يهاجمون كانيامِل بعنف عندما رأوه يستولي على الزبائن. آه، أيها النذل! لسببٍ ما كان يعطي النبيذ الجيد بثمن رخيص! كان أقل ما يهتم به هو الحانة: فقد كان عمله في مكانٍ آخر، ولسببٍ ما أيضًا أتى من بعيد ليستقر هنا. لكن كان كانيامِل، عندما يعلم بمثل هذا الكلام يبتسم بلطف. في النهاية كان لا بد أن يعيش الجميع!

كان أقرب أصدقاء كانيامِل يعرفون أن هذه النميمة صحيحة. لم تكن الحانة تهمه كثيرًا. كان عمله في الليل بعد أن يغلقها: لقد كان شرطيًّا ويتجول على الشواطئ لغرض. طوال أشهر كانت تسقط الرزم على الساحل، تتدحرج على الرمال يدفعها حشد من الأشباح السوداء الذين كانوا يرفعونها إلى أعلى، ليحملوها خلال دئِسِا حتى شواطئ

البحيرة. وهناك، كانت القوارب الكبيرة، شواهد ألبوفيرا، التي تستطيع أن تحمل حتى مائة كيس من الأرز، تكتظ برزم التبغ، فتشرع للسير ببطء في العتمة نحو اليابسة... وفي اليوم التالي، لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت.

كان يختار الزمرة لهذه الحملات من بين أكثر الأشخاص الجسورين الذين كانوا يحضرون إلى حانته. حظي تونِت مرتين أو ثلاث مرات بثقة كانيامِل لكونه فتى شجاعًا ومتحفظًا. في هذا العمل الليلي كان يمكن أن يكسب الرجل ريالين أو ثلاثة، والتي كان يضعها مرةً أخرى في يد كانيامِل وهو يشرب في الحانة. ولا يزال التعساء يقولون لبعضهم متعجبين، وهم يعلقون في اليوم التالي على مخاطر إحدى الحملات التي كانوا فيها الأبطال الرئيسيين: «لكن ما الشجاعة التي يمتلكها ذلك الكانيامِل! كم يُعرِّض نفسه بجرأة لأن يأخذوه!». كانت الأمور تسير بشكلٍ جيد. كان الجميع عميانًا على الشاطئ، بفضل مهارة صاحب الحانة. كان أصدقاؤه القدامى في الجزائر يرسلون له الشحنات في الوقت المحدد، وسار العمل بسلاسة، حتى أن أمور كانيامِل ازدهرت بأقصى سرعة، على الرغم من أنه كان يرد بسخاء غير عادي على صمت أولئك الذين يمكن أن يؤذوه. وفي خلال عام من وجوده في پالمار كان قد اشترى أراضي أرز، وفي الشقة التي تعلو الحانة كان لديه كيسه الفضي ليُخرج من كانوا يطلبون قروضًا من أزماتهم.

كان يزيد احترامه بسرعة. في البداية أطلقوا عليه لقب كانيامِل بسبب النبرة الناعمة والعذبة التي كان يُعبّر بها بلهجة بلنسية عسيرة. لاحقًا، عندما صار غنيًّا، كان الناس يدعونه پاكو، فوفقًا لما قالته زوجته،

هكذا كانوا يدعونه في بلدته، وكان وجهه يتجهم إذا أطلقوا عليه كيكو، مثلما كانوا يطلقون على الآخرين الذين يُدعون باسم فرانسيسكو[1] في القرية.

عندما توفيت زوجته، رفيقته المسكينة من وقت المحن، حاولت أختها الصغرى، صيادة قبيحة، أرملة ولها طابع مسيطر، أن تُخيّم في الحانة كصاحبتها، يرافقها جميع أفراد الأسرة. كانوا يتملقون كانيامِل بالاهتمام الذي يلهمه أحد الأقارب الأثرياء، وأخبروه عن صعوبة إدارة الحانة وهو رجل وحيد. كان ينقص امرأة هناك! لكن كانيامِل طردها، فقد كان يكره دائمًا أخت زوجته بسبب لسانها السيئ ويرتعب أمام إمكانية أن تطمح في شَغل مكان أختها التي توفيت للتو، متحديًا احتجاجاتها الفاضحة. وللاهتمام بالدكان كان يكتفي بعجوزين، أرملتي صيادَين، كانتا تطبخان الثوم والفلفل للهاوين الذين كانوا يأتون من بلنسية، وتنظفان تلك المنضدة التي تضع كل القرية مرافقها عليها. وعندما صار كانيامِل حرًّا كان يتحدث ضد الزواج. رجل له ثروته يمكن أن يتزوج فقط للمنفعة من واحدة تمتلك مالًا أكثر منه. وفى الليل كان يضحك وهو يستمع إلى العم پالوما الذي كان بليغًا عندما يتحدث عن النساء.

كان المراكبي العجوز يعلن أن الرجل يجب أن يكون مثل هازجة

(١) في إسبانيا يُطلق أحيانًا على الأشخاص الذين يحملون اسم فرانسيسكو اسم «پاكو»؛ لأن القديس فرانسيسكو دي أسيس كان معروفًا بـ Pater Comunitatis أي «والد المجتمع» عندما أسس الرهبنة الفرنسيسكانية. واسم پاكو هو اختصار لأول حرفين من الكلمتين اللاتينيتين.

الغاب الكبيرة[1] في البحيرة، التي كانت تغني بسعادة بينما هي حرة، وعندما يدخلونها في قفص تُفضِّل أن تموت قبل أن تُحبس.

كانت كل مقارناته تدعمها طيور ألبوفيرا. الإناث! طاعون سيئ! هن أكثر المخلوقات جحودًا ونسيانًا في الخليقة. لم يكن هناك أكثر من رؤية بط البحيرة البري. يعود دائمًا في صحبة الأنثى، ولا يعرف الذهاب من دونها ولا البحث عن الطعام. يُطلق القناص النار، إذا سقطت الأنثى ميتة، بدل أن يهرب الذكر المسكين، يطير ويطير حول المكان الذي ماتت فيه رفيقته، حتى إن الرامي ينتهي منه هو أيضًا. لكن إذا سقط الذكر المسكين، تستمر الأنثى في الطيران بأعصابٍ هادئة، دون أن تلف رأسها، كما لو أن شيئًا لم يحدث، وعندما تلاحظ غياب الرفيق تبحث عن آخر... يا إلهي! هكذا تكون كل الإناث، اللاتي تحملن الريش مثلهن مثل اللاتي ترتدين التنانير.

كان تونِت يقضي الليل وهو يلعب الورق في الحانة ويتشوق لأن يأتي يوم الأحد ليظل هناك طوال اليوم. كانت تعجبه حياة الجمود، والإبريق في متناول يده، وهو يدير أوراق اللعب القذرة على الغطاء الذي كان يغطي الطاولة الصغيرة ويسجل بالحصى الصغير وحبات الذرة، التي كانت تمثل قيمة الرهانات. من المؤسف أنه لم يكن ثريًّا مثل كانيامِل حيث تناسبه دائمًا حياة السيد! كان يغضب عندما يفكر أنه سيضطر في اليوم التالي أن يُرهق نفسه في القارب، وكان يتزايد شغفه

(١) هازجة الغاب الكبيرة: نوع من العصافير، يعيش دائمًا في نباتات القصب وفي المناطق التي بها المياه كالمزارع .

بالكسل، حتى أن كانيامِل لم يعد يبحث عنه من أجل العمل الليلي عندما رأى ملامح وجهه الغاضبة وهو يحمل الرزم وكيف كان يتنازع مع زملائه في العمل لكي يتجنب الإرهاق.

كان يُظهر النشاط ويتخلص من غفوة كسله فقط أمام التسلية القادمة. في عيد پالمار الكبير على شرف الطفل يسوع، ثالث أيام عيد الميلاد، كان تونِت يتميز من بين جميع فتيان البحيرة. عندما كانت الموسيقى تصل من كاتارّوخا في العشية في قارب كبير، كان الشباب يلقون بأنفسهم في ماء القناة، وهم يتصارعون من أجل مَن يتقدم أكثر ويأخذ الطبلة. كان شرفًا يجعل الشخص يتبختر بفخر أمام الفتيات، ويمسك بالآلة الموسيقية الضخمة ويحملها على ظهره، وهو يتنزه بها عبر القرية. كان تونِت يدخل حتى يصل الماء البارد مثل الثلج السائل إلى صدره، كان يقاتل باللكمات ليكون في صدارة من هم أكثر جرأة ويتشبث بجانب القارب، فيجعل الصندوق الضخم ملكه.

لاحقًا، في الأيام الثلاثة للعيد، كانت تحدث التسليات العاصفة، والتي كانت تنتهي في كثير من الأحيان بالضرب بالعصا. الرقص في الساحة على ضوء المشاعل الصمغية، حيث أجبر نِلِتا، التي كانت خطيبته، على البقاء جالسة، بينما هو كان يرقص مع أخريات أقل جمالًا، لكن أفضل ملبسًا، وليالي أغاني الفجر؛ وهي أغاني الغزل الخاصة بالشباب الذين كانوا يذهبون من باب إلى باب حتى الفجر وهم يغنون الأغاني الشعبية، ترافقهم قِربة النبيذ ليستعيدوا قواهم بينما يصاحبون

كل أغنية بوابل من صيحات الفرح وأخرى بالطلقات. لكن بعد هذه المدة القصيرة، يعود تونِت ليشعر بالملل في عمله، دون أفق آخر غير البحيرة. في بعض الأحيان كان يهرب، محتقرًا غضب والده، وينزل في ميناء كاتارّوخا، متجولًا في مدن البر، حيث كان لديه أصدقاء من موسم الحصاد. في مراتٍ أخرى كان يسلك طريق سالِر، ويصل إلى بلنسية بغرض أن يبقى في المدينة، حتى يدفعه الجوع من جديد إلى كوخ والده. كان يرى عن قرب حياة أولئك الذين يعيشون دون عمل وكان يمقت حظه السيئ، الذي كان يجعله مثل البرمائيات في بلد القصب والوحل، حيث يضطر الشخص، منذ صغره، إلى حبس نفسه في القارب الصغير، التابوت الأبدي الذي من دونه لا يستطع التحرك. كان الجوع إلى الملذات يستيقظ داخله، غاضبًا ومسيطرًا. كان يلعب في الحانة حتى يطرده كانيامِل في منتصف الليل، فقد كان يجرب كل السوائل التي تُشرب في ألبوفيرا، حتى الأفسنتين[1] النقي الذي كان يحضره القناصون من المدينة لخلطه مع ماء البحيرة كريه الرائحة، وأكثر من ليلة، عندما كان يستلقي على سريره المتواضع في الكوخ الخشبي، كانت عينا والده تتبعه بتعبيرٍ صارم، حيث يلاحظ خطوته غير المستقرة وأنفاسه اللاهثة بالكحول. كان الجد يعترض بكلماتٍ حانقة. جيد أن يعجبه الخمر، في النهاية كانوا يعيشون إلى الأبد فوق الماء، والمراكبي الجيد يجب أن يحافظ على بطنه دافئة... لكن، مشروبات مركبة؟ هكذا بدأ سانجونِرا العجوز!

(١) الأفسنتين: ويُسمَّى شيح ابن سينا، الشيبة أو شجرة مريم... . هو من المشروبات المقطرة والكحولية بنكهة اليانسون.

نسي تونِت كل عواطفه. كان يضرب لابوردا، فيعاملها كبهيمة خاضعة، ولو أنه انتبه إلى نِلِتا، يستقبل كلامها بتوبيخ من نفاد صبره. وإذا أطاع والده كان يطيعه بطريقةٍ مصطنعةٍ جدًّا، بحيث كان الكادح المجتهد يمتقع، وهو يحرك كفيه القويتين كما لو أنه سيمزقه. كان الفتى يحتقر القرية كلها، وهو يرى فيها قطيعًا بائسًا وُلد من الجوع والتعب، كان عليه أن يخرج من بين صفوفه بأي ثمن. كان أولئك الذين يفتخرون بالصيد يجعلونه يبتسم، وهم يُظهرون سلال الأنقليس والتنش الكبيرة. وعندما يمر من أمام منزل القِس كان يعترضه سانجونِرا، الذي يكرس نفسه الآن للقراءة، حيث يقضي ساعات جالسًا على الباب وهو يقرأ كتبًا دينية ويخفي ملمح الوغد بتعبير حزين. أبله! ما الذي سيهمه في تلك الكتب التي كان يعيرها له القساوسة؟

كان يريد أن يعيش، يتمتع مرة واحدة بكل حلاوة الحياة. كان يتخيل مَن كانوا يعيشون على الجانب الآخر من البحيرة، في القرى الغنية أو في المدينة الكبيرة والصاخبة، يسرقون منه جزءًا من سعادته التي كانت حقه بلا منازع. في موسم حصاد الأرز، عندما كان يصل آلاف من الرجال إلى ألبوفيرا من جميع أطراف الإقليم، تجذبهم الأجور الكبيرة التي كان يقدمها المُلاك الذين ينقصهم الأيدي العاملة، كان تونِت يتصالح مؤقتًا مع الحياة في تلك الزاوية من العالم. فقد كان يرى وجوهًا جديدة، يُنشئ صداقات، كان يجد سعادة غريبة في هؤلاء المشردين الذين كانوا يذهبون، مع المنجل في أيديهم وكيس الملابس على ظهورهم، من مكان إلى آخر وهم يعملون بينما كانت الشمس تشرق، ليثملوا عندما يهبط الليل.

كانت تعجبه الحياة المضطربة لهؤلاء الناس وتسليه قصصهم، فهي أكثر إثارة من القصص التي يُهمس بها بالقرب من النار. ذهب بعضهم إلى أمريكا وكانوا يتحدثون عنها، وقد نسوا بؤسهم في البلاد النائية، كما لو أنها الجنة حيث كان الجميع يسبح في الذهب. كان آخرون يروون عن إقامتهم الطويلة في الجزائر البربرية، على حدود الصحراء ذاتها، حيث كانوا يختبئون لوقتٍ طويل بسبب ضربة سكين في قُراهم أو سرقة نسبها إليهم أعداؤهم. وكان تونِت، عندما يسمعهم، يتصور أنه أدرك في رياح ألبوفيرا العفنة الرائحة الغريبة لتلك البلاد الرائعة، وفي سطوع بلاط حافة الحانة ثرواتهم المدهشة. هذه الصداقة مع المشردين كانت تتوطد، لدرجة أنه عند انتهاء الحصاد وجمع أجورهم، كان تونِت يرافقهم في عربدة وحشية عبر كل المدن القريبة من البحيرة، رَكْضٌ مجنون من حانة إلى حانة، أغاني الفجر في الليل أمام بعض النوافذ، شجار عام عندما يشح المال فيبدو النبيذ أكثر لذوعة ويتعارك من كان مجبرًا على الدفع.

اشتهرت واحدة من هذه الرحلات في ألبوفيرا. استغرقت أكثر من أسبوع، وكل هذا الوقت لم يرَ العم توني ابنه في پالمار. عُرف أن عصابة المشاغبين كانت مثل حيوان مفترس طليق من جهة ريبِرا، أنهم ضربوا حارسًا في سويانا وشج رأس اثنين من العصابة أثناء شجار في حانة في سويكا. كان الحرس المدني في متناول حملات المجانين هذه. ذات ليلة حذروا العم توني من أن ابنه ظهر في منزل كانيامِل بملابس متسخة موحلة، كما لو أنه سقط في ترعة، ولا يزال يلمع في عينيه سُكر الأيام

السبعة. ذهب العامل المكفهر هناك، صامتًا كالعادة، مع زمجرة خفيفة كانت تحرك شفتيه كما لو كانتا ملتصقتين ببعضهما. كان ابنه يشرب وسط الحانة بعطش ثمل، محاطًا بجمهور متيقظ، يضحكه وهو يقص الحماقات التي أُرتكبت في حملة التسلية هذه.

بصفعة واحدة، كسر العم تونى الوعاء الذي كان يحمله إلى فمه، وقد مال رأسه فوق كتفه. انكمش تونِت لبضع لحظات، فقد صُعق من الضربة ورؤية والده أمامه، لكن بعدها، لمع في عينيه ضوء غامض وغير نقي يبعث على الخوف، وألقى بنفسه على والده، وهو يصرخ: لا أحد يضربه دون أن ينال جزاءه، ولا حتى والده نفسه.

لكن لم يكن من السهل التمرد على ذلك الرجل قوي البنية الجاد والصامت، حازم مثل الواجب، حيث كان يحمل بين ذراعيه طاقة أكثر من ثلاثين عامًا من المعركة المستمرة مع البؤس. دون أن يفتح فمه أخضع الوحش الصغير، الذي كان يحاول عضه، بصفعة جعلته يترنح، وبدفعه من إحدى قدميه، في الوقت نفسه تقريبًا، أرسله إلى الحائط، فجعله يقع منبطحًا على طاولة اللاعبين الصغيرة.

وثب الناس فوق الأب، خوفًا من أن يضرب جميع الحاضرين في الحانة بسبب غضبه كأنه رياضي صامت. عندما عاد لهدوئه وأفلتوا العم تونى لم يكن ابنه هناك. كان قد هرب وهو رافعٌ ذراعيه في موقف يائس... لقد ضُرب! هو، كم كان خائفًا جدًّا! وفي حضور كل پالمار! مرت بضعة أيام دون أنباء عن تونِت. شيئًا فشيئًا علم الناس الذين كانوا يذهبون إلى سوق بلنسية أنه في معسكر مونتي- أوليبِتِ، وقريبًا جدًّا

سيبحر إلى كوبا. كان قد تطوع في الجيش. عندما هرب يائسًا نحو المدينة، توقف في الحانات القريبة من المعسكر حيث كان مكتب تجنيد للألترامار[1]، أقنعه الناس المحتشدون هناك، المتطوعون والمجندون الماكرون الذين كانوا في انتظار الإبحار، بمثل هذا القرار.

أراد العم توني من اللحظة الأولى أن يعترض. لم يبلغ الفتى العشرين عامًا بعد، لقد ارتكب أمرًا غير قانوني. بالإضافة إلى أنه، ابنه، هو الابن الوحيد. لكن الجد جعله يكف بقسوته المعتادة. كان أفضل ما فعله حفيده. لقد انحرف: دعه حتى يطوف العالم ويعاني! سوف يعتنون بتقويمه! وإذا مات، نقص مشرد، ففي النهاية، عاجلًا أو آجلًا، لا بد أن يموت الجميع. رحل الفتى دون اعتراض. كانت لابوردا، وقد فرت من الكوخ، الوحيدة التي تواجدت في مونتِ-أوليبِتِ وودعته باكية، ثم سلمته كل ملابسه والنقود التي استطاعت الاستيلاء عليها دون علم العم توني. بالنسبة لنِلِتا ولا كلمة: كان يبدو أن خطيبها قد نسيها.

مر عامان دون أن يرسل الفتى أي إشارة تدل على أنه حيّ. ذات يوم وصلت رسالة إلى الأب، معنونة بعبارات مؤثرة، عن عاطفة زائفة، يطلب فيها تونِت الغفران، متحدثًا بعد ذلك عن حياته الجديدة. كان حارسًا مدنيًّا في جوانتانامو ولم يمر بوقتٍ سيئ. كان يُلاحظ في أسلوبه بعض الاتزان المتعجرف، مثل الرجل الذي كان يطوف بالحقول

(١) ألترامار: عُرفت أيضًا بحرب الاستقلال الكوبية. ودارت بين الإمبراطورية الإسبانية والثوار الكوبيين الذين انضمت إليهم الولايات المتحدة الأمريكية لاحقًا. وقد بدأت في عام ١٨٩٥ وانتهت عام ١٨٩٨.

والسلاح على كتفه فيلقي في النفوس الخوف والاحترام. كانت صحته رائعة. لم يُصب بأي مرضٍ خفيفٍ حتى منذ وصل. مَن كانوا مِن ألبوفيرا تحملوا مناخ الجزيرة بشكلٍ جيد. من كان ينشأ في ذلك الهَور، وهو يشرب من مياهه الموحلة، يستطيع الذهاب إلى كل الأماكن بلا خوف: كان يتأقلم. بدأت الحرب لاحقًا. في الكوخ الخشبي للعم تونى كانت لابوردا ترتجف، وهي تبكي في أحد الأركان عندما تصل إلى پالمار أخبار غامضة عن المعارك التي كانت تجري هناك بعيدًا. كان في القرية امرأتان في حداد. غادر الفتيان عندما دخلا الصف الخامس، بين بكاء يائس، كما لو أن عائلاتيهما لن يرياهما ثانيةً. لكن كانت رسائل تونِت مطمئنة وتوحي بكثير من الثقة. الآن أصبح عريفًا في خيالة حرب العصابات وبدا أنه مسرور بحياته. كان يصف نفسه، بدقة كبيرة، يرتدي الرايادِيو[1]، مع قبعة كبيرة من القش، حذاء ذا رقبة من جلد لامع، والمنجل يخبط فخذه، والبندقية القصيرة ماوزر تتقاطع على ظهره وجعبته الممتلئة بالخراطيش. لم يكن يهتم، كانت تلك الحياة له: راتب جيد، والكثير من الحركة والحرية الكبيرة التي يوفرها الخطر. «هيا أيتها الحرب!»، كان يقول بسعادة في رسائله. وكان الجندي المتبجح يكشف عن نفسه من مسافة بعيدة، راضيًا عن وظيفته، مسرورًا بمعاناته من التعب، الجوع والعطش، مقابل التحرر من العمل

(١) رايادِيو: عبارة عن نسيج قطني مخطط باللونين الأزرق والأبيض يستخدم في صنع الزي العسكري الذي يرتديه الجنود الاستعماريون الإسبان من منتصف القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين.

الرتيب التافه، العيش خارج قوانين الأوقات العادية، القتل دون خوف من العقاب واعتبار كل ما تراه ملكك، فارضًا إرادته في ظل متطلبات الحرب القاسية. كانت نِلِتا تكتشف من وقت لآخر مغامرات خطيبها. ماتت والدتها. كانت تعيش الآن في كوخ إحدى خالاتها، ولكسب العيش عملت كخادمة في منزل كانيامِل في الأيام التي كان يصل فيها زبائن غير عاديين حيث كان يوجد الكثير من البابِيّا. كانت تحضر إلى كوخ عائلة پالوما لتسأل لابوردا إذا كان هناك رسالة، وكانت تستمع إلى قراءتها مغمضة العينين، تضغط على شفتيها كأنها تركز انتباهها أكثر. كان يبدو أن عاطفتها تجاه تونِت قد هدأت منذ ذلك الهروب، الذي لم يتذكر فيه خطيبته بأدنى ذكرى. لمعت عيناها وابتسمت وهي تهمس «شكرا!» عندما ذكرها رجل العصابة حيث أرسل لها تحياته، لكنها لم تُظهر أي شوق لعودة الفتى، ولا تحمست عندما بنى قصورًا في الهواء، وهو يؤكد أنه سيعود إلى پالمار بشرائط ضابط. كانت تشغل بال نِلِتا أمورٌ أخرى. فقد أصبحت الفتاة الأكثر جمالًا في ألبوفيرا. كانت صغيرة، لكن شعرها، الأشقر الفاتح، نما كثيفًا حتى إنه شكل خوذة فوق رأسها من هذا الذهب القديم الذي زال لونه بمرور الوقت. كان جلدها أبيض له نقاء شفاف، تشقه الأوردة، جلد لم يكن له مثيل أبدًا بين نساء پالمار، بشرتها المتقشرة وذات الانعكاس المعدني كانت تُظهر تشابهًا بعيدًا مع سمكة التنش في الهَور. كانت عيناها صغيرتين، لونهما أخضر ضارب إلى البياض، تلمعان مثل نقطتين من الأفسنتين الذي كان يشربه صيادو بلنسية.

باتت تتردد على منزل كانيامِل أكثر. لم تعد تقدم المساعدة في الظروف الاستثنائية. كانت تقضي اليوم كله في الحانة، تنظفها، وتبيع الكؤوس خلف المنضدة، تراقب الموقد حيث كانت المقالي تفور، وعند هبوط الليل كانت تسير بتباهٍ نحو كوخ خالتها، برفقتها، وقد لفتت انتباه الجميع، حتى استعلم جيدًا أقارب كانيامِل المعادون، الذين بدأوا يتهامسون إذا كانت نِلِتا قد رأت شروق الشمس بجانب سيدها.

لم يستطع كانيامِل الاستغناء عنها. فلم يكن الأرمل- الذي كان يعيش حتى ذلك الحين في هدوء مع خادمتيه العجوزتين، محتقرًا النساء علنًا- قادرًا على مقاومة لمسة تلك المخلوقة الخبيثة التي كانت تخدشه بلطفٍ ناعم. كان كانيامِل المسكين يشعر بالإثارة بسبب العينين الخضراوين لتلك القطة الصغيرة، التي بمجرد أن تراه هادئًا كانت تحاول أن تفقده هدوءه بتصادمات بارعة تُظهر محاسنها الخفية. كانت كلماتها ونظراتها تثير عفة سنوات عِدة في صاحب الحانة الناضج. كان الزبائن يرون أحيانًا خدوشًا على وجهه، أحيانًا أخرى كدمة بالقرب من عينه، وكانوا يضحكون أمام الأعذار التي كان يشرحها صاحب الحانة بارتباك. عرفت الفتاة كيف تدافع عن نفسها ضد نوبات كانيامِل التي لا تقاوم! كانت تثيره بعينيها لتهدئه بأظافرها! في بعض الأحيان، كان الأثاث في الغرف الداخلية للحانة يتدحرج بصخب، وتهتز الجدران الفاصلة مع الدفعات الغاضبة، وكان الشاربون يضحكون بخبثٍ... يحاول كانيامِل مداعبة قطته! بالتأكيد سيخرج إلى المنضدة بخدشة جديدة! لا بد لهذا الصراع من نهاية. كانت نِلِتا حازمة جدًّا في عدم

استسلامها لذلك الرجل الأكرش، الذي كان يرتجف أمام تهديداتها بعدم العودة إلى الحانة مرة أخرى. تأثرت پالمار بأسرها من خبر زواج كانيامِل بالرغم من أنه كان حدثًا متوقعًا. كانت أخت زوجة العريس تذهب من باب إلى باب تطلق العنان للإهانات. كانت النساء تشكلن تجمعات أمام الأكواخ... المنافقة! كيف استطاعت أن تسيطر عليه وتصطاد أغنى رجل في ألبوفيرا! لا أحد كان يتذكر خطوبتها القديمة مع تونِت. مرت ست سنوات منذ رحيله، ونادرًا ما يعود أحد من هناك حيث كان هو. عندما استولت نِلِتا على تلك الحانة بصفتها المالكة الشرعية، كان يمر بها جميع الناس ويأتي إليها المحتاجون يتوسلون الربا من كانيامِل، لم تتباهَ ولا أرادت الانتقام من الثرثارات اللاتي كن يسبونها في زمن العبودية. كانت تعامل الجميع بعطفٍ، لكنها وضعت منضدة الشرب بينها وبين الزوار، لتجنب رفع الكُلفة.

لم تعد إلى كوخ عائلة پالوما. كانت تتحدث مع لابوردا كأنها تتحدث مع أختٍ عندما كانت الأخيرة تذهب لشراء شيء. كانت تقدم للعم پالوما النبيذ في كأسٍ أكبر، محاولةً نسيان ديونه الصغيرة. كان العم تونِت يتردد قليلًا على الحانة، لكن نِلِتا، كانت عندما تراه، تحييه بتعبير من الاحترام، كما لو أن ذلك الرجل الصامت شارد الذهن كان بالنسبة لها أبًا لا يريد معرفتها، لكنه كان يبجلها سرًّا. كانت هذه العواطف الوحيدة من الماضي التي تعيش داخلها. كانت تُدير متجرها كما لو أنها لم تفعل شيئًا آخر في حياتها، تسيطر على الشاربين بكلمة، كان ذراعاها البيضاوين، اللتان كانت تشمرهما دائمًا، يبدوان أنهما يجذبان الناس من كل شواطئ

ألبوفيرا، كانت أمور الحانة تسير بشكلٍ جيد، وكانت تظهر هي كل يوم أكثر نضارة، أكثر جمالًا، أكثر تكبرًا، كما لو أنها أدخلت في جسدها كل ثروات زوجها، والتي كان يُحكى عنها في البحيرة بدهشةٍ وحسدٍ.

على العكس، كان يبدو على كانيامِل بعض التدهور بعد زواجه. بدا أن صحة ونضارة زوجته سُلبتا منه هو. عندما رأى نفسه غنيًّا وسيد أفضل فتاة من ألبوفيرا، اعتقد أن اللحظة قد حانت ليمرض لأول مرة في حياته. لم تكن الأوقات جيدة للتهريب، فالضباط الشباب وعديمو الخبرة المسؤولون عن حراسة الساحل لم يكونوا يعترفون بالأعمال، وبما أن نِلِتا كانت قد فهمت الحانة بشكلٍ أفضل من كانيامِل، فإن الأخير، الذي لم يعرف ماذا يفعل، كرس نفسه للمرض، وهو أمر ممتع للرجل الثري، على حد قول العم پالوما.

كان العجوز يعلم أفضل من أي شخص آخر أين كانت وعكة صاحب الحانة، وكان يتحدث عنها بتعبير خبيث. لقد استيقظ داخله الوحش المحب، فقد كان نائمًا طوال سنوات لم يشعر فيها بعاطفةٍ أخرى غير عاطفة الربح. كانت نِلِتا تمارس عليه نفس التأثير الذي مارسته عندما كانت خادمته. كانت لمعة النقطتين الخضراوين لعينيها، ابتسامة، كلمة، احتكاك ذراعيهما عندما يملآن الكؤوس على منضدة الشرب يكفيان ليفقد هدوءه. لكن الآن لم يعد كانيامِل يتلقى خدوشًا، ولا كان الزبائن يفضحونه عندما يترك منضدة الشرب... وعلى هذا الحال مر الوقت، وكانيامِل يشتكي من أمراض غريبة، فبمجرد أن تؤلمه رأسه حتى تؤلمه معدته، سمين ومترهل، مع زيادة في السمنة كانت

تُنبئ بهُزال عضوه، ونِلِتا في كل مرة أكثر قوة، كما لو أن حياة صاحبة الحانة تذوب وتسقط عليها مثل المطر الخصب. كان العم پالوما يعلق على هذا الموقف بجدية هزلية. ستتكاثر ذرية آل كانيامِل كثيرًا، بحيث ستملأ پالمار بأسرها. لكن مرت أربع سنوات دون أن تصبح نِلِتا أمًّا، برغم رغبتها الشديدة. كان تتمنى ابنًا لتعزز موقفها، فقد استمالت قلبه بمهارة، ولتضرب أقارب المرحومة على أفواههم، كما كانت هي تقول. كل ستة أشهر كان يُشاع في القرية خبر حملها، وكانت النساء، عندما تدخلن الحانة، تتفحصنها باهتمام، معترفات بأهمية هذا الحدث في صراع صاحبة الحانة مع عدواتها. لكن الأمل كان يتحطم دائمًا.

كانت النميمة الأكثر فظاعة والتي تغذت على نِلِتا هي أنها من الممكن أن تكون أمًّا. كانت العدوات تفكرن بخبثٍ في أي مالك أراضي أرز من الذين كانوا يأتون من قرى ريبِرا ويرتاحون في الحانة، في كل قناص من بلنسية، ملازم أول شرطة التهريب، الذي كان يأتي بعض المرات، عندما يمل من وحدته في تورّي نويبا، لربط حصانه في شجرة زيتون أمام منزل كانيامِل بعد أن يجتاز وحل القنوات، في جميعهم، ما عدا في صاحب الحانة المريض الذي كان أكثر ما يسيطر عليه هو ذلك الغضب النهم الذي بدا أنه كان يستنفده. كانت نِلِتا تبتسم أمام هذه النميمة. لم تكن تحب زوجها، كانت متأكدة من ذلك، كانت تشعر بميل أكبر نحو الكثير ممن كانوا يزورون الحانة، لكن كان لديها حكمة الأنثى الأنانية والرزينة التي تتزوج من أجل المنفعة ولا ترغب في المساومة على هدوئها بالخيانة.

ذات يوم شاع خبر وجود ابن العم توني في بلنسية. لقد انتهت الحرب. كانت تنزل الكتائب، من دون سلاح، مع مظهر حزين لقطعان مريضة، في الموانئ. كانوا أطياف جوع، أشباح حمى، لونهم أصفر مثل هذه الشموع التي تكون في مراسم الجنازات، مع إرادة للعيش تلمع في أعينهم الغائرة مثل نجمة في عمق البئر. كان الجميع يسيرون إلى منازلهم، غير قادرين على العمل، موجهين للموت في حضن عائلاتهم، التي أرسلت رجلًا واستقبلت ظلًّا.

استُقبل تونِت في پالمار بفضول وحماس. كان الوحيد من القرية الذي عاد من هناك. وكيف عاد! هزيلًا بسبب بؤس الأيام الأخيرة من الحرب، فقد كان من أولئك الذين عانوا من حصار سانتياجو. لكن بصرف النظر عن هذا، كان يُظهر القوة، وأُعجب رفاقه القدامى بجسده اليابس والممشوق، الوضعيات القتالية التي كان يتخذها بالقرب من شجرة الزيتون المتهالكة التي كانت تُزين الساحة، هندمة شاربه، الزينة الرجولية التي لم يكن يستخدمها في پالمار كلها غير عريف شرطة التهريب فقط، مُظهرًا مجموعة كبيرة من قبعات القش، المتاع الوحيد الذي أحضره من الحرب. في الليل كانت حانة كانيامِل تمتلئ لسماع قصصه عن الأمور هناك. كان قد نسي تبجحه بحرب العصابات، عندما كان يضرب المشتبه فيهم السلميين ويدخل الأكواخ وفى يده مسدس. كانت جميع قصصه الآن عن الأمريكيين، اليانكيز الذين كان يراهم في سانتياجو، بعض الأشخاص طوال القامة للغاية، أقوياء جدًّا، كانوا يأكلون الكثير من اللحم ويضعون القبعات الصغيرة. كان ينتهي هنا

وصفهم. كانت القامة الضخمة للأعداء هي الانطباع الوحيد الذي بقي حيًّا في ذاكرته. وفى صمت الحانة كانت تدوي قهقهات الجميع عندما كان يحكي تونِت عن أحد هؤلاء الأشخاص، والذي رآه مغطى بالخِرق، فأهداه بنطالًا قبل أن يُبحر، لكنه كبير جدًّا، كبير جدًّا! حيث كان يلفه مثل شراع. كانت نِلِتا، خلف منضدة الشرب، تسمعه وهي تحدق فيه. كانت عيناها بلا تعبير، كانت النقطتان الخضراوان تفتقدان إلى الضوء، لكنهما لم تبتعدا للحظة عن تونِت، كما لو أنهما تطمعان في الاحتفاظ بتلك الهيئة الحربية المختلفة جدًّا عن باقي الهيئات الأخرى التي تحيط بها والتي لم تكن تتذكر الصبي الذي كان خطيبها قبل عشرة أعوام. كان كانيامِل، متأثرًا بالوطنية ومتحمسًا بسبب الجمهور الغفير غير العادي الذي كان يجذبه تونِت إلى الحانة، يصافح يد الجندي، ويقدم له الكؤوس ويسأله حول الأمور في كوبا، متعرفًا على التغييرات التي حدثت منذ الزمن البعيد الذي كان فيه هناك.

كان تونِت يذهب إلى كل مكان مرافقًا لسانجونِرا، حيث كان يعجب بصحبته منذ الطفولة. لم يعد خادم كنيسة. كان قد أهمل الكتب التي أعارها له القساوسة. فقد استيقظ داخله ولع والده بحياة التجول والنبيذ، وطرده الراهب من الكنيسة، حيث تعب من الحماقات المضحكة التي كان يرتكبها وهو يساعده في القداس وهو في سُكر تام. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن سانجونِرا راضيًا، كما أكد بجدية، وسط ضحكات الجميع، عن أمور الكهنة. شاخ في عِز شبابه من سكره المستمر، مكسورًا وقذرًا، كان يعيش بالصدفة مثلما عاش في طفولته،

ينام في كوخه، الأسوأ من زريبة الخنازير، يظهر في كل الأماكن التي كان يُشرب فيها بهيئة الناسك الهزيلة، التي كانت تُمثل بالكاد خط ظل على الأرض.

وفى حماية تونِت كان يجد الهدايا، وكان هو أول من طلب في الحانة أن يحكي عن الأمور هناك، حيث كان يعرف أن بعد القصة تصل الكؤوس.

كان العائد إلى الوطن راضيًا عن حياة الراحة والإعجاب هذه. بدت له پالمار الآن مكانًا بهيجًا، متذكرًا الليالي التي قضاها في الخندق بمعدته التي كانت تعاني من الجوع والرحلة المجهدة في السفينة التي كانت تحمل اللحم المريض، وتنشر في البحر الجثث.

بعد شهر من هذه الحياة الرغدة، تحدث معه والده في ليلة في صمت الكوخ. ماذا يقترح أن يفعل؟ الآن أصبح رجلًا ويجب عليه أن يُنهي المغامرات، ويفكر بجدية في المستقبل. كان لديه بعض الخطط، كان يتمنى أن يقوم بها بمشاركة ابنه، وريثه الوحيد. لا يزال بإمكانهما تكوين ثروة صغيرة من خلال العمل بلا كلل، وإصرار الرجال الشرفاء. كانت قد انتهت سيدة من المدينة- السيدة نفسها التي أجَّرت له أراضي سالِر، والتي استمال قلبها بصراحته وجهده في العمل- إلى إهدائه قطعة أرض كبيرة بالقرب من البحيرة: أرض مغلقة تساوي الكثير من الهانيجادا[1].

(١) هانيجادا: هو مقياس زراعي للأرض يتغير تمامًا حسب المنطقة، فمثلًا في بلنسية يساوي ٨٣١ مترًا مربعًا.

لم يكن هناك غير عائق واحد لبدء الزراعة، وهو أن العطية كانت مغطاة بالماء وكان يجب إعادة ملء الحقول بالكثير من القوارب المحملة بالتراب، لكن الكثير منها!

كان عليهما إنفاق المال أو العمل لحسابهما الشخصي. لكن اللعنة! يجب ألا ييأسا، هكذا تكونت كل أراضي ألبوفيرا. كانت ممتلكات اليوم الوافرة قبل خمسين عامًا بحيرة، ويمكن لرجلين يتمتعان بالصحة، والحيوية ولا يكفان عن العمل تحقيق معجزات عظيمة. كان هذا أفضل من الصيد في أماكن سيئة أو العمل في أراضي الغير.

أغوت تونِت حداثة المشروع. لو اقترحوا عليه زراعة أفضل وأقدم الحقول المجاورة لبالمار، ربما كان سيعبس، لكن كان يعجبه القتال مع البحيرة، تحويل ما كان ماءً إلى أرض صالحة للفِلاحة، زراعة المحاصيل حيث كان يتجول الأنقليس بين الأعشاب المائية. علاوة على ذلك، أثناء استهتار تفكيره، كان يرى النتائج فقط، دون التركيز على العمل. سيصبحون أثرياء ويمكنه تأجير الأراضي، ويعيش حياة التنبل، كان هذا طموحه.

ارتمى الأب والابن على العمل، تساعدهما لابوردا، المتحمسة دائمًا لكل ما يمنح الرخاء إلى المنزل. لم يكن يوجد ما يُحكى مع الجد. وضعه المشروع في المزاج نفسه الذي كان عليه عندما كرس ابنه نفسه لزراعة الأرض في المرة الأولى. آخرون أرادوا تقليص ألبوفيرا وتحويل الماء إلى حقول! وأولئك الذين كانوا يرتكبون هذا الاعتداء من عائلته! لصوص! استسلم تونِت للعمل بحماس وقتي لكائنات لها إرادة

ضعيفة. كانت أمنيته ملء تلك الزاوية من البحيرة دفعة واحدة حيث كان والده يبحث عن الثروة. قبل الفجر، كان تونِت ولابوردا يذهبان في قاربين صغيرين للبحث عن تراب، لحمله لاحقًا، في رحلة لأكثر من ساعة، إلى المساحة الكبيرة من الماء الراكد الذي كانت ترسم حدوده المنحدرات الطينية. كان العمل مجهدًا، ساحقًا، مهمة نمل. فقط كان العم تواني، بجرأة العامل الذي لا يكل، يستطيع القيام بها دون مساعدة إلا من عائلته وذراعيه.

كانا يذهبان إلى القنوات الكبيرة التي كانت تصب في ألبوفيرا، إلى موانئ كاتارّوخا وسالِر. مع مذراة عريضة كانت تسحب من القاع أقراصًا كبيرة من الوحل، قطعًا من الخُث[1] الجيلاتيني، التي كانت تنشر رائحة لا تطاق. كانا ينتهيان إلى تجفيف هذه القطع الصغيرة من قاع التُّرع على الضفاف، وعندما كانت الشمس تحولها إلى كتل بيضاء، يحملانها في القاربين الصغيرين، اللذين كانا يربطانهما ببعضهما، فيشكلان مركبًا واحدًا. يبحران ويبحران، وبعد ساعة من العمل المتواصل، كانا يحملان إلى الأرض المغلقة كومة التراب التي تجمعت بشكلٍ شاق، وابتلعتها البركة دون نتيجة واضحة، كما لو أن الحمولة تحللت دون أن تترك أثرًا. كان الصيادون يرون الأسرة المثابرة تمر كل يوم مرتين أو ثلاثة مرات وهي تنزلق مثل ذبابة الماء فوق سطح البحيرة المصقول.

(١) الخُث: هي نباتات متفحمة توجد بالأراضي التي يكثر ماؤها في المناطق المعتدلة، وتتركب من نباتات المستنقعات القصبية كالغاب والبوص.

تعب تونِت سريعًا من مهمة حفّار القبور هذه. لم تصل قوة إرادته إلى هذا الحد، بعد إغواء اللحظة الأولى، رأى رتابة العمل وحَسَب برعب الأشهر وحتى الأعوام المتبقية لينجح في العمل. كان يفكر في تكلفة اقتلاع كل كومة من التربة، وارتجف من الإثارة عندما رأى كيف أصبحت المياه غائمة عندما تلقت الحمولة، وبعد ذلك، وعندما تروق، كان تظهر الأرض كما هي دائمًا، عميقة دائمًا، من دون أدنى حدبة، كما لو أن كل التربة تهرب من خلال حفرة خفية. بدأ لا يذهب إلى العمل. كان يتظاهر بانتكاسات الأمراض التي اكتسبها من الحرب ليبقى في الكوخ الخشبي، وبمجرد رحيل والده ولابوردا، كان يركض للبحث عن الزاوية الرطبة في منزل كانيامِل حيث لا ينقصه رفقاء مطلقًا من أجل لعبة الورق ويكون الإبريق في متناول يده. كان يعمل، على الأكثر، يومين في الأسبوع. كان العم پالوما، مع كراهيته لحفاري القبور الذين كانوا يُقطِّعون البحيرة إربًا، يحتفل بالضحكات لكسل حفيده. ها، ها! كان ابنه مغفلًا لثقته في تونِت. فهو يعرف الفتى جيدًا. لقد وُلد بعظمة عوجاء والتي كانت تمنعه من الانحناء في العمل. ولأنه أصبح جنديًّا قاسيًا، ولم يكن هناك أمل في العلاج، كان يعرف الدواء الوحيد: كسرها بضربات العصا!

لكنه تقبل كسل تونِت- فقد كان مسرورًا في قرارة نفسه لرؤية ابنه وهو يعاني الصعوبات في المشروع- حتى أنه كان يبتسم عندما يراه في منزل كانيامِل.

وبدأت النميمة في القرية عن مواظبة تونِت على زيارة الحانة. كان يجلس دائمًا أمام منضدة الشرب، وكانت نِلِتا وهو يحدقان في بعضهما. كانت صاحبة الحانة تتحدث مع تونِت أقل من الزبائن الآخرين، لكن في لحظات البيع القليلة، عندما تجلس أمام البراميل للقيام ببعض الأعمال، كانت ترفع عينيها في كل مرة فتتجهان غريزيًّا نحو الشاب. ولاحظ الزبائن أيضًا أن الكوبي، عندما كان يترك ورق اللعب، يبحث بنظره عن نِلِتا. كانت أخت زوجة كانيامِل القديمة تتحدث عن هذا من بيت إلى بيت. كانا على علاقة غرامية، لم يكن الأمر يحتاج لأكثر من رؤيتهما! حسنًا سيبدآن في خداع صاحب الحانة المعتوه! سيأكلان فيما بينهما الثروة التي جنتها أختها المسكينة! وعندما كان يتحدث الأقل سذاجة عن استحالة اقترابهما من بعضهما، في حانة مليئة دائمًا بالناس، كانت المرأة الشريرة تحتج. سيقيمان علاقة غرامية خارج المنزل. كانت نِلِتا قادرة على كل شيء، وهو عدو العمل، قد اتخذ مكانه في الحانة، وهو على يقين من أنهم سيرحبون هناك.

كان كانيامِل، متجاهلًا هذه النميمة، يتعامل مع تونِت كصديقه المفضل. كان يلعب معه الورق ويتشاجر مع زوجته لو أنها لم تدعه. لا شيء كان يُقرأ في نظرة نِلِتا، في العينين اللتين كان لهما تألق غريب، الساخرة قليلًا، حيث كانت ترحب بهذا التوبيخ بينما كانت تقدم كأسًا لخطيبها القديم.

وصلت هذه النميمة التي راجت في پالمار حتى العم توني، وذات ليلة، صرح بهذا لابنه خارج الكوخ، حدثه بحزن رجل متعب يقاتل بلا فائدة ضد مصيبة.

لم يكن تونِت يريد مساعدته، لقد رأى ذلك جيدًا. كان كسولًا مثلما كان من قبل، وُلد ليقضي حياته في الحانة. الآن أصبح رجلًا، ذهب إلى الحرب، ولم يمنع ذلك والده من الرغبة في فرض السيطرة عليه، مثلما حدث فيما مضى. ألا تريد أن تعمل؟ حسنًا، سيكمل هو العمل بمفرده تمامًا على أمل دائمًا أن يترك قطعة من الخبز عندما يموت لناكر الجميل الذي تخلى عنه، – على الرغم من أنه يجب أن يموت مثل كلب.

لكن ما لم يكن يستطيع رؤيته بهدوء هو قضاء ابنه أيامًا في منزل كانيامِل أمام خطيبته القديمة. كان يستطيع الذهاب إذا أراد إلى حانات أخرى، إلى جميعها عدا تلك.

اعترض تونِت بحدة عندما سمع هذا. أكاذيب، كل ذلك أكاذيب! افتراءات من لاساماروكا، تلك البهيمة الخبيثة، أخت زوجة كانيامِل، التي تكره نِلِتا ولا تتوقف عن النميمة! وكان تونِت يقول هذا بنبرة قوة كانت خلفيتها الحقيقة، مؤكدًا بذكرى والدته أنه لم يلمس إصبع نِلِتا ولا قال لها أقل كلمة تُذكّرها بخطبتهما السابقة.

ابتسم العم توني بحزن. كان يصدقه، ولم يشك في كلامه. بل أكثر: كان لديه قناعة أن كل النميمة حتى الآن كانت افتراءات. لكنه كان يعرف الحياة. الآن هي نظرات فقط، وغدًا سينجذبان إلى التلامس المستمر، سيقعان في الخزي نتيجة هذه اللعبة الخطيرة. كانت نِلِتا تبدو له دائمًا ضعيفة، ولن تكون الشخص الذي يعطي مثالًا للحكمة. بعد ذلك، اتخذ العامل المتحمس لهجة أكثر صدقًا، ولطفًا، حتى إنها أثارت إعجاب تونِت.

كان عليه التفكير في أنه ابن رجل صادق، حظه سيئ في عمله، لكن لا يُلام أحد على حظ سيئ في كل ألبوفيرا.

كان لنِلِتا زوج، ومن يبحث عن امرأة تخص غيره ربط الخيانة بالخطيئة. إضافةً إلى هذا، كان كانيامِل صديقه، يقضيان اليوم معًا، يلعبان ويشربان مثل رفيقين. وخداع رجل في هذه الحالة هو جبن، يستحق مقابلها رصاصة في الرأس. أصبحت نبرة الأب مهيبة.

كانت نِلِتا ثرية، وابنه فقيرًا، ويمكن أن يعتقدوا أنه يطاردها كوسيلة للبقاء دون عمل. كان هذا ما أغضبه، وحول حزنه إلى سخط.

يرى ابنه ميتًا، ولا أن يخجل من هذا العار. تونِت! يا بني! كان عليه أن يفكر في العائلة، في عائلة پالوما، القدامى مثل پالمار: عرق من العمال سيئ الحظ بقدر ما هم جيدون، غارقون في الديون بسبب سوء الحظ، لكنهم غير قادرين على الخيانة. كانوا أبناء البحيرة، هادئين في بؤسهم، وعندما يشرعون في الرحلة الأخيرة، عندما يدعوهم الرب، يمكن أن يصلوا مبحرين حتى حافة عرشه، ويُظهِرون للرب- لعدم وجود مزايا أخرى لديهم- أيديهم المغطاة بالجلد المتصلب مثل البهائم، ولكن روحهم طاهرة من كل جريمة.

* * *

- ٤ -

كان الأحد الثاني من شهر يوليو بالنسبة إلى پالمار هو اليوم الأكثر أهمية في العام.

كانوا يقترعون على مواقع الصيد، أماكن صيد السمك في ألبوفيرا وقنواتها بين جيران پالمار، احتفال مهيب وتقليد يترأسه مندوب أثييندا، سيدة غامضة لم يرها أحد، لكن يُحكى عنها باحترام خرافي، بصفتها صاحبة البحيرة وغابة الصنوبر التي لا نهاية لها في دِئِسا[1]. في السابعة، جعل ناقوس الكنيسة جميع القرية تُسرع إلى القداس. كانت الاحتفالات بالطفل يسوع بعد عيد الميلاد مهيبة، لكنها لم تكن أكثر من متعة خالصة، بينما في احتفال القرعة كان يُقامَر بشكلٍ عشوائي بقوت العام وحتى بفرصة الثراء إذا كان صيد السمك وفيرًا.

لذلك كان قداس هذا الأحد هو القداس الذي يُنصت له بمزيد من الورع. كانت النساء لا تضطررن إلى الذهاب للبحث عن أزواجهن،

(١) أثييندا (**Hacienda**) هي وزارة المالية.. ولكن الكاتب هنا يتحدث عنها على لسان شخصيات الرواية وكأنها امرأة تُدعى أثييندا، لإظهار ما كان يعتقده عامة الناس الأميين والذين يفتقرون إلى الثقافة.

وهن يدفعونهم بعنف لإنجاز التعاليم الدينية. كان جميع الصيادين في الكنيسة شاردي الذهن، يفكرون في البحيرة أكثر من القداس، وكانوا يرون بخيالهم ألبوفيرا وقنواتها، ويختارون أفضل الأماكن في حال حباهم الحظ بالأرقام الأولى.

لم تكن الكنيسة، الصغيرة، التي كانت حوائطها بيضاء ونوافذها عالية ذات ستائر خضراء، تتسع لجميع المخلصين. كان الباب مفتوحًا على مصراعيه، وكان الجمهور ينتشر في الساحة برؤوسهم المكشوفة تحت شمس يوليو. وعلى المذبح كان يظهر الطفل يسوع، شفيع القرية، بوجهه الصغير المبتسم وتنورته الوثيرة، صورة لا تعلو لأكثر من شبر، لكن على الرغم من صغرها، كانت تعرف كيف تملأ، في الليالي العاصفة، قوارب أولئك الذين حصلوا على أفضل الأماكن بالأنقليس، مع معجزات أخرى لا تقل روعة كانت تحكيها نساء پالمار.

كانت تبرز على الحوائط على خلفية بيضاء بعض اللوحات الآتية من أديرة قديمة: طاولات ضخمة عليها سُلاميات[1] حمراء لملعونين، كما لو أنها كانت مطبوخة للتو، وملائكة مزينة بريش أنثى الببغاء تضربهم بسيوف لامعة. وفوق جُرن الماء المقدس، يوجد ملصق به شخصيات قوطية كانت تصلي هكذا:

إذا بقانون الحب

لا يجوز ارتكاب جريمة،

(١) سُلاميات: عظم اليد والقدم.

ممنوع البصق

في بيت الرب.

لم يكن هناك أحد في پالمار لم يكن معجبًا بهذه الأبيات، التي كانت، وفقًا لما قاله العم پالوما، عملًا لأحد القساوسة وقتما كان المراكبي شابًّا. كان جميعهم يتدربون على قراءتها، ويتهجونها خلال القداسات الكثيرة التي حضروها كمسيحيين صالحين. ومع أن الشعر حظي بإعجابهم، لكنهم لم يتقبلوا النصيحة، وكان الصيادون، دون احترام «لقانون الحب»، يسعلون ويبصقون ببحتهم المزمنة لمن يعيش بجانب الماء، فانقلب الطقس الديني إلى سعال مستمر يلطخ الأرضية فعادت نظرة المسؤول الساخطة.

لم يكن في پالمار مطلقًا قِس مثل الأب ميجيل. قيل إنه أُرسل إلى هناك كعقاب، لكن بدا أنه تعامل مع سوء حظه بشكلٍ جيد. صياد لا يكل، بمجرد أن ينتهي من قداسه كان ينتعل حذاء من الحَلْفاء، ويعتمر قبعته الجلدية، وكان يتبعه كلبه، سيصعد إلى دِئِسا أو يجعل قاربه الصغير يجري عبر القصب السميك ليُطلق النار على دجاج الماء. كان يقول إنه عليه مساعدة نفسه قليلًا في وضعه البائس. كان راتبه خمسة ريالات في اليوم، كان محكومًا عليه بالموت جوعًا، مثل أسلافه، لولا البندقية التي كان يتغاضى عنها حراس الغابة، والتي كانت تمد مائدته باللحوم كل يوم. أُعجبت النساء بطاقته الذكورية القوية، وهن يرَين كيف كان تقريبًا يوجههن بقبضتيه. كان الرجال يرحبون بالبساطة التي كان يتعامل بها مع مهام منصبه. لقد كان راهب بندقية. عندما اضطر رئيس البلدية إلى

قضاء الليل في بلنسية، ترك سلطته في يد دون ميجيل، الذي استدعى، وهو راضٍ عن التغيير، عريف شرطة التهريب البحري.

– أنا وحضرتك المسؤولان الوحيدان في القرية. فلنسهر عليها.

وكانا يخرجان طوال الليل، مع الكارَبين المتدلية من كتفهما، يدخلان الحانات لإرسال الناس للنوم، ويتوقفان عند بيت القِس عدة مرات لشرب كأس من قصب السكر، حتى ظهور النهار، وكان دون ميجيل، تاركًا السلاح وزي التهريب، يدخل إلى الكنيسة ليقيم القداس للصيادين. وفى أيام الآحاد، أثناء تأدية العمل المقدس، كان ينظر من طرف عينه إلى المؤمنين، ويُبصر أولئك الذين يبصقون بإصرار، الثرثارات اللاتي تتجاذبن أطراف الحديث وهن يهمسن عن جارتهن، الصِّبية الذين يتزاحمون بالقرب من الباب، وعندما يستدير، وينتصب جسده الرشيق ليبارك الجميع، كان ينظر بهذه الأعين إلى الآثمين، الذين كانوا ينتفضون وهم يخمنون تهديدات الأب ميجيل التالية. كان هو الذي طرد سانجونِرا المخمور، عندما أمسك به للمرة الثالثة أو الرابعة حاملًا زجاجة النبيذ من الخزانة. في بيته كان الراهب هو من يشرب فقط. كان يصاحبه عنف طباعه في جميع وظائفه المقدسة، وفي كثير من الأحيان، في وسط القداس، عندما كان يلاحظ أن خليفة سانجونِرا يُخطئ في عمله أو بطيء في نقل الإنجيل من مكانٍ إلى آخر، كان يركله من تحت قميصه المطرز وهو ينقر بلسانه كما لو أنه ينادي كلبه.

كانت أخلاقه بسيطة: تستقر في المعدة. عندما كان يبرر التائبون أخطاءهم في الاعتراف، كانت الكفارة دائمًا واحدة. ما كان عليهم فعله

هو الأكل أكثر! فلهذا السبب نال منهم الشيطان عندما رآهم نحيفين للغاية وشاحبين. كان يقول: «لقمات طيبة وذنوب أقل». وإذا أجاب أحدهم زاعمًا بؤسه، كان الراهب يغضب، متلفظًا بكلمات بذيئة. عجبًا! فقراء ويعيشون في ألبوفيرا أفضل زاوية في العالم؟ كان هو هناك مع ريالاته الخمس، وكان يقضي وقته أفضل من البطريرك. لقد أرسلوه إلى پالمار، معتقدين أنه سيصبح أكثر قداسة، ولكنه يستبدل مركزه هذا فقط من أجل المنصب الكنسي في بلنسية. لماذا خلق الرب ديوك الغاب في دِئِسا، والتي تطير في سرب مثل الذباب، الأرانب بأعداد كبيرة مثل الأعشاب، وكل تلك الطيور في البحيرة، فلم يكن على المرء سوى تحريك القصب لجعلها تطير بالدزينة؟ هل ينتظرون أن يسقط اللحم مقطعًا ومملحًا في قدورهم؟ ما يجب أن يكون لديهم هو المزيد من حب العمل والخوف من الله. لم يكن على الجميع اصطياد الأنقليس، وقضاء ساعات في القارب مثل النساء، وأكل اللحم الأبيض الذي تفوح منه رائحة الوحل. هكذا كانوا متعفنين وخطاة، كانوا مقرفين. تبًّا! الرجل الحقيقي، يجب عليه كسب طعامه مثله... بإطلاق النار!

بعد عيد الفصح، عندما أفرغت پالمار جعبتها من الذنوب في الاعتراف، كانت الطلقات النارية متكررة في دِئِسا والبحيرة، وكان الحراس يذهبون كالمجانين من مكان إلى آخر، دون أن يتمكنوا من تخمين سبب هذا الجنون المفاجئ للصيد. انتهى القداس، وانتشر الحشد في جميع أنحاء الساحة الصغيرة. لم تعد النساء إلى أكواخهن لتحضير قِدر الظهيرة. كانوا يمكثون مع الرجال أمام المدرسة، حيث كان يتم إجراء

السحب: أفضل مبنى في پالمار، المبنى الوحيد المكون من طابقين، منزل صغير به قسم للأولاد في الطابق السفلي وقسم بالطابق العلوى للبنات. كان الاحتفال يُقام في الطابق العلوي، ومن خلال النوافذ المفتوحة يمكن للمرء أن يرى المأمور القضائي، يساعده سانجونِرا، يرتب طاولة لها كرسي رئاسي للسيد القادم من بلنسية ومقاعد المدرستين للصيادين الأعضاء في الجمعية. كان عجائز القرية يجتمعون بالقرب من شجرة الزيتون الملتوية ذات الأوراق القليلة، الزينة الوحيدة في الساحة. كانت هذه الشجرة القديمة الخَرِعة، التي أُقتُلعت من الجبال لتضعف في تربة موحلة، نقطة التقاء القرية، المكان الذي كانت تحدث فيه جميع أحداث حياتهم المدنية. تحت فروعها كانت تُعقد صفقات الصيد، وتبادل القوارب وبيع الأنقليس لتجار التجزئة في المدينة. عندما كان أحدٌ يجد في ماء ألبوفيرا مصيدة متروكة، مُرديًّا طافيًا أو أي أداة صيد أخرى، كان يتركها عند حافة شجرة الزيتون، ويصطف الناس أمامها، حتى يتعرف مالكها على العلامة الخاصة التي كان كل صياد يضعها على أدواته. تحدث الجميع عن القرعة المرتقبة بعاطفة مرتجفة لمن يعهد بمستقبله إلى الصدفة. في غضون ساعة سيتقرر لكل شخص بؤس عام أو وفرته. تحدثوا في التجمعات عن أول ستة أماكن، أفضل ستة مواقع لصيد السمك، والتي يمكن وحدها أن تجعل الصياد ثريًّا، وتوافقها مع الأسماء الستة الأولى التي خرجت من الحقيبة. كانت مواقع سِكيوتا، أو تلك المجاورة لها، المسار الذي كان يتبعه الأنقليس في الليالي العاصفة، هاربًا نحو البحر، ليجد شباك مَن فازوا في أوراق السحب، حيث يظل مسجونًا.

ذُكر أن بعض الصيادين المحظوظين بشكلٍ غامضٍ، أصحاب مواقع في سِكيوتا، في ليلةٍ عاصفةٍ، عندما كانت ألبوفيرا الصاخبة تتلوى في أمواج كشفت وحل القاع، كانوا يأخذون ستمائة أروبا[1] من صيد السمك. ستمائة أروبا، لريالين! لمعت أعينهم بنار الجشع، لكن الجميع كان يتحدث بهمسٍ، مكررين بشكلٍ غامضٍ أرقام الصيد، خائفين من أن يسمعهم شخصٌ ليس من پالمار، حيث تعَلَّم كل واحد من صغره التضامن الشديد فيقول إنه قد تم اصطياد القليل، حتى لا تكلفهم أثيبندا (تلك السيدة المجهولة الشرهة) بضرائب جديدة. كان العم پالوما يتحدث عن أوقات ماضية، عندما لم تتكاثر الناس مثل أرانب دِئِسا وكان يدخل في القرعة سبعون صيادًا فقط، الوحيدون الذين كانوا يشكلون الجمعية. كم عددهم الآن؟ في قرعة العام السابق، ظهر أكثر من مائة وخمسين. إذا استمر عدد السكان في النمو، فسيكون الصيادون أكثر من الأنقليس، وستفقد پالمار امتيازها في أوراق السحب، والذي كان يمنحها تفوقًا معينًا على الصيادين الآخرين في البحيرة.

ذِكر هؤلاء «الآخرين»، صيادي كاتارّوخا، الذين كانوا يشاركون مَن كان مِن پالمار الاستمتاع بألبوفيرا، جعل العم پالوما متوترًا. كان يكرههم بقدر كرهه للمزارعين الذين كانوا يقضمون المياه لخلق حقول جديدة. وبحسب ما قاله المراكبي، فإن هؤلاء الصيادين الذين كانوا يعيشون بعيدًا عن البحيرة، في ضواحي كاتارّوخا، يختلطون مع المزارعين ويعملون في الأرض عندما تُدفع أجور جيدة، لم يكونوا

(١) أروبا: وحدة وزن قديمة تعادل ١١,٥ كيلو جرام.

أكثر من صيادين عرضيين، أشخاص يأتون إلى المياه وقد دفعهم الجوع والحاجة إلى أمور أكثر إنتاجية للقيام بها. كان العم پالوما يغيظه فخر هؤلاء الأعداء الذين اعتبروا أنفسهم أول المستوطنين في ألبوفيرا. ووفقًا لهم، فإنهم كانوا في كاتارّوخا أقدم الصيادين، فهؤلاء الذين منحهم الملك العظيم دون خايمي، بعد غزو بلنسية، الامتياز الأول لاستغلال البحيرة، مع عبء تسليم خُمس الصيد إلى التاج. وتساءل المراكبي العجوز بسخرية:

– إذن من كانوا صيادي پالمار؟

وسخط عندما تذكر ما أجاب به صيادو كاتارّوخا. كانت پالمار تحمل هذا الاسم لأنها كانت جزيرة صغيرة بعيدة لحدٍّ ما مغطاة بقلوب النخيل. في قرونٍ أخرى، كان الناس ينزلون من تورِنتي ومدن أخرى يكرسون أنفسهم لتجارة المقشات، واستقروا في الجزيرة، وبعد أن تزودوا بقلوب النخيل طوال العام، كانوا يبحرون عائدين. شيئًا فشيئًا بقيت بعض العائلات. تحول بائعو المقشات إلى صيادين، حيث رأوا أن هذا يجني أرباحًا أكبر، ويجعلهم أكثر فطنةً وتمرسًا في حياتهم الرحالة ليتقدم عالمهم، فاخترعوا الشيء الخاص بأوراق السحب، وحصلوا على امتياز الملوك وألحقوا الضرر بمَن كانوا مِن كاتارّوخا، الناس البسطاء الذين لم يغادروا ألبوفيرا قط...

كان يظهر سخط العم پالوما عندما يردد آراء الأعداء. أولئك مَن هم مِن پالمار، أفضل صيادي البحيرة، نسل بعض بائعي المقشات والقادمين من تورِنتي وأماكن أخرى، حيث لم يسبق أن تربى الأنقليس! يا إلهي!

لأفكارٍ أبسط من ذلك كان يُقتل الرجال على أي ضفة بشوكة الصيد. كان يعلم جيدًا، بل كان متأكدًا أن كل هذا كذب. عندما كان شابًّا، تم تعيينه ذات مرة في لجنة تحكيم الجمعية، وحمل إلى منزله كنز القرية، أرشيف الصيادين، درج مليء بالكتب الضخمة، المراسيم، الامتيازات الملكية ودفاتر الحسابات، والذي كان ينتقل من هيئة محكمين إلى أخرى في كل موعد جديد، ومن كوخٍ إلى آخر لقرون، وكان دائمًا تحت الفِراش، كما لو أن أعداء بالمار يمكن أن يسرقوه. لم يكن المراكبي العجوز يعرف القراءة. في وقته لم يكن أحد يفكر في هذه الأمور، كان من الأفضل أن يأكل. لكن في الليل فك أحد القساوسة، وكان صديقًا له، رموز محتوى الخربشة الرفيعة التي كانت تملأ الصفحات الصفراء، وكان يتذكرها بسهولة. أولًا امتياز القديس خايمي المجيد، الذي قتل المغاربة، حيث كان المراكبي- باحترامه للملك الفاتح الذي أهدى البحيرة للصيادين- يصدق قليلًا في كرامة الملك وأراده قديسًا. فيما بعد جاءت امتيازات دون بِدرو ودونا بيولانتِ، ودون مارتين ودون فرناندو، وجميع الملوك وبعض خدام الرب المباركين الذين كانوا يتذكرون الفقراء، ومن له الحق في قطع جذوع الأشجار في دِئِسا لثقب الشِّباك، ومن له امتياز الاستفادة من لحاء الصنوبر لصبغ خيط النسيج، كان الجميع يهدي شيئًا للصيادين. كان ذلك فيما مضى، حيث كان الملوك، الأشخاص المتميزون، أيديهم مقدمة دائمًا للفقراء، راضين بخُمس الصيد، ليس كما هو الحال الآن، حيث تأخذ أثيبندا واختراعات الرجال الآخرين نصف أروبا من الفضة كل ثلاثة أشهر للسماح لهم

بالعيش في بحيرة تخص أجدادهم. وعندما أخبره أحدهم أن الخُمس يمثل أكثر بكثير من نصف الأروبا الفضية الشهيرة، حك العم پالوما رأسه تحت قبعته دون حسم. حسنًا: لقد وافق على أنها أكثر، لكنها لم تكن تُدفع بالمال فشعر أنها أقل. بعد ذلك عاد إلى هوسه ضد باقي سكان البحيرة. كان صحيحًا أنه في البداية لم يكن يوجد صيادون آخرون في ألبوفيرا غير أولئك الذين كانوا يعيشون في ظل برج الجرس في كاتارّوخا. في تلك الأوقات لم يكن من الممكن إقامة حياة بالقرب من البحر. ربما كان القراصنة البربريون يظهرون على الشاطئ، يسرقون كل شيء، وكان على الأشخاص الصادقين والدؤوبين أن يحتموا في القرى حتى لا يُزيَّن عنقهم بسلسلة. لكن شيئًا فشيئًا، في أوقات أكثر أمنًا، كان ينتقل الصيادون الحقيقيون، الأنقياء -الذين كانوا يفرون من العمل في الأراضي كما لو كان تنازلًا مخزيًا- إلى پالمار، وهكذا تجنبوا رحلة لمدة ساعتين كل يوم قبل بسط الشباك. كانوا يحبون البحيرة لذلك بقوا فيها. لا أحد من بائعي المكانس! كان أولئك مَن هم مِن پالمار قدماء مثل الآخرين. كان قد سمع من جده عدة مرات أن العائلة أتت من كاتارّوخا، ولا بد من وجود أقارب له هناك، لم يكن يريد أن يعرف شيئًا عنهم. والدليل على أنهم كانوا الأقدم والصيادين الأكثر مهارة هو اختراع أوراق السحب: أعجوبة لم يتمكن من هم مِن كاتارّوخا التفكير بها. هؤلاء البؤساء كانوا يصطادون بالشباك والصنانير، في معظم الأيام كان عليهم وضع صليب على بطونهم، ومهما كانت الظروف مواتية فإنهم لم يكونوا أكثر من فقراء. لقد درس أهل پالمار، بفطنتهم، عادات

الأنقليس. كان خلال الليل يقترب من البحر، وفى الظلام العاصف يلعب مثل المجانين، تاركًا البحيرة ليدخل في القنوات، فوجدوا أنه من المريح إغلاق التُّرع بموانع من الشباك المغمورة، ووضع أكياس من شباك المصيدة، وكان الصيد ينطلي عليه الخداع، دون أن يقوم الصياد بعمل شيء أكثر من أن يُفرغ آلاته ويغمرها مرةً أخرى.

ويا له من تنظيم رائع خاص بجمعية پالمار! كان العم پالوما متحمسًا وهو يتحدث عن هذا العمل الذي قام به القدماء. كانت البحيرة للصيادين. كان كل شيء يخص كل الناس، ليس كما هو الحال في البر، حيث اخترع الرجال قذارة توزيع الأرض، ووضعوا حدودًا وحواجز، ويقولون بفخر: «هذا لك وهذا لي»، كما لو كان كل شيء ليس من عند الرب، وكما لو كان عند الموت يمكن أن يمتلك المرء غيطان أخرى غير تلك التي يتحدث عنها باهتمام إلى الأبد. ألبوفيرا لجميع أبناء پالمار، من دون تمييز طبقي، مثلما هو الحال بالنسبة للأشخاص الكسالى الذين كانوا يمضون النهار في منزل كانيامِل، وبالنسبة للعمدة، الذي أرسل الأنقليس بعيدًا، بعيدًا، وكان ثريًّا مثل صاحب الحانة تقريبًا. ولكن عندما قُسِّمت البحيرة بين الجميع، كانت بعض المواقع أفضل من غيرها، فتم إنشاء السحب السنوي، ونُقلت القطع الجيدة من يد إلى أخرى. من كان بائسًا اليوم يمكن أن يكون غنيًّا غدًا: لقد أمر الرب بذلك، مستخدمًا الحظ. من يتحدث عن كونه فقيرًا، كان فقيرًا، ولكن مع نافذة مفتوحة لدخول ثروة إذا شعر بالطموح. هناك كان هو، الأكبر سنًّا في پالمار، وكان يفكر في أن يبلغ

القرن لو لم يقف الشيطان في طريقه. لقد اشترك في أكثر من ثمانين قرعة: ذات مرة حصل على المركز الخامس، وأخرى على المركز الرابع، لم يحصل أبدًا على الأول، لكنه لم يكن يشكو، فقد كان يعيش دون معاناة من الجوع ولا كان يدفأ على حساب جاره، مثل أهل المدن الداخلية. بالإضافة إلى ذلك، كانت هيئة التحكيم، في نهاية فصل الشتاء، عندما كانت أوراق السحب تنتهي من مواقع الصيد الكبير، تأمر بعمل سحب يشارك فيه جميع الصيادين من الجمعية، ويضمون معهم شباكهم وقواربهم وأذرعهم. وهذا المشروع المشترك للقرية بأكملها كان يجتاح قاع البحيرة مع نسيجها العملاق من الشباك، وكان نتاج الصيد الضخم يُوزع على الجميع بالتساوي. هذه هي الطريقة التي يجب أن يعيش بها الإنسان، كإخوة، حتى لا يصبحوا وحوشًا. وانتهى العم پالوما بقوله إنه لسببٍ ما، عندما جاء الرب إلى العالم، كان يعظ في البحيرات التي كانت، إلى حدٍّ ما، مثل ألبوفيرا، ولم يحط نفسه بمزارعي الحقول، بل بصيادي التنش والأنقليس.

كان الحشد يزداد في الساحة. كان العمدة، مع نوابه والمأمور القضائي، في القناة في انتظار القارب الذي سيحضر ممثل أثييندا من بلنسية. كان الأشخاص من البلاد المجاورة يصلون لتُخصص القرعة في حضورهم. كان الناس يفسحون الطريق لملازم أول شرطة التهريب، الذي جاء من عزلته في تورِّ نويبا، بين دِئِسا والبحر، باستعجال على حصانه الملطخ بوحل التُّرع. ظهرت هيئة التحكيم وتبعها شاب كان يحمل على ظهره صندوق أرشيف الجمعية، وكان الأب ميجيل، القِس

العنيف، ومعطفه على كتفيه وقلنسوته المائلة، ينتقل من مجموعة إلى أخرى ليؤكد أن الحظ سيُولي ظهره للصيادين.

كان كانيامِل، الذي لم يكن ابن القرية وليس لديه الحق في المشاركة في القرعة، مهتمًّا مثل الصيادين. لم يفوِّت ذلك الحفل قط. كان يجد هناك عمل العام كله الذي يعوضه عن تراجع التهريب. دائمًا ما يكون من حصل على المركز الأول رجلًا فقيرًا، ليس لديه أي ممتلكات سوى قارب صغير وبعض الشباك. وليستثمر سِكيوتا كان بحاجة إلى آلات كبيرة، وعدة زوارق، وبحارة مدفوعة الأجر، وعندما كان الرجل البائس، المذهول من حظه السعيد، لا يعرف كيف يبدأ، كان يقترب منه كانيامِل مثل ملاك جيد. كان يمتلك الأغراض اللازمة: كان يعرض قواربه، آلاف البيزيتات من الخيوط الجديدة التي كانت مطلوبة للحواجز الكبيرة التي كان لا بد منها لإغلاق القناة والأموال اللازمة لدفع الأجور. كل شيء كان من قبيل مساعدة صديق، بسبب المودة التي ألهمه بها الرابح، ولكن بما أن الصداقة شيء والعمل شيء آخر، فسيكون راضيًا إن ساعده في مقابل نصف السمك. وبهذه الطريقة، كانت القرعات دائمًا لصالح كانيامِل، الذي كان ينتظر النتيجة بفارغ الصبر، متمنيًا بأن الأماكن الأولى لا تذهب إلى سكان پالمار الذين لديهم بعض الثروة.

كانت نِلِتا أيضًا تحضر إلى الساحة، منجذبة لهذا الحدث، الذي كان أحد أفضل الاحتفالات في القرية. كانت ترتدي فستان يوم الأحد، وتبدو كآنسة من بلنسية، وكانت لاساماروكا، عدوتها الشرسة، تسخر داخل حلقة مع الناس العدائية من عقيصتها العالية، وثوبها الوردي،

وحزامها ذي الإبزيم الفضي ورائحة «المرأة السيئة»، التي فضحت بالمار بأكملها، مما جعل الرجال يفقدون أعصابهم. كانت الشقراء الرشيقة، منذ أن أصبحت ثرية، تعطر نفسها بقوة، كما لو أنها أرادت عزل نفسها عن رائحة الوحل التي كانت تُغلِّف البحيرة. كانت تغسل وجهها قليلًا، مثل كل نساء الجزيرة، لم تكن بشرتها نظيفة تمامًا، بل عليها دائمًا طبقة من العفرة، وفى كل خطوة كان ينبعث من ملابسها عطر غاضب من المسك، مما جعل زبائن الحانة يوسعون أنوفهم بغبطة لطيفة.

كان هناك ضجة كبيرة في الحشد. لقد كان هناك بالفعل! كانت المراسم على وشك أن تبدأ! ومر العمدة أمام الحشد مع عصاته ذات الشراشيب السوداء، وجميع أتباعه ومبعوث أثيينديا، وهو موظف فقير كان ينظر إليه الصيادون بإعجاب -وهم يتخيلون بِحيرة قوته الهائلة على ألبوفيرا- وفى الوقت نفسه بكراهية. هذا المتأنق هو الذي كان يبتلع نصف أروبا من الفضة.

صعد الجميع ببطء على درج المدرسة الضيق، والذي لا يمكن أن يحمل سوى شخص واحد. وقام زوجان من رجال شرطة التهريب، وبندقيتهما في أيديهما، بحراسة الباب لمنع دخول النساء والأطفال، مما كان يعرقل مداولات الاجتماع. من وقت لآخر، حاول فضول الصغار استباحتهما، لكن رجلي الشرطة كانا يُظهران أعقاب بندقيتهما ويتحدثان عن ضرب الصِّبية، الذين كانت صرخاتهم تزعج جدية الحدث.

وفوق كان التجمع كبيرًا، حتى أن الصيادين لم يجدوا مكانًا على المقاعد واكتظوا في الشرفات. وارتدى البعض، الأكبر سنًّا، القبعات الحمراء التي كان يستخدمها سكان ألبوفيرا القدامى، آخرون غطوا رؤوسهم بمنديل الفلاحين طويل الذيل أو بقبعات النخيل. كانوا جميعًا يرتدون ألوانًا فاتحة، مع أحذية من الحلفاء أو حفاة، ومن هذا الحشد المتعرق والمزدحم نشأت الرائحة الأبدية الكريهة والباردة للبرمائيات التي كبُرت في الوحل.

على منصة المُعلم كانت الطاولة الرئاسية. في الوسط، يُملي مبعوث الخزانة على كاتبه عنوان الحدث، وإلى جانبه الراهب، والعمدة، والقيّم، والملازم أول، وضيوف آخرون، من بينهم طبيب پالمار، وهو منبوذ عِلم مسكين، كان يبحر ثلاث مرات في الأسبوع مقابل خمسة ريالات ليعالج دفعةً واحدةً الفقراء المصابين بحمى الغِب.

نهضت هيئة التحكيم من مقاعدها. كانت أمامها كتب حسابات الجمعية، بهيروغليفية رائعة، والتي لم يُقيد حرف واحد فيها، حيث تُمثَّل المدفوعات بأرقام من جميع الأنواع. هذه هي الطريقة التي اخترعها المحكمون القدامى، الذين لم يكونوا يعرفون الكتابة، وهكذا استمرت. كانت تحتوي كل ورقة على حساب صياد. لا أحد يدون اسمه في الصدارة، بل العلامة التي كان يضعها كل واحد على قاربه وشباكه للتعرف عليها. كان أحدها صليبًا، والآخر مقصًّا، والآخر منقار طائر الغُرة، وكان العم پالوما هلالًا، وهكذا كانت تفهم هيئة التحكيم، فكان عليهم فقط النظر إلى الهيروغليفية ليقولوا: «هذا هو حساب فلان». وبعد

ذلك، في باقي الصفحة، توجد خطوط ومزيد من الخطوط، كل واحدة تشير إلى دفع ضريبة شهر. كان أصحاب المراكب العجائز يشيدون بهذا النظام المحاسبي. فبهذه الطريقة يمكن لأي شخص التحقق من الحسابات، ولم تكن هناك حيل مثل تلك الموجودة في كتب الأرقام الضخمة والكتابة المحكمة التي لا يفهمها سوى السادة.

القيِّم، شاب فطن حليق الرأس له عينان وقحتان، سعل وبصق عدة مرات قبل أن يتحدث. ألقى الضيوف، الذين تولوا الرئاسة، أجسادهم إلى الخلف وبدأوا يتحدثون فيما بينهم. سيتعاملون مع شؤون الجمعية أولًا، والتي لم يكونوا يستطيعون التدخل فيها. كانت أمورًا يجب تنظيمها بين الصيادين. بدأ القيِّم خطابه الطويل: «أيها السادة...!». وقد تجول بنظرته المستبدة بين الزحام، وفرض الصمت. في الأسفل، في الساحة، كان الأولاد يصرخون مثل الملعونين وارتفعت ثرثرة النساء مع ضجة مزعجة. نادى العمدة المأمور القضائي، الذي قفز بين الحشد ليتابع القيِّم خطابه.

أيها السادة، الأمور واضحة. لقد أقسموا له على تحصيل نصيب كل واحد وتسليم ما يقرب من ١٥٠٠ بيزيتا إلى وزارة المالية كل ثلاثة أشهر، نصف الأروبا الفضية الشهيرة التي كانت تتحدث عنها القرية بأكملها. حسنًا، لا يمكن أن تستمر الأمور على هذا النحو. تأخر الكثير في الدفع، وعلى الصيادين الميسورين تعويض النقص. من أجل تجنب هذا الاضطراب من الآن فصاعدًا، اقترح أن أولئك الذين تأخروا في الدفع يجب ألا يدخلوا السحب. رحب جزء من الجمهور بهذه

الكلمات بهمهمة من الارتياح. كانوا هم من دفعوا، وبما أن العديد من زملائهم قد تم استبعادهم من القرعة، فقد رأوا أن إمكانية الحصول على المراكز الأولى تتزايد. لكن معظم المجتمعين، الأكثر بؤسًا، احتجوا بصوتٍ عالٍ، وقفوا، ولبضع دقائق لم يكن من الممكن سماع صوت القيِّم.

عندما عاد الصمت ورجع الجميع إلى أماكنهم، وقف رجل مريض ذو وجه شاحب وتوهج غير صحي في عينيه. كان يتكلم ببطءٍ، وبصوتٍ خافتٍ، ربما كانت تُقطع كلماته بسبب القشعريرة. كان من الذين لم يدفعوا: ربما لم يُدان أحد بقدره. في السحب السابق، كان لديه أحد آخر الأماكن ولم يكن هناك أسماك حتى لإطعام أسرته. في أحد الأعوام فرد شراعه مرتين ناحية بلنسية وهو يحمل صندوقين أبيضين بأشرطة ذهبية في قاع قاربه الصغير. جعله صغيران جميلان يقترض المال... لكن آه! أقل ما يمكن أن يفعله أب أن يزين صغاره جيدًا عندما يذهبون إلى الأبد! مات له ابنان بسبب سوء الأكل، كما كان يقول الأب ميجيل، الحاضر هناك، وبعد ذلك أُصيب هو بحمى الغِب وهو يعمل، وكان يتحملها بمشقة شهورًا وشهورًا. لم يكن يدفع لأنه لم يكن يستطيع. ولهذا السبب سيحرمونه من حقه في الثروة؟ ألم يكن من مجتمع الصيادين، وكذلك والداه وأجداده؟ كان هناك صمت مؤلم، يمكن سماع بكاء الرجل التعيس فيه، وهو جالس في مقعده ووجهه بين يديه، وكأنه يخجل من اعترافه.

صاح صوتٌ مرتجفٌ بطاقةٍ حركت الجميع:

- لا، عجبًا، لا!

كان العم پالوما، الذي وقف وهو يرتدي قبعته، وعيناه الصغيرتان ملتهبتان من السخط، تحدث على عجل، وهو يخلط في كل كلمة عددًا من السباب والشتائم التي احتفظ بها في ذاكرته. شد رفاقه القدامى وشاحه لكي يلفتوا انتباهه إلى عدم احترامه لسادة المنصة، فأجابهم بمرفقه وتابع. فلم يكن رجل مثله، تعامل مع ملكات وأبطال، يهتم بأمر تلك الدُّمى! كان يتحدث لأنه يستطيع الكلام. يا إلهي! كان هو المراكبي الأكبر سنًّا في ألبوفيرا، وكلماته لا بد أن تُؤخذ على أنها حِكَم. كان يتكلم بلسان آباء وأجداد كل الحاضرين. ألبوفيرا ملك للجميع، أليس كذلك؟ ومن المخجل أن نأخذ الخبز من رجل في حال كان يدفع أو لا لأثييندا. هل كانت هذه السيدة تحتاج إلى بيزيتات الصياد التافهة لتناول العشاء؟ أثار سخط الرجل العجوز حيوية الجمهور. قهقه الكثيرون، متناسين الانطباع المؤلم للحظات السابقة. تذكر العم پالوما أنه كان أيضًا عضوًا في هيئة التحكيم. كان من الجيد أن يكون لديك قبضة قوية على المحتالين الذين يهربون من العمل، لكن بالنسبة للفقراء الذين يقومون بواجبهم، ولأنهم ضحايا البؤس ولا يمكنهم الدفع، كان من الضروري التساهل معهم. تبًّا! وكأن صيادي پالمار كانوا مغاربة! لا، كانوا جميعهم إخوة والبحيرة مِلك للجميع. كانت تلك التقسيمات بين الأغنياء والفقراء على البر، بالنسبة «للمزارعين»، بين السادة والخدم. في ألبوفيرا كان الجميع متساوين: أولئك الذين لم يدفعوا الآن ودفعوا لاحقًا، وأولئك الذين لديهم المزيد للتعويض عن

أخطاء من لا يملكون شيئًا، لأن هذا كان الحال دائمًا... الجميع في القرعة! أعطى تونِت إشارة الصخب وهو يهتف لجده. لم يكن يبدو أن العم توني راضيًا تمامًا عن معتقدات والده، لكن كل الصيادين الفقراء انقضوا على العجوز، مظهرين حماسهم به بجذبات من بلوزته وصفعات حنونة، عنيفة لدرجة أنهم سقطوا على رقبته المجعدة مثل المطر على الخدين.

أغلق القيِّم كتبه بتعبير من خمود الهمة. كان يحدث الأمر نفسه في كل السنوات. مع هؤلاء العجائز الذين كانوا يبدون دائمًا شبابًا، كان من المستحيل تنظيم شؤون الجمعية. وبإيماءة ملل استمع إلى أعذار أولئك الذين لم يدفعوا وكانوا ينهضون لشرح أسباب تأخرهم. كان لديهم مرضى في عائلاتهم، حصلوا على موقع سيئ، غير قادرين على العمل بسبب الحمى اللعينة التي بدت في الليل وكأنها تتجسس من مستنقعات القصب على لحم الرجل الفقير لتغرز مخالبها فيه، كل البؤس، وحياة البحيرة الحزينة وغير الصحية، كانت تتوالى مثل رثاء لا نهاية له.

لوقف هذا العرض اللا متناهي للألم، تم الاتفاق على عدم استبعاد أي شخص من القرعة، ووضعت هيئة التحكيم الحقيبة الجلدية مع أوراق الاقتراع على الطاولة.

- أطلب الكلمة.

صاح صوت بالقرب من الباب. من أراد التحدث عن شكاوى جديدة وساحقة؟ تباعدت المجموعات، واستقبلت قهقهة كبيرة ظهور سانجونِرا، الذي كان يتقدم بجدية، ويفرك عينيه الحمراوين من

السُّكر، ويبذل جهودًا لإظهار وجاهته التي كانت جديرة بالمشاركة في الاجتماع. بعد أن رأى جميع حانات پالمار مهجورة، تسلل إلى المدرسة، وقبل السحب اعتقد أنه من الضروري أن يطلب التحدث.

قال القيِّم بمزاج سيئ، وهو منزعج من تدخل المتشرد الذي جاء لينفد صبره بعد أعذار المُدانين:

– ماذا تريد؟

ماذا كان يريد؟ أراد أن يعرف سبب عدم ورود اسمه في القرعات كل عام. كان يتمتع بنفس الحق في أوراق السحب في ألبوفيرا مثل أي شخص آخر. كان أفقر الجميع. لكن ألم يولد في پالمار؟ ألم يتعمد في رعية سان بالِرو في الرُّصافة؟ ألم يكن من نسل الصيادين؟ إذن كان يجب أن يكون في القرعة.

وبدا أن ادعاء هذا المتشرد، الذي لم يرغب أبدًا في لمس شبكة وفضل أن يسبح في القنوات بدلًا من أن يمسك مُرديًّا، غير مسبوق، ومثيرًا للضحك جدًّا بالنسبة للصيادين، لدرجة أنهم انفجروا جميعًا مقهقهين.

كانت هيئة التحكيم ترد بلا مبالاة. اخرج من هناك، أيها الوغد! هل كانت تهتم الجمعية إذا كان أجداده صيادين نزيهين، أو إذا ترك والده المُردي إلى الأبد، مكرسًا نفسه للكسل، ولم يكن له علاقة بكونه بحارًا سوى أنه ولد في پالمار؟ بالإضافة إلى ذلك، لم يدفع والده الضريبة ولا هو أيضًا، والعلامة التجارية التي كانت تحملها عائلة سانجونِرا على أجهزة الصيد الخاصة بهم مُحيت من كتب الجمعية منذ سنوات كثيرة.

لكن الرجل المخمور أصر أن يطالب بحقوقه وسط ضحكات الجمهور المتزايدة، حتى تدخل العم پالوما بأسئلته... وإذا دخل القرعة في النهاية وحصل على أحد أفضل المراكز، فماذا سيفعل؟ وكيف يستغلها إذا لم يكن صيادًا ولا يعرف المهنة؟ ابتسم المشرد بخبث. كان الشيء المهم هو الحصول على الموقع. والباقي سيتحمله. كان يرتب نفسه حتى يعمل الآخرون معه، مما يمنحه أفضل جزء من المنتج. وفي ابتسامته الساخرة كان يرتج التعبير الشرير للرجل الأول الذي خدع أخاه الإنسان، وجعله يعمل ليبقى في راحة. أغضب اعتراف سانجونِرا الصريح الصيادين. لم يفعل شيئًا أكثر من صياغة أفكار الكثيرين بصوتٍ عالٍ، لكن هؤلاء الناس البسطاء شعروا بالإهانة من تهكم المتشرد واعتقدوا أنهم رأوا فيه تجسيدًا لكل أولئك الذين كانوا يقمعون فقرهم. إلى الخارج! إلى الخارج! تم اقتياده بالدفع والقرص إلى الباب، بينما كان الصيادون الشباب يثيرون الضجة بأقدامهم ويقلدون، من بين ضحكاتهم، شجار الكلاب والقطط.

نهض القِس دون ميجيل ساخطًا، وهو يتقدم بجسد مقاتل، ووجهه محتقن من الغضب. ماذا كان هذا؟ هل سُمح بعدم الاحترام للشخصيات الجادة والمهمة التي كانت تشكل الرئاسة؟ لنرَ ما إذا كان قد نزل من على المنصة وهشم وجه أحد الوقحين!

ولما خيم الصمت على الفور، جلس القِس راضيًا عن قوته، وقال بهدوء للملازم:

– هل ترى؟ لا أحد يفهم هذه الماشية مثلي. عليك أن تُظهر لهم عصا الراعي من وقتٍ لآخر.

ما أعاد الهدوء، أكثر من تهديدات الأب ميجيل، هو رؤية هيئة التحكيم تُسلم إلى الرئيس قائمة صيادي الجمعية للتأكد من أن الجميع كانوا حاضرين. كم عدد الرجال في پالمار الذين كرسوا حياتهم للصيد. كان يكفي أن يكون قد بلغ السن القانونية، حتى لو كان يعيش بالقرب من الأب، ليمثل في قرعة أوراق السحب.

قرأ الرئيس أسماء الصيادين، وأجاب كل واحد منهم «السلام عليكِ يا مريم العذراء!» مع مسحة معينة، لأن القِس حاضر. أجاب بعض أعداء الأب ميجيل « هنا!» مبتهجين بالإيماءة الساخرة التي قام بها القِس. أفرغت لجنة التحكيم كيسًا جلديًّا قذرًا، قديمًا قِدم الجمعية تقريبًا، وتدحرجت أوراق الاقتراع على الطاولة، وبعض البلوط المجوف من الخشب الأسود، الذي تُوضع ورقة في داخله تحمل اسم المقترع.

تم استدعاء الصيادين الواحد تلو الآخر للمنصة لاستلام ورقة اقتراعه وشريط من الورق وُضع عليه الاسم؛ تحسبًا لعدم معرفته الكتابة.

كان مشهدًا لرؤية الاحتياطات التي جعلت الناس الفقراء يستخدمون حيلة ماكرة. بحث الصيادون الأكثر جهلًا عن أولئك الذين يستطيعون القراءة ليعرف إذا كان اسمه هو الذي ظهر على الورق، وبعد مشاورات كثيرة اقتنعوا. علاوة على ذلك، فإن عادة الإشارة دائمًا إلى الألقاب جعلتهم يشعرون بالحيرة. لم يكن يظهر اسم عائلاتهم إلا في يوم كهذا، فترددوا وكأنهم غير متأكدين من أنها تخصهم.

ثم جاءت الاحتياطات الكبيرة. أخفى كل شخص منهم وجهه وحوله إلى الحائط، وعندما أدخل اسمه في البلوطة، كان يُدخل مع الورقة الملفوفة قشة، عود ثقاب من الورق المقوى، شيئًا سيكون بمثابة كلمة مرور حتى لا يغيروا ورقته. كانت ترافقهم الريبة حتى اللحظة التي وضعوها في الكيس. ذلك السيد الذي أتى من بلنسية أيقظ داخلهم عدم الثقة التي دائمًا يوحي بها الموظف العام في سكان الريف. كانت القرعة على وشك البدء. وقف القِس دون ميجيل وخلع قلنسوته، وتبعه الجميع. كان لا بد من تلاوة صلاة السيدة العذراء حسب العادات القديمة؛ فقد كان هذا يجلب الحظ السعيد. ولفترة طويلة تمتم الصيادون، وقبعاتهم في أيديهم وأعينهم منخفضة، الصلاة سرًّا.

صمت مطلق. كان الرئيس يهز الحقيبة الجلدية لخلط أوراق الاقتراع جيدًا، وكان وقع اصطدامها أثناء الصمت مثل البَرَد البعيد. تقدم طفل إلى المنصة، وهو يمر من ذراع إلى ذراع فوق الصيادين، ووضع يده في الكيس الكبير. كان القلق كبيرًا. كانت أعينهم جميعًا مثبتة على البلوط الخشبي، الذي كان يخرج منه الورق الملفوف بشكل صعب. قرأ الرئيس الاسم، وقد لوحظ نوع من الحيرة بين الجمهور المعتاد على الألقاب والأخرق في التعرف على الكُنيات التي لا تُستخدم قط. من هو رقم واحد؟ لكن تونِت قفز وهو يصيح: «حاضر!» كان حفيد العم پالوما! يا لحظ الفتى! حصلت على أفضل موقع في أول سحب تحضره!

كان الأقرب منه يهنئونه بحسد، لكنه كان ينظر فقط إلى الرئيس، بقلق من لا يؤمن بعد بحسن حظه... هل يمكنني اختيار الموقع؟ بمجرد أن أجابوه بإشارة الإيجاب، قدم الطلب: كان يريد سِكيوتا. وعندما رأى أن الكاتب كان يدوِّن الملاحظة، انطلق كالسهم من المقر، وتجاوز الجميع، ودفع الأيدي التي مدها أصدقاؤه لتحيته. في الساحة، كان الحشد ينتظر بهدوء كما في الأعلى. كانت العادة أن ينزل المحظوظون على الفور للتعبير عن حظهم السعيد، وهم يرمون قبعاتهم عاليًا كعلامة على الفرح. لذلك، بمجرد أن رأوا تونِت يتدحرج تقريبًا على السلم، استقبله ترحيب هائل.

- إنه الكوبي! إنه تونِت ذو الشارب! أنت! أنت!

وثبت عليه النساء من شدة التأثر، واحتضنته، وهن يبكين- كما لو أن بإمكانهن لمس شيء من حظه الجيد- ويتذكرن والدته. واحتضنَّ تونِت غريزيًّا- وهو يتقلب في تنانيرهن متحمسًا بسبب الاحتفاء الحنون- نِلِتا التي كانت تبتسم، وعيناها الخضراوان تلمعان بسعادة.

كان الكوبي يريد الاحتفال بنصره. أرسل إلى بيت كانيامِل لطلب صناديق الصودا والبيرة لجميع هؤلاء السيدات. دع الرجال يشربوا كما يريدون، هو سيدفع! في لحظة، تحولت الساحة إلى معسكر. كان سانجونِرا، مع نشاطه الدائم عندما يتعلق الأمر بالشرب، يُؤيد رغبات صديقه الكريم بجلب جميع المعجنات القديمة والصلبة المخزنة في الواجهات الزجاجية لمتجر كانيامِل، وكان ينتقل من حلقة إلى حلقة، حاملًا الكؤوس ومتوقفًا كثيرًا في التوزيع ليمنح الشرف لنفسه.

كان الفائزون بالأماكن الأولى الأخرى ينزلون، ويرمون قبعاتهم عاليًا، وهم يهتفون: *vítol*، "*vítol*!"[1] لكن كان يأتي إليهم عائلاتهم وأصدقاؤهم فقط. كان كل الاهتمام لتونِت، صاحب المركز الأول، الذي كان متفاخرًا للغاية.

كان الصيادون يتركون المدرسة. وقد تم بالفعل طرح حوالى ثلاثين ورقة اقتراع، لم يبق سوى أوراق السحب السيئة، الخاصة بمَن كانوا بالكاد يصطادون ما يكفي من الطعام، وأخلى الناس المبنى، دون الشعور بأي اهتمام بالقرعة. كان العم پالوما ينتقل من مجموعة إلى أخرى لتلقي التهاني. لأول مرة كان راضيًا عن حفيده. هيه، هيه! الحظ دائمًا يذهب إلى الوقحين: كان والده يقول ذلك من قبله. كان هناك، مع قرعاته الثمانين، دون أن يحصل مطلقًا على الموقع الأول، وجاء حفيده الذي كان يطارد الحظ عبر الأراضي البعيدة، ومن أول عام حصل عليه. لكن في النهاية... كان كل شيء يصب في مصلحة الأسرة. وكان متحمسًا لاعتقاده أنه سيكون الصياد الأول في ألبوفيرا لمدة عام.

متأثرًا بالحظ، اقترب من ابنه، رصينًا ومتأملًا كالمعتاد. تونو، الثروة دخلت كوخه، ولا بد من الاستفادة منها! سيساعد الصغير، الذي لم يكن يعلم كثيرًا عن أمور صيد السمك، وسيكون العمل كبيرًا. لكن العجوز صُعق عندما رأى البرود الذي كان يجيب به ابنه. أجل، كان

---

(١) **vítol**: هي صرخة تقليدية تُقال في احتفالات القديسة ماجدالينا، وهو احتفال يُقام في مدينة كاستيون دي لا بلانا ضمن منطقة بلنسية. وكل حرف في هذه الكلمة هو الحرف الأول من كلمة لها ارتباط بالعيد.. (v) تعني **viento** أي الريح، **(i)inmersión** الغمر، **(t) tierra** الأرض، **(o) orgullo** الكبرياء و**(l) lucha** النضال.

ذلك الموقع الأول حظًّا لمن يمتلك الأدوات اللازمة لاستغلاله. كانوا يحتاجون لأكثر من ألف بيزيتا فقط للشباك. هل كانوا يمتلكون هذا المال؟

ابتسم العم پالوما. لن يتخلف أحد عن إقراضهم. لكن توني، عندما سمع حديثه عن الاقتراض، قام بعمل إيماءة ساخرة. كانوا مدينين بالكثير. ليس عذابًا هينًا الذي يعانيه بسبب بعض الفرنسيين المستقرين في كاتارّوخا، والذين كانوا يبيعون الدواب على أقساط ويسلفون المال للمزارعين. كان عليه أن يطلب مساعدتهم، أولًا في سنوات الحصاد السيئ، والآن يدفع قليلًا من أجل دفن بحيرته الشاطئية، كان يرى حتى في أحلامه مثل هؤلاء الرجال، وهم يرتدون القطيفة، يبعثرون التهديدات ويُخرجون في كل خطوة المحفظة الرهيبة التي كانوا يسجلون فيها القروض بشبكة فوائدها المعقدة. لقد اكتفى بالفعل. يجب على الإنسان، عندما يشارك في مغامرة سيئة، أن ينقذ نفسه قدر استطاعته، دون البحث عن أخرى. كانت ديون المزارع كافية بالنسبة له، ولم يكن يريد أن يتورط في قروض صيد جديدة. كانت أمنيته الوحيدة هي إخراج أراضيه على سطح الماء، دون أن يستدين أكثر. أدار المراكبي ظهره لابنه. هل كان من دمه؟ أما الجد پالوما فكان يفضل تونِت بكل كسله. سيمضي مع حفيده، وسيكتشف الاثنان كيفية الخروج من المتاعب. مالك سِكيوتا لا ينقصه المال أبدًا.

أحس تونِت- وهو محاط بأصدقائه، مُرحَّبًا به من النساء، فخورًا بنظرة نِلِتا النَّدِية المثبتة عليه- أنهم ينادونه وهم يلمسون كتفه.

كان كانيامِل، الذي كان يبدو أنه يحميه بعينيه الحنونتين. كان ينبغي عليهما التحدث، لسببٍ ما كانا دائمًا صديقين حميمين، وكانت الحانة مثل منزل تونِت. لم يكن من الضروري ترك الأمر لوقتٍ لاحقٍ: فالعمل بين الأصدقاء يتم تنظيمه سريعًا. وابتعدا بضع خطوات، تتبعهما نظرات الحشد الفضولية.

تطرق صاحب الحانة إلى الأمر. لم يكن تونِت يمتلك ما يحتاجه لاستغلال الموقع الذي كان من نصيبه. ألم يكن الأمر هكذا؟ حسنًا، كان هناك صديق حقيقي مستعد لمساعدته، للمساهمة من أجل عمل مشترك. سيوفر له كل شيء. وبينما كان تونِت صامتًا، لا يعرف بماذا يجيب، عاد صاحب الحانة، الذي أخذ صمته بمحمل سلبي، ليُعيد الكرة. هل هما رفيقان أم لا؟ هل كان يفكر في الذهاب، مثل والده، إلى أولئك الأجانب من كاتارّوخا الذين كانوا يمصون الفقراء؟ كان صديقًا: لدرجة أنه اعتبر نفسه قريبًا بطريقةٍ ما، بحق الجحيم، هو لم يستطع أن ينسى أن زوجته، نِلِتا، نشأت في كوخ عائلة پالوما، وأنهم أطعموها مراتٍ عديدةٍ هناك، وأنها تحب تونِت كأخ.

كان صاحب الحانة الجشع يستخدم هذه الذكريات بأكبر قدر من ضبط النفس، وأصر على المودة الأخوية التي كانت تشعر بها زوجته تجاه الشاب. ثم دعا إلى حل أكثر بطولية. إذا كان يشك فيه، إذا لم يكن يريده كشريك، كان سينادي نِلِتا لإقناعه. من المؤكد أنها ستنجح في استدراجه إلى الطريق الصحيح. ماذا؟ هل يناديها؟

تردد تونِت، الذي أغرته هذه المقترحات، قبل قبولها. كان يخاف من نميمة الناس. كان يفكر في والده، متذكرًا نصائحه الصارمة. نظر حوله وكأن مظهر الناس سيلهمه، فرأى جده الذي كان يهز رأسه بإشارات تأكيدية من بعيد.

خمن المراكبي كلمات كانيامِل. كان يفكر للتو في أن صاحب الحانة الثري هو مساعده. وشجع حفيده بإيماءات جديدة. يجب ألا ترفض: هذا هو الرجل الذي كانا يحتاجان إليه.

قرر تونِت، وسارع زوج نِلِتا، الذي خمن القرار في عينيه، إلى صياغة الشروط. كان سيوفر كل ما هو ضروري، وسيعمل تونِت وجده: والحصيلة تُقسم. هل كان راضيًا؟

موافق. تصافح الرجلان، وتبعهما نِلِتا والعم پالوما، ساروا نحو الحانة بغرض تناول الغداء معًا للاحتفال بالصفقة.

انتشر الخبر على الفور في جميع أنحاء الساحة. اجتمع الكوبي وكانيامِل لاستغلال سِكيوتا! كان لا بد من أخذ لاساماروكا من الساحة بأمر من العمدة.

انطلقت في الطريق إلى كوخها، برفقة بعض النساء، وهي تزأر مثل امرأة ممسوسة، تصرخ من أجل أختها، التي توفيت منذ سنوات، مؤكدة بأعلى صوت أن كانيامِل وقح، فلإتمام أعماله لم يتردد في إحضار عشيق زوجته إلى المنزل.

– ٥ –

تغير وضع تونِت في متجر كانيامِل تمامًا. لم يعد زبونًا: لقد كان الشريك، رفيق صاحب المنزل، وكان يدخل الحانة بملمح متغطرس متحديًا نميمة أعداء نِلِتا.

إذا أمضى أيامًا هناك كان للحديث عن عمله. كان يدخل الغرف الداخلية، بثقة كبيرة، وليُظهر أنه في منزله، كان يتجاوز منضدة الشرب، ويجلس بجوار كانيامِل. في كثير من الأحيان، إذا كان الأخير وزوجته بالداخل وطلب أحد الزبائن شيئًا ما، كان يقفز فوق المنضدة، وبجدية كوميدية، وسط ضحك أصدقائه، كان يقدم البضائع، مقلدًا صوت وحركات العم پاكو. كان صاحب الحانة راضيًا عن شريكه. فتى ممتاز، كما صرح أمام جمهور الحانة عندما لم يكن تونِت موجودًا، صديق جيد، لو أنه أحسن التصرف واجتهد، فسيذهب بعيدًا، بمساعدة راعٍ مثله.

كان العم پالوما يتردد على الحانة أكثر من ذي قبل. انقسمت العائلة، بعد مشاهد مضطربة في الليل في عزلة الكوخ الخشبي. كان العم توني

ولابوردا يسيران إلى حقله كل صباح لمواصلة المعركة مع البحيرة، محاولين إغراقها تحت قُفف التراب التي يحضرونها بمشقةٍ من بعيد. كان تونِت وجده يذهبان إلى منزل كانيامِل للتحدث في مشروعه القادم. في الحقيقة، الوحيدان اللذان كانا يتحدثان في ذلك هما صاحب الحانة والعم پالوما.

كان كانيامِل يمتدح نفسه، وهو يثني على الكرم الذي قَبِل به العمل. كشف رأس ماله دون معرفة نتيجة الصيد، وقد قدم هذه التضحية وهو مقتنع بنصف الحصيلة. لم يكن مثل المقرضين الأجانب في البر، الذين كانوا يقدمون المال فقط بضمان الرهون العقارية الجيدة وزيادة الفائدة. وكان كل حقده على الدخلاء، والتنافس الشرس في مهنة استغلال الفرد، يظهر في كلماته. من هم أولئك الذين يسيطرون على البلاد شيئًا فشيئًا؟ يأتي الفرنسيون إلى أرض بلنسية بأحذية ممزقة وبدلة قطيفة ملتصقة بأجسادهم. أشخاص من مقاطعة في فرنسا لم يكن يتذكر أسماءهم، لكنهم أصبحوا، إلى حدٍّ ما، مثل الجاليقيين في بلده. ولم تكن حتى أموالهم الخاصة التي كانوا يقرضونها. في فرنسا، كان رأس المال يُنتج القليل من الفائدة، والتي كان يقبل بها هؤلاء الجاباتشو[1] في أراضيهم بنسبة اثنين أو ثلاثة في المائة ليقرضوا المال لسكان بلنسية بخمسة عشر أو بعشرين، فينجزون أعمالًا رائعةً. بالإضافة إلى أنهم قاموا بشراء الدواب من الجانب الآخر من جبال البرانس، وربما قاموا بتهريبها وبيعها على أقساط للمزارعين، وقاموا بترتيب الأعمال حتى لا يمتلك

(١) الجاباتشو (**gabacho**): لقب تحقيري يُطلقه الإسبان على الفرنسيين.

المشتري البهيمة الخاصة به. كان هناك رجل فقير باع له شخص حصانًا حقيرًا كأنه حصان سانتياجو نفسه[1]. سرقة أيها العم پالوما، غنيمة لا تليق بالمسيحيين. وغضب كانيامِل وهو يتحدث عن هذه الأمور بكل سخط وحسد المُرابي الذي لا يجرؤ -بدافع الجبن- على استخدام نفس إجراءات منافسيه.

كان المراكبي يوافق على كلامه. لهذا السبب أراد أهله تكريس أنفسهم للصيد، ولهذا غضب عندما رأى ابنه يستدين المزيد من الديون في سعيه ليكون مزارعًا. كان الفلاحون الفقراء عبيدًا، كانوا يقاسون طوال العام وهم يعملون، ولمن كان الناتج؟ أخذ الأجانب كل محاصيلهم: الفرنسيون الذين أقرضوهم المال والإنجليز الذين باعوا لهم الأسمدة بالدين ... العيش والشخص يقاسي ليحافظ على ناس غرباء! لا، ما دام هناك أنقليس في البحيرة، يمكن للأراضي أن تُغطَّى بالأسَل والبرك بهدوء، متيقنًا أنه لن يكون الشخص الذي يحرثها.

بينما كان المراكبي وكانيامِل يتحدثان، كان تونِت ونِلِتا يجلسان خلف منضدة الشرب، ينظران إلى بعضهما البعض بهدوء. كان الزبائن قد اعتادوا على رؤيتهما لساعات وساعات وأعينهما ثابتة، كما لو كانا يفترسان بعضهما، مع تعبير في نظرتهما لا يتوافق مع كلماتهما، التي غالبًا ما تكون غير ذات أهمية. ظلت الثرثارات اللاتي كن يصلن من أجل الزيت أو النبيذ بلا حراك أمامهما، بأعين منخفضة وتعبير

(١) حصان سانتياجو: ظهر الرسول سانتياجو، في معركة كلافيجو في لاريوخا، وفق ما قيل منذ العصور الوسطى، راكبًا حصانًا أبيض عظيمًا وبيده سيف، وقد ساعد المسيحيين في قتالهم ضد المغاربة.

دهشة، تاركات آخر قطرات من القُمع تُصفى في الزجاجة، بينما كن يتنصتن لالتقاط كلمة من حديثهما، لكنهما تحديا هذا التجسس وظلا يتحدثان، وكأنهما التقيا في مكان مهجور. تحدث العم پالوما إلى حفيده بجدية، وهو منزعج من مثل هذه العلاقات الحميمة. لكن هل كان هناك شيء بينهما، مثلما كانت تؤكد لاساماروكا والألسنة الأخرى السيئة في القرية؟ حذار، يا تونِت! إضافةً إلى أن هذا سيكون مخزيًا للعائلة، فإنه سيجعلهم يفقدون أعمالهم! لكن الحفيد، بحزم من يقول الحقيقة، ضرب صدره احتجاجًا، واقتنع الجد، رغم بعض الشك في أن الصداقات ستنتهي بشكلٍ سيئ.

كانت المساحة الصغيرة خلف منضدة الشرب هي جنة بالنسبة لتونِت. كان يتذكر مع نِلِتا أوقات الطفولة، وكان يحكي لها مغامراته هناك بعيدًا، وعندما كانا يصمتان، كانا يشعران بنشوة حلوة مثل الليلة التي ضاعا فيها في الغابة، ولكنها أكثر شدة، وأكثر حماسة مع قرب ذلك الجسد الذي بدا أن حرارته تداعبه عبر ملابسه.

في الليل، بعد تناول العشاء مع كانيامِل وزوجته، كان تونِت يأخذ أكورديونًا من كوخه، وهو المتاع الوحيد الذي أحضره من كوبا مع قبعات القش، وكان يُذهل جميع من في الحانة بالموسيقى الشعبية الهاڤانية الحزينة التي كانت يغنيها على آلته. كانت تُغنى خواخيراس[1] من شعر عذب، يُحكى فيها عن النسيم والقيثارات والقلوب اللينة مثل

(١) خواخيراس: أغان يصاحبها الجيتار اكتسبت شعبية في المناطق الغربية والوسطى من كوبا في القرن ١٧.

الجوافة، وجعلت اللهجة الكوبية المعسولة التي كان يغني بها أغنياته عيني نِلِتا ناعسة وقد رمت جسدها إلى الوراء وكأنها تفتح صدرها، وهي تهتز بسبب ضيق النفس الشديد.

في اليوم التالي لهذه السريناده[1]، كانت نِلِتا، بأعينها النَّدِية، تتبع تونِت في كل تحركاته عبر الحانة من مجموعة إلى أخرى.

كان الكوبي يخمّن هذه المشاعر. هل كانت تحلم به، حقيقةً؟ حدث الشيء نفسه لتونِت في كوخه. طوال الليل كان يراها في الظلام، ويمد يديه كما لو كان يلمسها حقًّا. وبعد هذا الاعتراف المتبادل ظلا ساكنين، متأكدين من أنه مس شيطاني أخلاقي لم يكونا منتبهين له تمامًا، متيقنين من أنه يجب أن يكون أحدهما للآخر في النهاية لا محالة، بغض النظر عن العقبات التي نشأت بين الاثنين.

لم يكن في القرية أي علاقة حميمية أخرى للتفكير فيها سوى محادثات الحانة. كان يحيط جميع سكان پالمار بهما خلال النهار، ولم يكن كانيامِل، المريض والشاكي، يغادر المنزل. في بعض الأحيان، كان صاحب الحانة، مدفوعًا بوميض عابر من النشاط، يطلق صافرة لِثِنتيّا، كلبته العجوز، برأسٍ ضخم، تشتهر بحاسة الشم لديها في جميع أنحاء البحيرة، ويضعها في قاربه الصغير، ويذهب إلى أقرب حقل قصب لإطلاق النار على دجاج الماء. لكنه كان يعود بعد بضع ساعات وهو يسعل ويشكو من الرطوبة وساقاه متورمتان مثل فيل، كما كان يقول، ولم

(١) السريناده: هي قصيدة تُؤلف في الأساس لمغازلة المحبوبة ليلاً تحت شرفتها. وقد امتد هذا المعنى ليشمل أي قصيدة أو مقطوعة موسيقية لهذا الغرض.

يكف عن التأوه في أي زاوية، حتى إن نِلِتا جعلته يرتشف بضعة أكواب من السوائل الساخنة، وربطت عدة مناديل حول رأسه ورقبته. توجهت عينا نِلِتا نحو الكوبي بتعبير يكشف عن الازدراء الذي كانت تشعر به تجاه زوجها. كان الصيف قد انتهى، وكان لا بد من التفكير بجدية في ترتيبات الصيد. كان أصحاب أوراق السحب الأخرى ينظمون شباكًا كبيرة أمام منازلهم لإغلاق التُّرع. نفد صبر العم پالوما. كانت العُدد التي يمتلكها كانيامِل، الباقية من شراكته القديمة مع صيادين آخرين، لا تكفي من أجل سِكيوتا. كان من الضروري شراء الكثير من الخيوط، توظيف العديد من النساء لتنسجن الشبكة، لاستثمار المحيط كما ينبغي.

ذات ليلة تناول تونِت وجده العشاء في الحانة لمناقشة العمل بجدية. كان ينبغي شراء خيط من أفضل الأنواع، الذي يُصنع في شاطئ كابانيال من أجل صيادي البحر. سيذهب العم پالوما لشرائه، باعتباره خبيرًا، لكن سيصاحبه صاحب الحانة، الذي كان يحب أن يدفع مباشرةً، فقد خاف من أن يُخدع لو أنه سلم المال إلى العجوز. في وقتٍ لاحق، في غبطة الهضم، بدأ كانيامِل يشعر بالرعب من رحلة اليوم التالي. كان يجب عليه الاستيقاظ في الفجر، الغطس في الضباب الرطب من السرير الدافئ، وعبور البحيرة، والذهاب برًّا إلى بلنسية، ثم الذهاب إلى كابانيال ثم العودة كل الطريق. كان بدنه، اللين بسبب عدم الحركة، يرتجف من الرحلة. هذا الرجل، الذي قضى جزءًا كبيرًا من حياته وهو يتجول في جميع أنحاء العالم، كانت له جذور عميقة في طين پالمار لدرجة أنه كان يشعر بالقلق وهو يفكر في يومٍ من الخضخضة.

جعلته الرغبة في السكون يغير هدفه. سيبقى ليرعى المتجر وستقوم نِلِتا بمرافقة العم پالوما. لا أحد مثل النساء في المساومة وشراء الأشياء بشكلٍ جيد. في صباح اليوم التالي، شرع المراكبي وصاحبة الحانة في الرحلة. سيذهب تونِت لانتظارهما في ميناء كاتارّوخا عندما يحل المساء، لحمل بضاعتهم من الخيوط في مركبه. كانت الشمس لا تزال عالية جدًّا عندما دخل الكوبي بأقصى سرعة إلى القناة التي كانت تخترق البر في اتجاه البلدة المذكورة. كانت القوارب الكبيرة تأتي من الحقول محملة بالأرز، وعند مرورها عبر القناة، كانت المياه التي كانت تزيحها ببطونها تشكل موجة صفراء خلف المؤخرة، والتي كانت تغزو الضفة وتغير الهدوء البلوري للتُّرع المتدفقة.

كانت مئات القوارب ترسو على أحد جوانب القناة: أسطول صيادي كاتارّوخا بأكمله، المكروهين من قبل العم پالوما. كانت توابيت سوداء بأحجام مختلفة وخشب فاسد. القوارب الصغيرة، المسماة أحذية، أخرجت من الماء أطرافها الحادة، والعبّارات الكبيرة، والسفن الشراعية الصغيرة، القادرة على حمل مائة كيس من الأرز، أغرقت بطونها العريضة في النباتات المائية، مكونة في الأفق غابة من الصواري الخشنة، غير المشذبة ومقضومة الطرف، مزينة بحبال من الحَلْفاء.

بين هذا الأسطول والضفة المقابلة، لم يبقَ سوى مساحة ضيقة كانت تبحر من خلالها المراكب، وتوزع بمقدمتها ضربات مروعة وتصادمات عنيفة مع القوارب الراسية.

أرسى تونِت قاربه أمام حانة الميناء وترجل. رأى أكوامًا ضخمة من قش الأرز، كان الدجاج ينقر بها، مما يعطي المرساة مظهر الحظيرة. كان النجارون يبنون القوارب على الضفة، وقد ضاع صدى دقهم في هدوء المساء. كانت القوارب الجديدة، المصنوعة من الخشب الأصفر المسطح حديثًا، تنتظر على الضفاف، طبقة من القطران التي سيغطيها بها الجلافِطة[1]. كانت امرأتان تخيطان عند باب الحانة. وراء ذلك بُنيَ كوخ من القش، حيث كان ميزان جمعية كاتارّوخا. كانت امرأة بميزان مكون من سلتين تزن الأنقليس وسمك التِّنش الذي يفرغه الصيادون، وعندما ينتهي الوزن، تُلقي أنقليسًا في سلة كبيرة تحتفظ به بجانبها. كانت ضريبة تطوعية من أهل كاتارّوخا. كانت تُستخدم حصيلة هذه الضريبة لدفع تكاليف احتفال الشفيع سان بدرو. كانت بعض العربات المحملة بالأرز تبتعد، وهي تئز، متجهة إلى المطاحن الكبرى. تونِت، الذي لم يكن يعرف ماذا يفعل، كاد يدخل إلى الحانة، عندما سمع شخصًا يناديه. خلف أحد أكوام التبن الكبيرة، كانت إحدى يديه -التي كانت تخيف الدجاج فجعلته يفر في حالة من الفوضى- تطلب منه الاقتراب.

ذهب الكوبي إلى هناك ورأى المتشرد، سانجونِرا، ممددًا وصدره في الهواء وذراعاه متشابكتان خلف رأسه كوسادة. كانت عيناه مبللتين وصفراء اللون. كان الذباب يرفرف على وجهه -الذي كان شاحبًا ونحيفًا بشكلٍ متزايد من الكحول- دون أن يقوم بأدنى حركة لإخافته.

(١) الجلافِطة: جمع جَلفَاط، وهو من يَسُد ما بين ألواح السفينة ويقيرها.

رحب تونِت بهذا اللقاء، والذي كان بإمكانه الترفيه عنه أثناء انتظاره. ماذا كان يفعل هناك؟ لا شيء: كان يقضي الوقت، حتى يهبط الليل. كان ينتظر الوقت المناسب للذهاب بحثًا عن بعض الأصدقاء من كاتارّوخا، الذين لن يتركوه دون عشاء، كان يستريح، والراحة خير عمل للإنسان.

لقد رأى تونِت من مخبئه ونادى عليه، دون أن يتخلى عن موقعه الرائع. استقر جسده تمامًا في القش، لم يكن الأمر يتعلق بفقدان القالب... شرح لاحقًا سبب وجوده هناك. كان قد أكل في الحانة مع بعض سائقي العربات، أُناس ممتازون، قدموا له القليل من الكِسر، وهم يمررون الإبريق مع كل لقمة ويضحكون على دعاباته. لكن صاحب الحانة، مثل جميع من في طبقته، بمجرد أن غادر الزبائن طرده، مع العلم أنه لا يمكنه طلب أي شيء على حسابه. وهناك كان يقتل الوقت وهو عدو الإنسان... هل كانت بينهما صداقة أم لا؟ هل كان قادرًا على دعوته لمشروب؟ تغلبت إيماءة تونِت بالإيجاب على كسله، وعلى الرغم من بعض المشقة، قرر الوقوف. شربا في الحانة، وبعد ذلك، ذهبا، ببطء، للجلوس على ضفة الميناء التي كانت تحتمي بألواح سوداء.

لم يكن تونِت قد رأى سانجونِرا لأيامٍ كثيرةٍ. حكى له المشرد آلامه.

لم يكن لديه ما يفعله في پالمار. قامت نِلِتا زوجة كانيامِل، وهي امرأة متكبرة نسيت أصولها، بطرده من الحانة بحجة أنه كان يلوث كراسي الحانة والبلاط القيشاني للإفريز بطين ملابسه. في الحانات الأخرى، كان كل شيء بائسًا: لم يكن هناك شَريب قادر على دفع ثمن

مشروب له، واضطر إلى مغادرة پالمار، ليطوف البحيرة، كما كان يفعل والده، وينتقل من مدينة إلى أخرى، ليبحث دائمًا عن أصدقاء كرماء. تجرأ تونِت، الذي كان يزعج عائلته بسبب كسله، على تقديم النصيحة له. لماذا لم يكن يعمل؟ وأبدى سانجونِرا إيماءة من الدهشة. هو أيضًا! سمح الكوبي لنفسه أيضًا بتكرار نفس نصائح العجائز في پالمار! هل كان يعجبه كثيرًا العمل؟ لماذا لم يكن مع والده يدفن الحقول، بدلًا من قضاء النهار في دار كانيامِل بجانب نِلِتا، متسكعًا كسيد يشرب أفخر النبيذ؟ ابتسم الكوبي وهو لا يعرف بماذا يجيب وأُعجب بمنطق السكير في رفض نصيحته.

كان المشرد يبدو أنه متأثر بالمشروب الذي دفع ثمنه تونِت. أثار هدوء الميناء، الذي كان يقطعه أحيانًا طَرق الجلافِطة وقَرْق الدجاج، حماسته، مما دفعه إلى النجوى.

لا، تونِت، لم يستطع العمل. لن يعمل حتى لو أجبروه. كان العمل من فعل الشيطان: عصيان لله، أعظم الذنوب. فقط الأرواح الفاسدة، أولئك الذين لا يمكن أن يتوافقوا مع فقرهم، أولئك الذين عاشوا في شقاء بسبب الرغبة في اكتناز المال، مع أنه بؤسٌ، التفكير في كل ساعة في يوم غد، يمكنهم أن يستسلموا إلى العمل، ويتحولوا من بشر إلى وحوش. كان يتأمل كثيرًا. كان يعرف أكثر مما يتخيله الكوبي، ولم يكن يريد أن يفقد روحه وهو منغمس في العمل المنتظم الرتيب ليحصل على منزل وأسرة ويؤمن خبز اليوم التالي. وهذا يرقى إلى الشك في رحمة الله الذي لا يتخلى عن مخلوقاته. وهو، قبل كل شيء، كان مسيحيًّا.

كان تونِت يضحك وهو يستمع إلى هذه الكلمات، معتبرها هراء من السُّكر، ودفع رفيقه رث الثياب بكوعه. إذا كان يأمل في شرابٍ آخرٍ مقابل هذا الهراء، فسيصاب بخيبة أمل! ما كان يعاني منه هو أنه يكره العمل. كان يحدث الشيء نفسه للآخرين، لكن بدرجاتٍ متفاوتة، كلهم كانوا يحنون ظهورهم حتى لو على مضض.

تجول سانجونِرا بنظره فوق سطح القناة، المصبوغ باللون البنفسجي لضوء المساء الأخير. كان يبدو أن فكره يطير بعيدًا، كان يتحدث ببطء، مع بعض التصوف الذي يتناقض مع أنفاسه الكحولية. كان تونِت جاهلًا، مثل الجميع في پالمار. أعلن ذلك، بشجاعة سببها السُّكر، دون خوف من أن يدفعه صديقه، اليقظ، إلى القناة. ألم يعلن أن الجميع كان يحني ظهره على مضض؟ وماذا أظهر هذا إلا أن العمل مخالف للطبيعة ولكرامة الإنسان؟ لقد كان يعرف أكثر مما كانوا يظنون في پالمار، أكثر من العديد من القساوسة الذين خدمهم كعبد. هذا هو السبب في أنه كان يتشاجر معهم دائمًا. كان على صواب، ولا يستطع العيش مع عميان الروح.

بينما كان تونِت يسير في تلك الأراضي الواقعة على الجانب الآخر من البحر، متورطًا في المعارك، كان يقرأ كتب الرهبان ويقضي فترة المساء عند باب بيت الكاهن، متأملًا الصفحات المفتوحة، في صمت المدينة التي كان سكانها يهربون إلى البحيرة . لقد حفظ معظم العهد الجديد، ويبدو أنه لا يزال يرتجف من ذكرى الانطباع الذي أحدثته به عظة الجبل في المرة الأولى التي قرأها فيها. اعتقد أن سحابة كانت

تنكسر أمام عينيه. لقد أدرك فجأة لماذا تمردت إرادته على العمل الوحشي والمؤلم. لقد كان الجسد، كانت الخطيئة التي جعلت الإنسان المسحوق يعيش مثل الوحوش لإشباع شهواته الأرضية. اعترضت الروح على استعبادها قائلة للإنسان: «لا تعمل»، وهي تنشر عبر العضلات النشوة الحلوة للكسل، مثل السعادة التي تنتظر الخير من السماء. قال سانجونِرا لصديقه بلهجة مهيبة:

– استمع، يا تونِت، استمع.

وتذكر قراءاته الإنجيلية بشكلٍ غير منظم، الوصايا التي طُبعت في ذاكرته. لم يكن من الضروري أن نتساءل بضيق عن المأكل والملبس، لأن طيور السماء، كما قال يسوع، لا تزرع ولا تحصد، ومع ذلك فهي تأكل، ولا زنابق الحقل تحتاج إلى الغَزْل لتلبس؛ لأن لطف الرب ألبسها. كان خليقة الله وله يفتح قلبه. لم يكن يريد أن يهين الرب بالعمل، وكأنه يشك في رحمة الإله الذي كان يغيثه. فقط الوثنيون، أو أهل پالمار الذين كانوا يحتفظون بأموال الصيد دون دعوة أي شخص، كانوا قادرين على بذل المجهود للادخار، وهم يشككون دائمًا في الغد. كان يريد أن يكون مثل طيور البحيرة ومثل الزهور التي كانت تنمو في حقول القصب: كسولة، غير نشيطة وليس لها أي مصدر آخر غير العناية الإلهية. في بؤسه، لم يكن يشك أبدًا في الغد. "يكفيه مجهوده الشخصي في اليوم". سيجلب له اليوم التالي الاستياء. في الوقت الحالي، كانت تكفيه مرارة اليوم، البؤس الذي يشعر به لمحاولته الحفاظ على نقاء نفسه، دون أدنى عمل وطموح أرضي في عالم كان الجميع يتحارب فيه

من أجل حياتهم، وكل شخص منزعج من جاره ومكرس نفسه من أجل سرقة القليل من رخائه.

ظل تونِت يضحك على كلمات السكير هذه، التي كانت تُقال بحماس متزايد. لقد أُعجب بأفكاره بنبرة ساخرة، واقترح عليه مغادرة البحيرة لدخول الدير، حيث لن يضطر إلى أن يكافح البؤس. لكن سانجونِرا احتج بسخط. لقد تشاجر مع القِس، وترك بيته إلى الأبد، لأنه صُدم عندما رأى في أسياده السابقين روحًا مخالفة للكتب التي كانوا يقرأونها. كانوا مثل الآخرين: يعيشون معذبين بسبب رغبتهم في نقود شخصٍ آخر، يفكرون في الطعام والثياب، ويشتكون من ضعف التقوى عندما لا يدخل المال إلى البيت، مع قلق من الغد، وتشكيك في رحمة الله الذي لا يتخلى عن مخلوقاته.

كان لديه إيمان وكان يعيش بما كانوا يقدمونه له أو بما كان يجده في متناول يده. لم ينقصه في أي ليلة حفنة من القش ليستلقي عليها، ولم يشعر بالجوع لدرجة الإغماء. إن الرب، عندما وضعه في البحيرة، قد وضع كل موارد الحياة في متناول يده حتى يكون قدوة للمؤمن الحقيقي.

كان تونِت يسخر من سانجونِرا. ما دام كان نقيًّا جدًّا، لماذا كان يسكر؟ هل أمره الله أن ينتقل من حانة إلى أخرى ثم يتجول في الضفاف على أربع تقريبًا، يترنح من السُّكر؟ لكن المتشرد لم يفقد جديته الجليلة. سكره لم يكن يضر به أحدًا، والخمر كان شيئًا مقدسًا؛ لأنه يُقدم في القربان اليومي للإله. كان العالم جميلًا، ولكن من خلال كأس النبيذ بدا أكثر ابتسامة، وألوانه أكثر إشراقًا، وكان ينظر بإعجاب شديد إلى القدير

خالقه. كل شخص له تسلياته. لم يكن يجد هو متعة أفضل من التفكير في جمال ألبوفيرا. كان آخرون يعبدون المال، وكان هو يبكي أحيانًا من إعجابه بغروب الشمس، ونيرانها المتحللة بسبب رطوبة الهواء، وساعة الشفق تلك، التي كانت أكثر غموضًا وجمالًا عنها في القرى الداخلية في البلاد. كان جمال المناظر الطبيعية يتغلغل في روحه، وإذا تأمله من خلال عدة أكواب من النبيذ، فإنه يتنهد بحنان مثل طفل. كان يكررها: كل شخص كان يستمتع بطريقته الخاصة. كانيامِل، على سبيل المثال، يكدس الأونصات: أما هو فيتأمل ألبوفيرا بمثل هذه النشوة لدرجة أن بعض المقاطع الشعرية التي كانت تقفز داخل رأسه أجمل من تلك التي تُغنى في الحانات، وكان مقتنعًا أنه، مثل أسياد المدينة الذين يكتبون في الصحف، يعرف كيف يقول أشياء تستحق الذكر في سُكره.

بعد صمتٍ طويلٍ، كان سانجونِرا يعترض، بدافع من الثرثرة، على أمور كان يقولها هو نفسه ليُفندها في الحال. سيُقال له، مثلما يقول قِس پالمار، إن الرجل محكوم عليه أن يكسب قوته بعرقه نتيجة لخطيئته الأولى، لكن لهذا جاء يسوع إلى العالم، ليفتديه من خطئه البدائي، ويعيد البشرية إلى الحياة الفردوسية، نظيفة من كل عمل. لكن آخ! لقد تجاهل المذنبون، بدافع الكبرياء، كلماته: كان كلٌّ منهم يريد أن يعيش بوسائل راحة أكبر من الآخرين، كان هناك فقراء وأغنياء، بدلًا من أن يكونوا جميعًا بشرًا. أولئك الذين لم يصغوا إلى الرب عملوا بجد، وبجد أكبر، لكن البشرية كانت تعيسة وكان الجحيم يُصنع في العالم. كانوا يخبرونه أن الناس إذا لم تعمل سوف تعيش حياة سيئة. حسنًا، سيكون هناك عدد

أقل في العالم، لكن أولئك الذين بقوا سيظلون سعداء ودون رعاية، ويعيشون على رحمة الله التي لا تنضب... وكان هذا يجب أن يحدث بشكلٍ حتمي: لن يكون العالم سواء دائمًا. كان على يسوع أن يعود ليسير الرجال في الطريق الصحيح. كان يحلم به مرات كثيرة، حتى عندما كان مريضًا ذات يوم بحمى الغِب، عندما دخله برد الحمى، وهو مستلقٍ على أحد الضفاف أو جاثم في أحد أركان كوخه الخَرِب، رأى قميصه البنفسجي، الضيق، المتيبس، ومد المتشرد يديه للمسه والشفاء فجأة.

كان سانجونِرا يُظهِر إيمانًا عنيدًا عندما تحدث عن هذه العودة إلى الأرض. لن يعود ليظهر في المدن الكبيرة التي تهيمن عليها خطيئة الثروة. فيما مضى، لم يظهر في المدينة الضخمة التي تُسمى روما، لكنه كان يعظ في مدن صغيرة لا تزيد مساحتها عن پالمار، وكان رفاقه من أصحاب القوارب والشباك، مثل الناس الذين كانوا يجتمعون في منزل كانيامِل. تلك البحيرة التي كان يسوع يسير فوق موجاتها مع دهشة الحواريين، بالتأكيد لم تكن أكبر أو أجمل من ألبوفيرا. هناك سيكون الرب بينهم، عندما يعود إلى العالم لينهي عمله، سيبحث عن القلوب البسيطة، النظيفة من كل جشع، سيكون هو واحدًا منهم. ونهض المتشرد، بتمجيد كان يتداخل فيه السُّكر وإيمانه الغريب على حد سواء، وهو ينظر إلى الأفق، وعند حافة القناة، حيث كانت تتكسر آخر أشعة الشمس، كان يعتقد أنه رأى الشكل النحيف للمرغوب، مثل خط بنفسجي، يتحرك للأمام بهالة من الضوء جعلت شعره الذهبي ذا التموجات الرقيقة يلمع، دون أن يحرك قدميه أو تخدشه الأعشاب.

لم يعد تونِت يسمعه. كان يدوي جلجل صاخب على الطريق المؤدي إلى كاتارّوخا، وخلف الكوخ الذي يزن فيه الصيادون كانت تتقدم مظلة الترتان[1] المتشققة. كان قريباه مَنْ وصلا. بنظرة ابن البحيرة، تعرف سانجونِرا على نِلِتا من مسافة طويلة من نافذة العربة الصغيرة. لم يكن يريد التعامل مع زوجة كانيامِل بعد طرده من الحانة. ودّع تونِت وذهب للاستلقاء في مستودع القش مرة أخرى، مستمتعًا بأحلامه بينما كان الليل يهبط.

توقفت العربة أمام حانة الميناء ونزلت نِلِتا. لم يخفِ الكوبي دهشته. والجد.. لقد تركها لتقوم برحلة العودة وحدها، مع كل حمولة الخيوط التي كانت تملأ الترتان. كان العجوز يريد العودة إلى منزله عبر سالِر، للتحدث إلى أرملة معينة كانت تبيع عدة صنانير مسلسلة[2] بسعرٍ جيد. كان سيصل إلى پالمار ليلًا في أي قارب يُستخدم لسحب الطين من القنوات. خطر لكليهما، عندما نظرا إلى بعضهما البعض، الفكرة نفسها. كانا سيقومان بالرحلة بمفردهما: للمرة الأولى يمكنهما التحدث مع بعضهما، بعيدًا عن كل الأعين، في عزلة البحيرة العميقة. شحب كلاهما، ارتجفا، كأنهما في حضور خطر مرغوب فيه ألف مرة، لكنه ظهر فجأة وبشكلٍ غير متوقع. كان هذا شعورهما، لدرجة أنهما لم يسرعا في سيرهما، وكأن خجلًا غريبًا سيطر عليهما وخافا من تعليقات الناس في الميناء الذين بالكاد لاحظوهما. انتهى صاحب الترتان من

(١) الترتان: عربة نقل بعجلتين كبيرتين وسقف مقبب.

(٢) الصنانير المسلسلة: تتكون من حبال طويلة وسميكة تتدلى منها حبال رفيعة بأطوال مختلفة بخطافات في نهاياتها، تُغرق في أماكن عميقة حيث لا يمكن الصيد بالشباك.

إخراج حزم الخيوط السميكة من العربة، وبمساعدة تونِت، كان يرميها في البِروة، حيث شكلت كومة صفراء تنشر رائحة القنب المغزول حديثًا.

دفعت نِلِتا لصاحب الترتان. تحياتي وأتمنى لك رحلة موفقة! وجعل الرجل حصانه ينطلق، وهو يقرع سوطه، في الطريق إلى كاتارّوخا. ظل الاثنان بلا حراك لفترة طويلة على الضفة الطينية، دون أن يجرؤا على الانطلاق، وكأنهما ينتظران أحدًا. كان الجلافطة ينادون على الكوبي. كان عليه أن يبدأ الرحلة سريعًا: فقد كانت الريح ستهبط، وإذا ذهب إلى پالمار، فسيتعين عليه أن يمنح المُردي بعض الوقت. ابتسمت نِلِتا، بإحراج واضح، لكل هؤلاء الأشخاص من كاتارّوخا، الذين كانوا يحيّونها لأنهم يرونها في حانتها. قرر تونِت كسر الصمت ومخاطبة نِلِتا. بما أن الجد لم يأتِ، فمن الضروري الانطلاق في أسرع وقت ممكن، هؤلاء الرجال على حق. كان صوته خشنًا، مع رعشة قلق كأن الانفعال يضغط حلقه.

جلست نِلِتا في وسط القارب، عند سفح الصاري، مستخدمة كومة متشابكة كمقعد، والتي تحطمت تحت وزنها. فرد تونِت الشراع، وجلس القرفصاء بجوار الدفة، وبدأ القارب في الانزلاق، ورفرف القماش على الصاري مع اهتزازات النسيم، الرقيقة والخفيفة.

كانوا يمرون ببطء عبر القناة، ورأوا في آخر ضوء للمساء أكواخ الصيادين المنعزلة، مع أكاليل من الشباك الموضوعة لتجف على تعريشة القصب في الحظيرة، السواقي القديمة بخشبها المتحلل،

والتي بدأ يرفرف حولها الخفافيش. كان الصيادون يسيرون على طول الضفاف، وهم يشدون قواربهم الصغيرة بمشقة، ويسحبونها بوشاحهم المربوط في طرف الحبال. وداعًا! تمتموا عندما مروا.

– وداعًا!

ومرةً أخرى الصمت، الذي ضم صوته إلى همس القارب وهو يقطع الماء وغناء الضفادع الرتيب. كلاهما غضا النظر، كما لو كانا خائفين من أن ينتبها إلى أنهما وحدهما، وإذا رفعا أعينهما كانت تتلاقى نظراتهما، فتفران على الفور. كانت ضفاف القناة تتسع. كانت المنحدرات تضيع في الماء. كانت الأهوار الضخمة تمتد للحقول المراد دفنها على الجانبين. على السطح الأملس كان القصب يتموج في الشفق، مثل قمة غابة مغمورة.

أصبحا الآن في ألبوفيرا. تحركا أبعد قليلًا مع اهتزازات النسيم الأخيرة، ولم يريا من حولهما سوى الماء.

لم تعد الرياح تهب. كانت البحيرة، الهادئة، من دون أدنى تموج، تأخذ لون أوبال ناعم، تعكس آخر وميض للشمس خلف الجبال البعيدة. تلونت السماء باللون الأرجواني وبدأ تلألؤ النجوم الأولى يخترقها من ناحية البحر. على حافة الماء، كان ينعكس القماش الباهت وغير المتحرك للقوارب مثل الأشباح.

أنزل تونِت الشراع، وأمسك بالمُردي، وبدأ يقود القارب بقوة ذراعه. كسر هدوء الشفق صمتهما.

وقفت نِلِتا وهي تضحك ضحكة رنانة تريد مساعدة رفيقها. كانت تتحكم في المُردي أيضًا. لا بد أن تونِت كان يتذكر أيام طفولته، وألعابهما الجامحة، عندما كانا يفكان القوارب الصغيرة القادمة من پالمار، دون أن يعلما أصحابها وينطلقان على طول القنوات، وهما مضطران في الكثير من الأحيان إلى الفرار من ملاحقات الصيادين. عندما يتعب، ستبدأ هي.

– كوني هادئة.

أجاب هو بأنفاس متقطعة من التعب، وهو يدفع بالمُردي.

لكن نِلِتا لم تصمت. وكأن الصمت الخطير يثقل كاهلها، حيث تهرب فيه النظرات كما لو كانت تخشى الكشف عن أفكارها، كانت الشابة تتكلم برعونة شديدة.

في الخلفية، بدا خط دِئِسا المسنن بعيدًا، مثل شاطئ رائع لا يمكن الوصول إليه أبدًا. كانت نِلِتا، بضحكاتٍ متواصلةٍ، بها شيء من التكلف، تُذكر صديقها بالليلة التي قضياها في الغابة، بمخاوفهما ونومهما الهادئ، تلك المغامرة التي بدت كأنها من اليوم السابق: كانت منتعشة جدًّا في ذاكرتها. لكن صمت رفيقها، ونظرته المثبتة على قاع القارب بتعبير قلق، لفتا انتباهها. حينئذٍ رأت أن تونِت كان يلتهم حذاءها الأصفر، الأنيق والصغير، بعينيه، والذي كان يترك أثره على القنب مثل بقعتين خفيفتين، وقد كُشف عن شيء أكثر مع تحركات القارب. أسرعت لتغطي نفسها وصمتت، وفمها مشدود بإيماءة قاسية

وعيناها مغمضتان تقريبًا، بينما ارتسم تجعد مؤلم بين حاجبيها. بدت نِلِتا أنها تحاول التغلب على إرادتها.

استمرَّا في التقدم ببطء. كان عبور ألبوفيرا بقوة ذراعيه والقارب محمّل عملًا شاقًّا. كانت تمر بالقرب منهما قوارب صغيرة أخرى فارغة- والتي لا يزيد وزنها على وزن الرجل الذي كان يستخدم المُردي- بسرعة مثل مكوكات، وتختفي في شبه عتمة متزايدة.

ظل تونِت يتعامل مع المُردي الثقيل لمدة ساعة تقريبًا، وهو ينزلق أحيانًا على الأرضية القوية المليئة بالأصداف وأحيانًا أخرى يتشابك في الغطاء النباتي في القاع، والذي يسميه الصيادون شعر ألبوفيرا. كان من الواضح أنه لم يعتد على مثل هذا العمل. إذا كان وحده في القارب، لكان قد تمدد في القاع، في انتظار عودة الريح أو جره بواسطة قارب آخر. لكن وجود نِلِتا أيقظ فيه بعضًا من عزة النفس ولم يرغب في التوقف حتى سقط أرضًا مرهقًا من التعب. كان صدره اللاهث يقذف نخيرًا وهو يستند على المُردي ويدفع القارب. ودون أن يتخلى عن العمود الطويل، كان يضع أحيانًا ذراعًا على جبهته لمسح العرق. نادت عليه نِلِتا بصوتٍ عذب، حيث كان هناك شيء من تهويدة الأم. كان يبدو ظلها فقط على الكومة المتشابكة التي ملأت البِروة. أرادت الشابة أن يستريح: كان لا بد أن يتوقف للحظة، فالأمر سيان إذا وصلا نصف ساعة مبكرًا أو متأخرًا. وجعلته يجلس بجانبها، وهي تشير إلى أنه سيكون مرتاحًا على كومة القنب أكثر من المؤخرة.

كان القارب ثابتًا. شعر تونِت، عندما انتعش، بالقرب العذب من تلك المرأة، كما كان الحال عندما ظلا خلف منضدة الحانة.

كان الليل قد أطبق. لم يكن هناك ضياء آخر غير الوهج المنتشر للنجوم التي تهتز على الماء الأسود. انقطع الصمت العميق بسبب ضجيج الماء الغامض الذي يهتز بفعل ضربات بالذَّنَبِ من حيوانات غير مرئية. كان القاروص، القادم من ناحية البحر، يطارد الأسماك الصغيرة، وكان السطح الأسود يهتز بشكلٍ مستمر لهروب فوضوي. في باقة عشب قريبة كانت طيور الغُرة تُطلِق نواحها، كما لو كانوا يقتلونها، وكانت طيور هازجة القصب الكبيرة تغني بسلالم لا نهاية لها.

في هذا الصمت المليء بالضجيج والأغاني، ظن تونِت أن الوقت لم يمر، وأنه لا يزال صغيرًا في وسط الغابة، بجانب رفيقة طفولته، ابنة بائعة الأنقليس. الآن لم يكن يشعر بالخوف. لم يكن يفزعه سوى الدفء الغامض لرفيقته، الجو المُسكِر الذي بدا وكأنه ينبعث من جسدها، يصعد إلى دماغه مثل المشروب القوي. برأس مطأطأة، وعدم جرأة على رفع عينيه، مد ذراعه ولفه حول خصر نِلِتا. في اللحظة نفسها تقريبًا شعر بمداعبة حلوة، لمسة مخملية، يد انزلقت على رأسه وتسللت حتى جبهته لتزيل العرق الذي كان لا يزال يبللها. نظر إلى الأعلى ورأى من مسافةٍ قصيرةٍ، في الظلام، أعينًا تلمع مثبتةً عليه، تعكس نقطة ضوء لنجم بعيد. شعر على صدغيه بدغدغة الشعر الأشقر الناعم الذي كان يحيط برأس نِلِتا مثل الهالة. بدت تلك العطور القوية التي تشربت بها

صاحبة الحانة وكأنها تدخل فجأة إلى أعماق كيانه. ثم تمتمت بصوتٍ خائر، مثل استهلال رقيق:

- تونِت! تونِت!

كما هو الحال في دِئِسا! لكنهما الآن لم يعودا أطفالًا، لقد اختفت البراءة التي جعلتهما يضغطان على بعضهما لاستعادة شجاعتهما، وعندما اجتمعا بعد سنواتٍ عديدة في حضنٍ جديد، وقعا على كومة القنب، ناسين كل شيء، مع رغبة في عدم النهوض مرةٍ أخرى.

ظل القارب بلا حراك في وسط البحيرة، كما لو كان مهجورًا، دون أن يرتسم على حافتيه أدنى خيال. وفى الجوار كانت ترن أغنية بطيئة لبعض البحارة. كانوا يسيرون في الماء المليء بالهمسات، دون أن يشكوا أنه على مسافةٍ قريبةٍ، في هدوءِ الليل، كان الحب، ملك العالم، يتأرجح على بعض الألواح، وهو مسترخٍ على صوت زقزقة طيور البحيرة.

* * *

- ٦ -

حل عيد پالمار الكبير، عيد الطفل يسوع. كان ذلك في ديسمبر. هبت رياح باردة على ألبوفيرا، فخدرت أيادي الصيادين وألصقتها بالمُردي. كان الرجال يرتدون قبعات صوفية تغوص حتى آذانهم ولم يخلعوا معاطف المطر الصفراء، التي كانت أثناء السير تُصدر حفيف التنانير المجوفة. بالكاد كانت النساء تخرجن من الأكواخ، كانت جميع العائلات تجلس حول الموقد، تسكر بهدوء في أجواء أكواخ الإسكيمو الشديدة.

ارتفع مستوى ألبوفيرا. ارتفع الماء بفعل أمطار الشتاء، فغُطيت الحقول والضفاف بطبقة سائلة، كانت تتناثر فيها أحيانًا الأعشاب المغمورة. كانت البحيرة تبدو أكبر. وبدت الأكواخ المنعزلة، التي كانت في السابق على اليابسة، كما لو كانت تطفو على الماء، ورست القوارب عند الباب نفسه.

بدا أن هناك بردًا قاسيًا لا يطاق كان يخرج من تربة پالمار الرطبة والموحلة يدفع الناس للبقاء داخل منازلهم. لا تتذكر ثرثارات القرية شتاءً قاسيًا هكذا. كانت عصافير الدوري المغاربية، الجزعة والنهمة،

تسقط من على الأسطح القش، منكمشة من البرد، مع صرخة حزينة بدت وكأنها نحيب طفولي. كان حراس دِئِسا يتغاضون عن احتياجات الفقر، وفي كل صباح كان يتناثر جيش من الصِّبية في الغابة بحثًا عن حطب جاف لتدفئة أكواخهم. يجلس زبائن كانيامِل حول المدفأة، وقد قرروا التخلي عن كراسيهم التي كانت من الحلفاء بجوار النار فقط من أجل الذهاب إلى المنضدة بحثًا عن كؤوس جديدة.

كانت پالمار تبدو مخدرة وناعسة. لا يوجد أشخاص في الشوارع ولا قوارب في البحيرة. كان الرجال يخرجون لأخذ الصيد الذي سقط في شباكهم أثناء الليل، ويسرعون في العودة إلى القرية. كانت الأقدام تبدو ضخمة بلفائف القماش السميكة داخل الأحذية الكتانية. كانت القوارب تحتوي على طبقة من قش الأرز في قاعها لمكافحة البرد. ولعدة أيام، وقت الفجر، كانت تطفو طبقات عريضة من الجليد في القناة، مثل بلورات مغبشة. كان الجميع يشعر بالهزيمة مع مرور الوقت. كانوا أبناء الحَر، معتادين على رؤية البحيرة تغلي والحقول تدخن بأنفاسهم الفاسدة تحت مداعبة الشمس. حتى الأنقليس، كما كان يعلن العم پالوما، لم يرغب في إخراج خطمه من الوحل في تلك الفترة السيئة. ومما زاد الوضع سوءًا، أن الأمطار الغزيرة كانت تسقط بوتيرة عالية، حتى أظلمت البحيرة وفاضت التُّرع. صبغت السماء الرمادية ألبوفيرا بجوٍّ حزين. كانت القوارب المبحرة في الضباب تبدو وكأنها توابيت، مع رجالها الساكنين المدسوسين في القش والمتغطين بخرق سميكة حتى أنوفهم.

لكن عندما جاء عيد الميلاد، والاحتفال بالطفل يسوع، بُعثت الحياة في پالمار مرة أخرى، لتطرد سبات الشتاء الذي غرقت فيه. كان لا بد أن تستمتع، كما هو الحال في كل عام، حتى لو تجمدت البحيرة وساروا عليها، كما يُقال أنه كان يحدث في أراضٍ بعيدة. وأكثر من ذلك، لقد دفعتهم الرغبة في الاستمتاع إلى إزعاج منافسيهم، أهل البر، أولئك الصيادين من كاتارّوخا الذين سخروا من طفل پالمار، مستهينين بصغر حجمه. وقد ذهب هؤلاء الأعداء الذين ليس لديهم إيمان أو ضمير إلى حد القول عن أعدائهم من پالمار أنهم أغرقوا شفيعهم الإلهي في التُّرع عندما لم يكن الصيد جيدًا. يا لتدنيس المقدسات! هذا هو السبب في أن الطفل يسوع عاقب لسانهم الخاطئ، ولم يسمح لهم بالتمتع بامتياز ورق السحب.

كانت پالمار بأكملها تستعد للاحتفالات. تحدث النساء البرد وعبرن البحيرة للذهاب إلى بلنسية لحضور معرض عيد الميلاد. عندما عدن في قوارب أزواجهن، كان الصِّبية الذين نفد صبرهم ينتظرونهم على القناة، متحمسين لرؤية الهدايا. وقد احتفى الصغار بالخيول المصنوعة من الورق المقوى، والسيوف التي كانت من الصفيح، والطبول، والأبواق بحماسة صاخبة، بينما عرضت النساء على صديقاتهن أهم المشتريات. استمرت الاحتفالات ثلاثة أيام. في اليوم الثاني من عيد الميلاد، وصلت موسيقى كاتارّوخا وتم سحب القرعة على أسمن أنقليس طوال العام للمساعدة في النفقات. وكان الثالث عيد الطفل يسوع، وفى اليوم التالي عيد المسيح. كل ذلك مع القداسات والخطب الدينية والرقصات الليلية على صوت الدف والناي.

كانت نِلِتا تنوي الاستمتاع بالاحتفالات هذا العام كما لم يحدث من قبل. كانت سعادتها كاملة. كان يبدو أنها تعيش في ربيع أبدي خلف منضدة الشراب في الحانة. كانت تعتبر نفسها أسعد النساء وهي تتناول العشاء، مع كانيامِل من جهة والكوبي من جهة أخرى، والجميع هادئ وراضٍ، في سلام العائلة المقدس، وأثنت على رحمة الرب الذي يسمح للأشخاص الجيدين العيش في سعادة دائمة. كانت الأغنى والأجمل في القرية. كان زوجها سعيدًا. ويظهر تونِت، الخاضع لإرادتها، أكثر عشقًا... ما الذي بقي لتتمناه؟ كانت تعتقد أن السيدات العظيمات اللاتي رأتهن من بعيد في رحلاتها إلى بلنسية لم يكن بالتأكيد سعيدات مثلها في تلك الزاوية الطينية المحاطة بالمياه.

كانت عدواتها تتهامسن. كانت لاساماروكا تتجسس عليها. فاضطرت هي وتونِت، من أجل رؤية بعضهما على انفراد، دون إثارة الشكوك، إلى اختلاق رحلات إلى البلدات القريبة من البحيرة. كانت نِلِتا هي من شحذت ذكاءها من أجل هذا، بطلاقة لسان جعلت الكوبي يشك إذا كانت النميمة عن تجارب حب سابقة لها صحيحة حتى أن صاحبة الحانة اعتادت على مثل هذه الحيل. لكنها كانت هادئة أمام الافتراءات. فما كانت تقوله عدواتها الآن كان هو نفسه ما قالتهن عندما لم تتبادل هي وتونِت أكثر من كلمات غير هامة. ومع يقينها من أنه لا يمكن لأحد إثبات خطئها، فقد استهانت بالنميمة، وفي وسط الحانة كانت تمزح مع تونِت بطريقة تثير استنكار العم پالوما. استاءت نِلِتا. ألم ينشأا معًا؟ ألا تستطيع أن تحب تونِت مثل أخيها، وتتذكر كم

فعلت والدته معها؟ وافق كانيامِل مشيدًا بمشاعر زوجته الطيبة. لكن لم يتفق معها صاحب الحانة كثيرًا على سلوك تونِت كشريك. ذلك الشاب كان قد رحب بحظه كما لو كان جائزة يانصيب، وبما أنه لا يؤذي أحدًا ويلتهم ما يخصه، كان يستمتع، دون قلق بشأن الصيد. كان موقع سِكيوتا يعطي حصيلة جيدة. لم يكن الصيد رائعًا كما كان فيما مضى، ولكن كانت هناك ليالٍ وصلوا فيها إلى ما يقرب من مائة أروبا من الأنقليس، وكان كانيامِل يعقد صفقات رابحة، ويساوم على السعر مع موردي المدينة، ويراقب الوزن ويشاهد شحن السلال. في هذا الجانب لم تكن الشراكة سيئة، لكنه كان يحب المساواة: أن يؤدي كل شخص واجبه دون أن يسيء إلى الآخرين. لقد تعهد بأمواله ومنحها له: كان ما يخصه كل الشباك والعتاد والأكياس الشبكية، التي يمكن أن تُكوِّن كومة كبيرة مثل الحانة. لكن تونِت وعده بمساعدته في عمله، ويمكن القول إنه لم يمسك بأنقليس واحد بعد في يديه الآثمتين. في الليالي الأولى ذهب إلى موقعه، وجلس في القارب، والسيجار في فمه، يشاهد كيف يُفرغ جده والصيادون المستأجرون الأكياس الكبيرة في الظلام، ويملئون قاع القارب بالأنقليس وسمك التنش. وبعد ذلك، لم يفعل حتى هذا. كان منزعجًا من الليالي المظلمة والعاصفة، التي يكون فيها الماء متقلبًا فيحصل على صيد كبير، لم يكن يعجبه الجهد الذي كان يبذله لسحب الشباك الثقيلة والمكتظة، حيث تسبب له لزوجة الأنقليس التي تُقطر من بين يديه بعض الاشمئزاز، وكان يفضل البقاء في الحانة أو النوم في كوخه. قرر كانيامِل، ليشجعه ويقدم له نموذجًا جيدًا، ويؤنبه

بسبب كسله، الذهاب في بعض الليالي إلى موقعه، وهو يسعل ويشكو من آلامه، لكن الملعون، اكتفى بأن يقدم كانيامِل هذه التضحية وأظهر تصميمًا أكبر على البقاء، ووصلت وقاحته إلى أن يُصرح أن نِلِتا ستكون خائفة إذا ظلت وحدها في الحانة.

صحيح أن العم پالوما كان كافيًا لإنجاح هذا العمل: فلم يكن يعمل أبدًا بمثل هذا الحماس عندما صار مالك سِكيوتا، لكن يا له من شيطان! التجارة هي التجارة، وبدا لكانيامِل أن الصبي كان يسرق منه شيئًا وهو يراه راضيًا للغاية عن الحياة ومنفصلًا تمامًا عن عمله.

كم هو محظوظ ذلك الصعلوك! كان الخوف من فقدان سِكيوتا هو الشيء الوحيد الذي سيطر على العم پاكو. في هذه الأثناء، كان تونِت، الذي يعيش في الحانة كما لو كانت ملكًا له، غارقًا في تلك السعادة المتمثلة في تلبية جميع رغباته بمجرد مد يده. كان يأكل أفضل ما في المنزل، كان يملأ كأسه من كل البراميل، الكبيرة والصغيرة، وأحيانًا كان يتجرأ، بدافع مجنون ومفاجئ، كما لو كان يريد أن يؤكد تملكه أكثر، على مداعبة نِلِتا تحت المنضدة، في حضور كانيامِل وعلى بُعد أربع خطوات من الزبائن، الذين كان مِن بينهم مَن لم يغفل عنهما. كان يشعر أحيانًا برغبة جنونية في مغادرة پالمار، لقضاء يوم خارج ألبوفيرا، في المدينة أو في القرى المطلة على البحيرة، وكان يقف أمام نِلِتا مع تعبير السيد:

- أعطني ريالًا.

ريالًا! ولماذا؟ كانت تحدق فيه عينا صاحبة الحانة الخضراوان بعنفٍ وبقوةٍ، وتنهض بتعجرف الزانية التي لا تريد أن تنخدع بدورها،

لكن عندما ترى في نظرات الشاب الرغبة فقط في التجول، في تنشيط حياته كرجل يُسمّن جيدًا، تبتسم نِلِتا برضى وتعطيه قدرًا من المال كما طلب، وتوصيه بالعودة قريبًا.

كان كانيامِل ساخطًا. فيمكن تحمل ذلك لو أنه كان ينتبه إلى العمل، لكن لا: لقد كان يعرض مصالحه للخطر، وإلى جانب أنه كان يأكل نصف الحانة، يطلب فوقها المال! كانت زوجته طيبة للغاية؛ لقد أضاعها امتنانها الذي كانت تعلنه لعائلة پالوما منذ الطفولة. وبدقة بخيل، كان يحكي ما كان تونِت يستهلكه في المتجر والسخاء الذي كان يدعو به أصدقاءه، على حساب المالك دائمًا. حتى سانجونِرا، ذلك المُقمّل المطرود من الحانة لأنه ملأ الكراسي بالبؤس، عاد الآن تحت حماية الكوبي، الذي كان يجعله يشرب حتى السُّكر، ويستخدم زجاجات الخمور، الأغلى، كل ذلك لمتعة سماع الحماقات التي كان يختلقها خادم الكنيسة في قراءاته. قال صاحب الحانة شاكيًا إلى زوجته نِلِتا: «ذات يوم سيستولي على سريري». ولم يعرف الرجل البائس كيف يقرأ تلك العينين، ولم ير الابتسامة الشيطانية في نظرة الخبث التي استقبلت بها مثل هذا الافتراض.

عندما كان تونِت يسأم من وجوده في الحانة طوال أيام، جالسًا بجوار نِلِتا، مثل الجرو الذي ينتظر اللحظة المناسبة لمداعباته، كان يأخذ البندقية وكلبة كانيامِل ويذهب إلى حقول القصب. كانت بندقية العم پاكو الأفضل في پالمار: سلاح الرجل الثري، الذي كان تونِت يعتبره ملكه، والذي كان نادرًا ما يخفق به. كانت الكلبة هي ثِنتيا

المشهورة، والمعروفة في جميع أنحاء البحيرة بحاسة الشم خاصتها. لا توجد قطعة تفلت منها، مهما كانت كثافة حقول القصب، تغوص مثل ثعالب الماء لإخراج الطائر الجريح من قاع الأعشاب المائية الضارة.

كان كانيامِل يؤكد أنه لا يوجد في العالم مال يمكنه شراء هذا الحيوان منه، لكنه كان يرى بحزن أن كلبته ڤِنتيا كانت تُظهر ميلًا أكبر لتونِت، الذي كان يأخذها معه إلى القنص كل يوم، مقارنةً بسيدها القديم، المغطى بالمناديل والبطانيات بجوار النار. حتى الكلبة استولى عليها هذا الوغد!

كان تونِت، المتحمس بسبب «تجهيزات» العم پاكو الرائعة من أجل القنص، يستهلك ذخيرة الخراطيش المخزنة في الحانة للقناصين. لم يقنص أحد من پالمار بهذا القدر. في أزقة المياه الضيقة وسط الشجيرات الأقرب إلى المدينة، كان صوت بندقية تونِت يُدوِّي باستمرار، وكانت ڤِنتيا، المتحمسة بسبب العمل، تخوض في حقول القصب. كان الكوبي يشعر بشهوانية شرسة في هذا التمرين، الذي كان يذكره بأوقاته كرجل حرب عصابات. كان يتربص بانتظار الطيور، بالاحتياطات الهمجية الماكرة نفسها التي كان يستخدمها عند نصب كمين في الأدغال لاصطياد الرجال. كانت ڤِنتيا تُحضر البط البري وطيور الغُرة إلى القارب: برقاب لينة وريش ملطخ بالدماء. ثم كانت تأتي طيور البحيرة الأقل شيوعًا، والتي كان صيدها يملأ تونِت بالرضى، وقد كان معجبًا بديك القصب، ذي الريش الكحلي والمنقار الأحمر، وهو ميت في قاع القارب، البلشون الأرجواني، بلونه الأخضر والأرجواني

وخصلة من الريش الطويل والضيق على الرأس، البلشون الذهبي، بلونه الأشقر وحوصلته الحمراء، صواي أوراسيا أو بطة فلورنتينو، البيضاء والصفراء، بط الأسقطور، برأس أسود مع انعكاسات ذهبية، كروان الماء، الجميل طويل الساق، مع ريش رائع من الأخضر اللامع.

في الليل كان يدخل الحانة بمظهر المنتصر، ويُلقي على الأرض بحمولته من اللحوم الميتة التي يغلف ريشها قوس قزح. كان هناك لدى العم پاكو أشياء لملء القدر! أهداها له بسخاء: ففي النهاية كانت بندقيته. وعندما كان يصطاد من وقت لآخر طائر فلامنجو يُطلق عليه أهل ألبوفيرا براجات، له سيقان ضخمة، عنق طويل، ريش أبيض ووردي ومظهر غامض، شبيه بطائر أبي منجل في مصر، كان تونِت يُصر على أن يحنطه كانيامِل في بلنسية من أجل غرفة نومه، فهو زينة أنيقة، حيث كان يبحث عنه أسياد المدينة كثيرًا لسببٍ ما.

كان صاحب الحانة يستقبل هذه الهدايا بزمجرة كانت تُظهر رضى نسبيًّا. متى سيترك بندقيته هادئة؟ ألم يكن يشعر بالبرد في حقول القصب؟ ما دام قويًّا جدًّا، لماذا لا يساعد جده في العمل؟ لكن اللعين كان يستقبل نحيب صاحب الحانة المريض بالقهقهات. ويتجه إلى المنضدة.

– نِلِتا، كأس...

كان يقضي النهار بين حقول القصب، ويداه الباردتان على البندقية، ليظفر بتلك الكومة من اللحم ويحضرها. وما زالوا يتهامسون أنه يهرب من العمل! في نوبة من الوقاحة السعيدة، قام بمداعبة خدي نِلِتا على

المنضدة، غير مهتم بوجود الناس ولا خائف من زوجها. ألم يكونا مثل الأخوين ولعبا معًا وهما طفلان؟

كان العم توني لا يعرف شيئًا ولا يريد أن يعرف عن حياة ابنه. كان ينهض قبل الفجر ولا يعود حتى الليل. كان يأكل مع لابوردا، في عزلة حقوله المغمورة، بعض السردين وكعكة الذرة. لقد أبقاه كفاحه من أجل إنشاء أرض جديدة في فقر، ولم يسمح له بطعامٍ أفضل. عند عودته إلى الكوخ، المغلق في الليل، كان يتمدد على فِراشه مع آلام العظام، غارقًا في سبات من الإعياء، لكن فكره كان يسهر ليحسب بين ضباب النوم قوارب التراب التي تنقص حقوله والمبالغ التي تُرضي الدائنين قبل أن يعتبر نفسه صاحب بعض حقول الأرز التي أنشأها من أولها إلى آخرها بعرق. كان العم پالوما يمضي معظم لياليه خارج الكوخ، وهو يصطاد في سِكيوتا، ولم يكن تونِت يأكل مع العائلة. كان في الساعات الأولى فقط، عندما تكون حانة كانيامِل مغلقة، يركل الباب كالمتململ، فيوقظ المسكينة لابوردا الناعسة والمتعبة، لتفتح له. هكذا مر الوقت، حتى حانت احتفالات پالمار. عشية مهرجان الطفل، في المساء، كانت المدينة تقريبا بأكملها تتكدس بين ضفة القناة والباب الخلفي لحانة كانيامِل.

كانت موسيقى كاتارّوخا المرجوة هي الحافز الرئيس للاحتفالات، وكانت تلك المدينة، التي لم تكن تسمع خلال العام آلات أخرى غير جيتار الحلاق وأكورديون تونِت، تهتز عند التفكير في صخب آلات النفخ النحاسية ودق الطبل بين صفوف الأكواخ. لم يكن يشعر أحد بقسوة درجة الحرارة. تخلت النساء عن شالاتهن

الصوفية، لكي تستعرضن بدلاتهن اللامعة، وأظهرن أذرعهن المُشمرة الضاربة إلى اللون البنفسجي من البرد. كان الرجال يرتدون أحزمة جديدة وقبعات حمراء أو سوداء لا تزال بها طيات المتجر. كانوا يهربون إلى الحانة، مستغلين ثرثرة رفيقاتهم، حيث شكلت أنفاس الشاربين ودخان السيجار أجواء كثيفة تفوح منها رائحة الصوف الخشن والأحذية الكتانية القذرة. كانوا يتحدثون بصوتٍ أشبه بالصراخ بسبب موسيقى كاتارّوخا، مؤكدين أنها كانت الأفضل في العالم. كان الصيادون هناك سيئين، لكن لا بد من الاعتراف أن موسيقى كتلك لا يسمعها حتى الملك. كان يجب أن يكون هناك شيء جيد لفقراء البحيرة. وعندما لُوحظ احتشاد الناس على ضفة القناة، وهم يطلقون الصرخات معلنين قرب الموسيقيين، خرج جميع الزبائن على عجل وبقيت الحانة فارغة.

مر فوق القصب طرف شراع كبير. عندما ظهر القارب الذي يقود الموسيقى عند منعطف القناة، أطلق الحشد الصرخات، كما لو كان مُثارًا من رؤية البنطال الأحمر والريش الأبيض الذي كان يرفرف فوق الخوذات العالية الصغيرة.

كان صِبيان القرية يتصارعون، اتباعًا للتقاليد، من أجل الاستحواذ على الطبل. توغل الشباب في داخل المياه في قناة من الجليد السائل، وغرقوا حتى صدورهم بجرأة مما جعل أولئك الموجودين على الضفة تصطك أسنانهم. واحتجت العجائز قائلة:

– أيها الملاعين! سوف تصابون بالتهابٍ رئوي!

لكن الأولاد كانوا يقفزون إلى القارب، ويتشبثون بحافته، وسط ضحكات الموسيقيين، وهم يقاتلون من أجل تسليم الآلة الضخمة لهم: «إليّ! إليّ!». حتى يقبض الشخص الأكثر جرأة، الذي سئم من السؤال، بقوة على الطبلة الكبيرة ويسحبها إلى الماء ويُلقي بها على كتفه، فيخرج من التُّرعة، يتبعه رفاقه الحاسدون.

عندما نزل الموسيقيون، اصطفوا أمام منزل كانيامِل. أخرجوا من الأكياس آلاتهم، دوزنوها، وتابع الحشد المتراص الموسيقى، صامتًا وببعض التبجيل، معجبًا بذلك الحدث الذي ينتظرونه طوال العام. عندما بدأ عزف رقصة الباسو دوبلِ، شعر الجميع بالارتباك والغرابة. تأثر سمعهم، الذي اعتاد على الصمت العميق للبحيرة، بشكلٍ مؤلمٍ بضجيج الآلات، مما جعل جدران الأكواخ الطينية تهتز. لكن بعد هذه المفاجأة الأولى التي أزعجت الهدوء الشديد للبلدة، ابتسم الأهالي بلطف، تداعبهم الموسيقى التي كانت تصل إليهم مثل صوت من العالم البعيد، مثل عظمة الحياة الغامضة التي تطورت وراء مياه ألبوفيرا. تحركت عواطف النساء دون معرفة السبب، وأردن البكاء. كان الرجال يسيرون، وقد انتصبت ظهور المراكبية المحنية، في مشية عسكرية خلف الفرقة، وكانت الفتيات تبتسمن لخُطابهن، بأعين مشرقة وخدود ملونة. كانت الموسيقى تمر مثل اندفاع من الحياة الجديدة إلى هؤلاء الناعسين، فتخرجهم من غفوة المياه الراكدة. كانوا يصرخون دون معرفة السبب، ويهتفون للطفل يسوع، ويركضون في مجموعات صاخبة أمام الموسيقيين، حتى كبار السن كانوا نشيطين ومرحين مثل الصغار الذين

شكلوا، مع سيوفهم وخيولهم الصغيرة المصنوعة من الورق المقوى، موكبًا للموسيقيّ الأكبر سنًّا، الذي كانوا معجبين بشرائطه الذهبية.

مرت الفرقة وعادت إلى الشارع الوحيد في پالمار عدة مرات، وأطالت الطريق حتى شعر الجمهور بالرضى، حيث دخلت الأزقة بين الأكواخ وخرجت إلى القناة للعودة مرة أخرى إلى الشارع، وتبعتها المدينة بأكملها في هذه التحركات وهي تدندن بصوتٍ عالٍ أكثر المقاطع حيوية من الباسو دوبلِ. أخيرًا، كان لا بد من إنهاء هذا الهذيان الموسيقي، وتوقفت الفرقة في الساحة أمام الكنيسة. شرع العمدة في تسكين الموسيقيين. تنافست الجارات وفقًا لأهمية الآلات، وسلك الشخص المسؤول عن الطبلة، مسبوقًا بصندوقه الضخم، الطريق إلى أفضل منزل. كان الموسيقيون، الذين كانوا راضين عن لمعان زيهم الرسمي، يتدثرون ببطانيات الفلاحين، وهم يلعنون برودة پالمار الرطبة. ومع تشتت الفرقة، لم يتفرق الحشد الذي كان في الساحة. في أحد أطرافها، بدأت تُقرع الطبول الصغيرة، وبعد ذلك بقليل أُعلن عن الناي ذي المقامات الطويلة التي بدت وكأنها شَيطنة موسيقية. صفق الجمهور. كان ديموني، عازف الناي الشهير طوال سنوات: هو رفيق مرح، مشهور بسكره مثل مهارته في الناي. كان سانجونِرا أفضل صديق له، وعندما كان يأتي عازف الناي إلى الاحتفالات، لم يكن المشرد يتركه للحظة، مدركًا أنهما في النهاية سيشربان مع بعضهما بشكلٍ أخويّ من مال لجنة الاحتفال.

كان السحب سيتم على أسمن أنقليس في العام للمساعدة في الاحتفال. كانت عادة قديمة يحترمها جميع الصيادين. كان أحدهم يأخذ الأنقليس الضخم، ويحتفظ به في مسكنه دون أن يجرؤ على بيعه. وإذا قام شخص ما باصطياد آخر أكبر، فسيحتفظ به، ويمكن لمالك الأنقليس السابق التخلص منه. وبهذه الطريقة، كانت لجنة الاحتفال تمتلك دائمًا أكبر ما يتم اصطياده في ألبوفيرا. هذا العام، ذهب تكريم الأنقليس السمين إلى العم پالوما: لسببٍ ما كان يصطاد في الموقع الأول. اختبر العجوز واحدة من أعظم إرضاءات حياته عندما قام بإظهار الحيوان الرائع للجمهور في الساحة. كان ذلك ما اصطاده هو! وعلى ذراعيه المرتعشتين كان يُظهر الثعبان ذا الظهر الأخضر والبطن الأبيض، السميك مثل الفخذ ذي الجلد الدهني الذي كان يتكسر عليه الضوء. كان لا بد أن تطوف القطعة الشهية في جميع أنحاء القرية على صوت الناي، بينما كان أكثر الأفراد احترامًا في المجتمع يبيع أرقام السحب من بيت إلى بيت. قال المراكبي وهو يرمي الحيوان بين ذراعي سانجونِرا:

– هاك! اعمل لمرة واحدة.

سار المتشرد، فخورًا بالثقة التي وضعها فيه، والأنقليس بين ذراعيه، يتبعه الناي والطبلة وتحيط به شيطنة وصرخات الصِّبية. كانت النساء تركضن لرؤية الوحش الضخم عن قرب، ولمسه بإعجاب ديني، كما لو كان إله بحيرة غامضًا، وقد صدهن سانجونِرا بجدية. «بعيدًا، بعيدًا!» كن سيفسدونه بكثرة لمساتهن!

لكن عندما وصل أمام منزل كانيامِل، فكر أنه قد حظيَ بالكثير من الإعجاب الشعبي. آلمته ذراعاه، الضعيفتان من الكسل. لقد فكر أن الأنقليس لم يكن له، فقام بتسليمه إلى الصِّبية، ودخل إلى الحانة، تاركًا الحيوان البهيّ يتقدم إلى الأمام، مثل تذكار النصر. كان في الحانة القليل من الجمهور. كانت نِلِتا خلف المنضدة، مع زوجها والكوبي، يتحدثون عن احتفال اليوم التالي. كان أعضاء لجنة الاحتفال، وفقًا للعرف، هم الفائزون بأفضل المراكز في قرعة أوراق السحب، وقد حصل تونِت وشريكه على المكان الأفضل. فجهزا بدلتين سوداوين في المدينة لحضور القداس الكبير على المقعد الأول، وكانا مشغولين بمناقشة استعدادات العيد.

في اليوم التالي، سيصل على متن قارب البريد الموسيقيون، المغنون وراهب مشهور بفصاحته ألقى خطبة الطفل يسوع، ممتدحًا بالمناسبة بساطة وفضائل صيادي ألبوفيرا.

كانت هناك عبّارة على شاطئ دِئِسا، محملة بالآس والريحان لنثره في الساحة، وفي ركن من الحانة، كان يحتفظ صانع البارود بعدة قُفف من الألعاب النارية؛ مفرقعات من الحديد كانت تنفجر مثل طلقات المدفع.

وقت بزوغ فجر اليوم التالي، اهتزت البحيرة بضجيج الألعاب النارية، كما لو كانت معركة دارت في پالمار. بعد ذلك، احتشد الناس عند القناة، وهم يقضمون الخبز الذي كان بداخله وجبات الغداء الخاصة بهم. كانوا ينتظرون الموسيقيين الذين أتوا من بلنسية، وقد أثنوا

على روعة لجنة الاحتفال. لقد نظم حفيد العم پالوما الأمور جيدًا! ليس غريبًا أن تكون أموال كانيامِل في متناول يده! عندما وصل قارب البريد، نزل الواعظ أولًا على الأرض، راهب سمين، مع كيس لونه أحمر دمشقيّ كان يحوي ثيابه الكهنوتية من أجل المنبر. سارع سانجونِرا، مدفوعًا بلطفه القديم كخادم كنيسة، إلى رعاية الأمتعة الخاصة بالخطبة، ووضعها على ظهره. ثم قفز أفراد الجوقة الموسيقية على الأرض: المنشدون ذوو الوجوه النهمة والشعر المجعد، الموسيقيون وهم يحملون تحت أذرعهم آلات الكمان والمزامير المغطاة بقماش من اللون الأخضر، والمغنون المنفردون، مراهقون شاحبون وغائرو الأعين، مع ملمح من المكر المبكر. كان الجميع يتحدث عن أكلة الثوم والفلفل الشهيرة التي كانت تُطبخ في پالمار، كما لو أنهم قاموا بالرحلة لتناول الطعام فقط.

سمح لهم الناس بدخول المدينة دون أن يتحركوا من على الضفة. لقد أرادوا رؤية الآلات الغامضة الموضوعة بجانب صارية القارب عن كثب، حتى أن بعض الشباب بدأوا في زحزحتها. أثارت النقّارات[1]، عندما نُقلت على الأرض، الدهشة، وكان الجميع يتجادل مع العامل أن تلك القدور تشبه القدور التي يستخدمونها لطهي السمك. حصلت الكمانات الجهيرة على التهليل، وركض الناس حتى الكنيسة وهم يتبعون حاملي «القيثارات السمينة».

بدأ القداس في الساعة العاشرة. تعطرت الساحة والكنيسة بالنباتات

(١) النقّارات: جمع نقّارة، وهي طبل صغير على شكل قِدر وله جلد مشدود يُنقر عليه.

العطرية لدِئِسا. اختفى الطين تحت طبقة سميكة من الأوراق. كانت الكنيسة مليئة بالشموع الصغيرة والكبيرة، ومن المدخل كانت تبدو مثل سماء مظلمة منقطة بالنجوم اللا نهائية.

حضّر تونِت الأمور جيدًا، حتى أنه اعتنى بالموسيقى التي ستُغنى في الحفلة. لم يكن أي من القداسات مشهورًا مما جعل الناس تنام. كان ذلك جيدًا بالنسبة لأولئك الذين كانوا من المدينة المعتادين على الأوبرا. في پالمار كانوا يريدون قداس مِركادانتِ، كما هو الحال في جميع مدن بلنسية.

خلال الحفل، كانت النساء متأثرات وهن يستمعن إلى الأصوات الصداحة، التي كانت تغني أغاني نابولية للبحريّين تكريمًا للطفل يسوع، بينما كان الرجال يتبعون إيقاع الأوركسترا، الذي كان مليئًا بالحيوية في رقصة الفالس، بحركات رؤوسهم. كان ذلك يَسُر الروح، كما قالت نِلِتا: كان الأمر أفضل من عرض مسرحي، وقد أُلهمت الروح. وفي هذه الأثناء، في الخارج، في الساحة، يذهب رعد ويأتي رعد، كانت الصفوف الطويلة من الألعاب النارية تنطلق ، فتهتز جدران الكنيسة وتُقطع عدة مرات أغنية الفنانين وكلمات الواعظ.

عند الانتهاء، توقف الحشد في الساحة في انتظار وقت الطعام. بدأت الفرقة الموسيقية، المنسية إلى حدٍّ ما بعد روعة القداس، في العزف بقوة. كان الناس يشعرون بالرضى في ذلك الجو من النباتات العطرية ودخان البارود، وفكروا في القِدر التي كانت تنتظرهم في منازلهم مع أفضل طيور ألبوفيرا.

بدا الآن أن بؤس حياتهم السابقة من عالم بعيد لن يعودوا إليه. اعتقد كل أهل پالمار أنهم دخلوا السعادة والوفرة إلى الأبد، وعلقوا على العبارات الفخمة للواعظ المخصصة للصيادين، ونصف الأوقية التي أعطوها له من أجل الخطبة، وقُفة المال التي كلفها الموسيقيون بالتأكيد، البارود، قطع القماش ذات الشرائط الذهبية والملطخة بالشمع التي كانت تزين بوابة الكنيسة، وتلك الفرقة التي أصمتهم بزئيرها العسكري.

كانت المجموعات تهنئ الكوبي، المتيبس في بدلته السوداء، والعم پالوما الذي كان يُعتبر صاحب پالمار ذلك اليوم. كانت نِلِتا تتبختر بين النساء، مرتدية الطرحة الجميلة على عينيها، تُنيرها مسبحة من اللؤلؤ وكتاب صلاة من العاج خاص بزواجها. لم يكن أحد يتذكر كانيامِل، على الرغم من مظهره المهيب وسلسلة الذهب الكبيرة التي كانت تقطع بطنه. وكأن ماله لم يدفع ثمن الاحتفال: ذهبت كل التهاني إلى تونِت، بصفته مالك سِكيوتا. بالنسبة لهؤلاء الأشخاص، فإن أي شخص ليس من مجتمع الصيادين لا يستحق الاحترام. وشعر صاحب الحانة أن الكراهية تجاه الكوبي تنمو بداخله، فقد كان يستولي تدريجيًّا على ما يخصه.

هذا المزاج السيئ رافقه طوال اليوم. كان على زوجته، وهي تخمن حالته الذهنية، أن تبذل جهودًا طيبة خلال الوجبة الضخمة التي قدمها للواعظ وللموسيقيين في الطابق العلوى من الحانة. كان المسكين پاكو يتحدث عن مرضه، الذي جعله في مزاج شيطاني عدة مرات، متوسلًا

إلى الجميع أن يغفروا له. في منتصف فترة المساء، عندما ذهب قارب البريد بأهل بلنسية، كان كانيامِل غاضبًا، ولما رأى نفسه وحيدًا مع زوجته، تمكن من إطلاق كل سخطه.

لن يتسامح أكثر مع الكوبي. لقد تفاهم مع جده جيدًا، كونه رجلًا مجتهدًا يُوفي بالتزاماته، لكن ذلك التونِت كان شخصًا كسولًا، يسخر منه، ويستغل أمواله ليمنح نفسه حياة أمير، دون أي مزايا أخرى غير ثروته في قرعة الجمعية، حتى إنه سلب منه القليل من الرضى الذي كان من الممكن أن يجلبه إنفاق الكثير من المال في الاحتفال. شكروا الآخر على كل شيء، وكأن كانيامِل لا أحد، كما لو أنه لم يُخرِج من جيبه المال لاستغلال موقع ورقة السحب وكل حصيلة الصيد ليست مستحقة له. سيُنهي هذا بطرد ذلك المتشرد من منزله، حتى لو فقد عمله معه. تدخلت نِلِتا خائفة من التهديد. أوصته بالهدوء، كان لا بد أن يتذكر أنه هو من بحث عن تونِت. بالإضافة إلى ذلك، كانت هي تنظر إلى عائلة پالوما كعائلة لها: لقد قاموا بحمايتها في الأوقات العصيبة.

لكن كانيامِل، بعناد طفل، يكرر تهديداته. مع العم پالوما، حسنًا: كان على استعداد للذهاب إلى كل مكان. لكن إما أن ينصلح تونِت أو ينفصل عنه. كل واحد في مكانه. لم يكن يريد تقسيم مكاسبه مع ذلك المتبجح الذي يعرف فقط كيف يستغله هو والجد المسكين. لقد كلفه المال كثيرًا ليجنيه، ولن يتسامح مع سوء المعاملة.

اشتد الخلاف بين الزوجين حتى أن نِلِتا بكت، وفى الليل لم ترغب في الذهاب إلى الساحة حيث يُقام الرقص. كانت تُضيء الساحة مشاعل

من الشمع تُستخدم وقت الجنازات في الكنيسة. لعب ديموني بِنَايه رقصة تقابلية قديمة في بلنسية، أو رقصة التشاكيرا أو رقصة تورينتِ، ورقصت فتيات پالمار بشكلٍ احتفالي، ممسكين بأيدي بعضهما، يتبادلن شركائهن، الذين كانوا مثل سيدات بشعرٍ مستعار مغبر يتنكرن في ملابس الصيادين ليرقصن رقصة الباڤانا على ضوء المشاعل. ثم أتت رقصة واحد واثنان، وهي رقصة أكثر حيوية، يتحركون على مقاطع مزدوجة، وكان الأزواج يقفزون بخفة، فتحدث عاصفة من الصراخ والصهيل عندما تُظهر إحدى الفتيات، وهي تلف مثل الدوامة، جواربها تحت العجلة المتموجة من تنانيرهن.

قبل منتصف الليل، فرق البرد الاحتفال. رجعت العائلات إلى أكواخها، لكن بقي في الساحة الشباب، الناس المبتهجون والشجعان، الذين أمضوا أيام الاحتفال الثلاثة في حالة سُكر مستمر. كانوا يُظهرون بندقية الصيد أو بندقية قصيرة على الكتف، كما لو كان قضاء وقت ممتع في بلدة صغيرة، حيث يعرف الجميع بعضهم البعض، يقتضي امتلاك السلاح في متناول أيديهم. عُزفت أغاني الفجر. ووفقًا للعادات المتعارف عليها، كان لا بد من قضاء الليل والقرية تركض من بيت إلى بيت، وتغني تكريمًا لجميع الشابات والعجائز في پالمار، ولهذه المهمة كانت قِربة من النبيذ وعدة زجاجات من العَرَق تحت تصرف المغنين. تعهد بعض الموسيقيين من كاتارّوخا، فتيان ذوو نوايا حسنة، بالانضمام إلى ناي ديموني بآلاتهم النحاسية، وبدأت سريناد الفجر تجوب في الليل المعتم والبارد، مسترشدين بمشعل راقص.

كان جميع شباب پالمار يسيرون، بسلاحهم القديم على أكتافهم، في مجموعة ضيقة خلف عازف الناي والموسيقيين، الذين كانوا يمسكون بآلاتهم بالبطانية خوفًا من ملامسة المعدن البارد. كان سانجونِرا آخر الموكب يحمل قِربة النبيذ. فكر بتردد أن الوقت قد حان لوضع عبئه على الأرض وإعداد كأس «للانتعاش».

بدأ أحد المغنين المقطع، غنى أول بيتين يصاحبه اهتزاز الطبلة الصغيرة، وأجابه آخر وأكمل الرباعية. بشكلٍ عام، كان البيتان الأخيران الأكثر خبثًا، وبينما الناي والآلات النحاسية تؤدي نهاية المقطع بلازمة صاخبة، كان الشباب يتدفقون بصيحات وصهيل حاد وكانت بنادقهم القصيرة تُطلق طلقات للتحية في الهواء.

لم ينم أحد في پالمار تلك الليلة! كانت النساء يتخيلن تقدم السريناد، من السرير، وهن يرتجفن من الجلبة وإطلاق النار، وكن يخمِّن مروره من بيت إلى آخر بالتلميحات المُذلة التي كانوا يحيّون بها كل جار.

في إحدى الزوايا، تشاجر شابان حول مَن منهما يشرب أولًا، وبعد صفع بعضهما البعض، ابتعدا بضع خطوات، مصوبين بنادقهما إلى بعضهما. تدخل الجميع، ومن كثرة الضرب تركا سلاحهما. إلى النوم! لقد أضرهما النبيذ: يجب أن يذهبا إلى الفراش! وواصل من يغنون أغاني الفجر غناءهم وصهيلهم. كانت هذه الحوادث ممتعة: كانت تحدث كل عام. بعد ثلاث ساعات من التجول البطيء في القرية، كان الجميع في حالة سُكر. بدا ديموني، برأسه الثقيل وعينيه المغمضتين،

وكأنه يعطس في الناي، وكانت الآلة تتأوه بتردد وبترنح مثل ساقي العازف. أراد سانجونِرا الغناء، بعدما رأى القِربة فارغة تقريبًا، تصاحبه جوقة تردد باستمرار «بعيدًا، بعيدًا!» بين الصفير والصهيل، وكان يرتجل مقاطع غير مترابطة ضد "أثرياء" القرية. لم يتبق نبيذ، لكن كان الجميع يأمل في التوقف أمام منزل كانيامِل في منتصف رحلتهم، حيث يمكنهم تجديد المؤونة. بالقرب من الحانة، المظلمة والمغلقة، وجد مغنو أغاني الفجر تونِت وهو ملفوف في البطانية حتى عينيه ويظهر من تحتها فم البندقية القصيرة. يخشى الكوبي من طيش هؤلاء الناس، كان يتذكر ما فعله في ليالٍ مشابهة، وظن أن حضوره قد يحتويهم.

بدا الموكب، المثقل بالسُّكر وبالإرهاق، وكأنه يستعيد حياة جديدة أمام منزل كانيامِل، كما لو أن عطر البراميل يصل إلى الجميع من خلال شقوق الباب. غنى أحدهم أغنية تتسم بالاحترام للسيد پاكو، وهو يتملقه ليفتح، ووصفه بأنه "زهرة الأصدقاء" ووعد بود الجميع إذا ملأ القِربة. لكن البيت ظل صامتًا: لم تتحرك النافذة. لم يكن هناك أدنى ضوضاء بداخله. في المقطع الثاني، كانوا يتحدثون عنك بالفعل أيها الكانيامِل المسكين، وكان صوت المغنين يرتعش مع بعض الغيظ الذي كان يتوعد بإطلاق وابل من الوقاحة.

بدا تونِت قلقًا. قال لأصدقائه بلكنة أبوية:

- مهلًا! لا تفعلوا حماقات.

لكن الناس كانوا في حالة جيدة لسماعهم النصيحة! الأغنية الثالثة كانت لنِلِتا، «أظرف امرأة في پالمار»، متعاطفين معها لكونها متزوجة

من كانيامِل البخيل، «عديم الفائدة...». وبِدءًا من هذا المقطع، حُولت السريناد إلى وابلٍ سامٍّ من التلميحات الفاضحة. كان الحشد يتسلى. لقد وجدوا المقاطع أكثر إمتاعًا من النبيذ، وكانوا يضحكون على هذا التفضيل الذي يُظهره سكان الريف للتسلية على حساب المصيبة. فلو سُرق من صياد كيس شبك يستحق بضعة ريالات كان يستولي الغضب على الجميع ويكون لديهم قضية مشتركة، أما عندما تُسرق زوجة شخص ما منه يضحكون كالمجانين.

ارتعد تونِت من القلق والغضب. كان يريد في بعض الأحيان الفرار، وهو يستشعر أن رفاقه سيذهبون بعيدًا، لكن كبحه كبرياؤه، على أمل كاذب أن يكون وجوده بمثابة رادع.

– مهلًا! انتبهوا لما تفعلون!

قال بنبرة تهديد خافتة. لكن المغنين كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر فتيان القرية تمردًا. كانوا المشاغبين الذين وُلدوا بينما كان هو يتجول في أراضي ما وراء البحر. كانوا يريدون أن يوحوا بأنهم لا يخافون من الكوبي، وسخروا من توصياته، وابتدعوا على عجل مقاطع، كانوا يطلقونها مثل المقذوفات تجاه الحانة.

أغضب فتى، ابن أخ لاساماروكا، تونِت بشدة. غنى مقطعًا حول شراكة كانيامِل والكوبي، قائلًا إنهما لم يستثمرا معًا السِّكيوتا فحسب، بل تقاسما نِلِتا، وانتهى بقول إن صاحبة الحانة سيكون لها ميراث قريبًا والذي كانت تطلبه من زوجها دون جدوى.

قفز الكوبي واقفًا في منتصف الحلقة، وشوهد على ضوء الشعلة يرفع مؤخرة بندقيته، ويضرب وجه المغني. وبينما كان الأخير يفيق من صدمته، وهو يستعين ببندقيته، قفز تونِت إلى الخلف، وأطلق النار من الكاربين خاصته دون أن يصوب تقريبًا! لقد اندلع الشجار! ضاعت الرصاصة في الفضاء، لكن سانجونِرا اعتقد أنه سمع هديرها بجوار أنفه، وألقى بنفسه على الأرض وهو يطلق صراخات مخيفة.

- لقد مُت..! قاتل!

فُتحت نوافذ المنازل، وقد ألقت بظلالٍ بيضاء، ودفع البعض بماسورة بندقية الصيد على حافة النافذة.

جُرد تونِت من سلاحه في لحظة، ودفعته العديد من الأذرع، محاصرًا تجاه الحائط، وثار كالهائج، يكافح ليُخرج السكين الذي كان يحتفظ به في حزامه. كان يصرخ ولعابه يظهر من الغضب :

- أفلتني! أفلتني، سأقتل ذلك الوغد!

اختلط العمدة ومجموعته، الذين كانوا يتابعون أغاني الفجر عن كثب، مستشعرين بالفضيحة، بالمتقاتلين. بدأ الأب ميجيل، الذي كان يرتدي قلنسوة والكاربين، في توزيع ضربات بعقب البندقية بارتياح أنه يضرب دون عقاب وهو يمارس سلطته. حمل عريف شرطة التهريب تونِت إلى كوخه، وهدده ببندقية ماوزر، وتم وضع ابن أخ لاساماروكا في أحد المنازل لغسل الدم من عَقِب بندقيته.

سبّب سانجوزِرا المزيد من المتاعب. ظل يتدحرج على الأرض، ويصرخ مؤكدًا أنه مات. أعطوه آخر نبيذ من القِربة ليشجعوه، وأقسم المتشرد، الذي رضي بالعلاج، أنه انتقل من مكان إلى آخر ولا يستطيع النهوض، حتى خمن القِس النشيط حيله، وسدد له ركلتين صحيحتين، مما جعله يقف على قدميه على الفور.

أمر العمدة فرقة أغاني الفجر بمواصلة سيرها. كانوا قد غنوا بالفعل ما يكفي لكانيامِل. كان المسئول يشعر تجاه صاحب الحانة بهذا الاحترام الذي يوحي به الرجل الثري في القرية، وأراد أن يجنبه مشاكل جديدة.

ابتعد الغناء، وكأنه خائر القوى، كان ناي ديموني يقوم بعمل المقامات دون جدوى، حيث كان المغنون يشعرون، بعدما رأوا القِربة جافة، بانسداد الحلق.

كانت النوافذ مغلقة، والشارع مقفرًا، لكن اعتقد آخر الفضوليين أثناء انصرافهم أنهم سمعوا ضجيج أصوات في الطابق العلوي من الحانة، واصطدام أثاث، وشيء مثل بكاء امرأة بعيد يقطعه صرخات ألم مكتومة بصوتٍ غاضب. في اليوم التالي لم يكن هناك حديث في پالمار غير ما حدث في موكب أغاني الفجر أمام منزل كانيامِل.

لم يكن تونِت يجرؤ على الظهور في الحانة. كان يخشى الاقتراب نتيجة الموقف المحزن الذي وضعه فيه تهور أصدقائه. خلال الصباح كان يتجول في ساحة الكنيسة، دون أن يجرؤ على الذهاب أبعد من ذلك، وهو يرى من بعيد باب الحانة مزدحمًا بالناس. كان آخر يوم من

المرح والكسل بالنسبة للقرية. تم الاحتفال بعيد المسيح، وفى المساء ستنطلق الموسيقى في كاتارّوخا، تاركة پالمار تغوص في هدوئها الشديد لعامٍ كامل. وحتى لا يتحدث إلى الجيران، أكل تونِت في الكوخ مع والده ولابوردا، اللذين أرجأا كُره العمل الشاق في المياه خلال أيام الاحتفالات الثلاثة. لا بد أن العم تونو كان يجهل ما حدث في الليلة السابقة. كان مظهره الجاد يبوح بهذا، مع أنه مظهره نفسه في كل الأيام. إضافةً إلى ذلك، كان يمضي الوقت في إصلاح الأضرار التي أحدثها الشتاء في كوخه، فالعامل الصلب لم يستطع الراحة للحظة. لا بد أن لابوردا كانت تعرف شيئًا: كان يُقرأ في عينيها النقيتين اللتين كانتا تبدوان أنهما تُضيئان قبحها، وفى النظرة الرحيمة والحنونة التي تثبتها على تونِت، وهو يرتجف من الخطر الذي واجهه في الليلة السابقة. في اللحظة التي كان فيها الشابان بمفردهما، اشتكت مع صرخات مؤلمة. يا إلهي! لو علم والده بما حدث! سوف يقتله هذا!

لم يظهر العم پالوما في الكوخ: كان بلا شك يأكل مع كانيامِل. في المساء، قابل تونِت في الساحة. لم يكن وجهه المتجعد يعكس أي انطباع، لكنه تحدث إلى حفيده بجفاف، ونصحه بالذهاب إلى الحانة. كان لدى العم پاكو ما يقوله له. أخَّر تونِت الزيارة لبعض الوقت. تسلى في الساحة وهو يشاهد الفرقة تتشكل لتعزف للمرة الأخيرة ما أطلق عليه الناس «پاساكايِّ الأنقليس»[1]. سيخيب أمل الموسيقيين إذا لم يحضروا أي سمك لعائلاتهم وهم عائدون من پالمار. في كل عام، قبل

(١) پاساكايِّ: هي رقصة إسبانية قديمة بطيئة الحركة.

مغادرتهم، كانوا يتجولون في القرية يغنون آخر أغنية من الباسو دوبلِ، وأمام عازف الطبل كان بعض الأطفال يحملون سلالًا يجمعون ما يريد كل جار أن يقدمه لهم: الأنقليس، التِّنش والبوري، دون احتساب سمك باس البحر (القاروص الأكثر طلبًا) الذي تحتفظ به لجنة الاحتفال للموسيقيّ الأكبر سنًّا.

بدأت الموسيقى في العزف، وهي تسير ببطء حتى يضع الصيادون قرابينهم. حينئذٍ قرر تونِت دخول منزل كانيامِل وهو يصرخ بمرح ليشجع نفسه:

- مساء الخير أيها الأفاضل!

رمقته نِلِتا، وهي خلف المنضدة، بنظرة لا يمكن تحديدها وأطرقت رأسها حتى لا يرى الهالات السوداء العميقة وجفونها الحمراء من البكاء. أجابه كانيامِل من آخر المتجر، مشيرًا بشكل مهيب إلى باب الغرف الداخلية.

- ادخل، ادخل، يجب أن نتحدث.

دخل الرجلان مكتبًا بجوار المطبخ، كان يُستخدم أحيانًا كغرفة نوم لقناصي بلنسية. لم يمنح كانيامِل شريكه وقتًا للجلوس. كان غاضبًا، كانت عيناه الصغيرتان تلمعان بشكلٍ أعمق من أي وقتٍ مضى بين انتفاخات الدهون، وكان أنفه القصير المستدير يرتجف بسبب تشنج عصبي. تكلم العم پاكو مباشرةً في الأمر. يجب أن ينتهي ذلك: لم يعد بإمكانهما الاستمرار في العمل معًا أو أن يكونا صديقين. وبينما كان تونِت يحاول الاعتراض، أوقفه صاحب الحانة البدين- الذي كان في

لحظة من الطاقة العابرة، ربما كانت آخر لحظة لوجودها- بإشارة. لا توجد كلمات: هذا عديم النفع. كان مصممًا على الانتهاء. حتى العم پالوما كان يدرك أسبابه. لقد بدأا العمل بالاتفاق على أنه سيضع المال والكوبي سيعمل. لم ينقص ماله: جهد شريكه هو ما لم يره أحد. كان «السيد» يقضي وقتًا رائعًا، بينما كان جده المسكين يقتل نفسه في العمل لديه... ولم يكن هذا فقط! لقد كان يدخل ذلك المنزل كما لو كان ملكه. لقد كان يبدو وكأنه سيد الحانة. كان يأكل ويشرب من الأفضل، كان الدرج تحت تصرفه كما لو لم يكن له مالك، كان يسمح لنفسه بحريات لا يريد أن يتذكرها. لقد استولى على كلبته، بندقيته، ووفقًا لما يقوله الناس الآن... حتى زوجته. صرخ تونِت بضيق المذنب:

- كذب.. كذب!

نظر إليه كانيامِل بطريقة جعلته يقظًا مع بعض الخوف. أجل، بالتأكيد كذب. هو أيضًا كان يعتقد الشيء نفسه. كان هذا من حسن حظ نِلِتا وتونِت؛ لأنه إذا شك في أن الكلام المنحط الذي كان يتغنى به هؤلاء الأوغاد في الليلة السابقة صحيحًا، فسيتحول إلى الرجل الذي يدق عنقها ويضع رصاصة بين حاجبي حبيبها. ماذا كان يُخيَّل له؟ كان العم پاكو صالحًا جدًّا، لكن على الرغم من مرضه، كان رجلاً مثل أي شخص آخر عندما يلمسوا ما يخصه. وكان صاحب الحانة، الذي يرتجف من غضب مكتوم، يسير مثل الحصان العجوز والمريض، لكنه من سلالة قوية، يعرف كيف ينهض على رجليه حتى اللحظة الأخيرة. كان تونِت يحدق بإعجاب في المغامر السابق الذى- رغم كسله المرضي، كرشه

وحديثه- لا يزال يجد فيه طاقة مقاتل جسور. في صمت الغرفة كان يتردد صدى الآلات النحاسية البعيدة التي كانت تجول القرية.

تحدث كانيامِل مرة أخرى، وكانت كلماته مصحوبة بالموسيقى، في كل مرة بشكلٍ متزايد.

أجل، كل شيء كان كذبة. لكنه لم يتواجد هناك ليكون سخرية الناس. بالإضافة إلى أنه كان يتحمل رؤية تونِت دائمًا في الحانة، يتعامل مع نِلِتا بأُلفة كأخ. لم يكن يريد المزيد من الأخوة الزائفة في منزله: لقد انتهى الأمر. لقد اتفق مع العم پالوما. من الآن فصاعدًا، سيواصل الاثنان وحدهما العمل في السِّكيوتا، وسيتفاهم الجد بالفعل مع الحفيد حتى يتمكن من جمع حصته. لم يكن على تونِت التعامل مع كانيامِل. إذا لم يكن ملائمًا له، يمكنه قول ذلك. كان هو سيد سِكيوتا بالقرعة، لكن العم پاكو سيسحب شباكه ورأس ماله، تونِت أساء إلى جده، وعندها سنرى كيف سيسوي الأمور بمفرده!

تونِت لم يعترض أو يقاوم. كل ما وافق عليه جده كان جيدًا.

وصلت الموسيقى أمام الحانة. توقفت، وأدى صخبها المتناغم إلى اهتزاز الجدران.

رفع كانيامِل صوته ليكون مسموعًا. بمجرد أن تم تسوية العمل، دار الحديث بينهما الاثنين، رجل لرجل. أمر تونِت -بسلطته كزوج لا يريد السخرية منه، وكرجل يعرف كيف يطرد زبونًا مزعجًا عندما يقتضي الأمر- بعدم الاقتراب من الحانة. هل كان يفهمه جيدًا؟ انتهت الصداقة! كان هذا ملائمًا، لمنع الثرثرة والأكاذيب... يجب أن يكون

باب ذلك المنزل من الآن فصاعدًا في مكانٍ عالٍ بالنسبة للكوبي... مرتفع جدًّا مثل ميجِلِتا[1] في بلنسية. وبينما كانت الترومبون تدق هديرها عند باب المنزل، انتصب كانيامِل بمظهره شبه الكروي على أطراف قدميه ورفع ذراعه إلى السقف للتعبير عن الارتفاع الهائل الذي لا يُقاس، والذي سيفصل الكوبي عن صاحب الحانة و زوجته من الآن فصاعدًا.

❊ ❊ ❊

(١) ميجِلِتا: هو برج الجرس في كاتدرائية بلنسية والمعروف بارتفاعه.

- ٧ -

عندما قضى تونِت يومين خارج الحانة، أدرك كم كان يحب نِلِتا.

ربما تأثر في يأسه بفقدان الرفاهية المبهجة التي كان يتمتع بها من قبل، الوفرة التي انغمس فيها مثل موجة من السعادة. افتقد، أكثر من هذا، سحر العشق الخفي الذي كان يخمنه كل الناس، السعادة الوخيمة بمداعبة حبيبته في خطر تام، تقريبًا في وجود الزوج والزبائن، معرَّضًا لمفاجأة.

بعد أن طُرد من منزل كانيامِل، لم يكن يعرف إلى أين يذهب. لقد حاول تكوين صداقات في حانات أخرى في پالمار، أكواخ بائسة لا تمتلك ثروة أكثر من برميل صغير، حيث كان يدخلها فقط ومن وقتٍ لآخر أولئك الذين لا يستطيعون الذهاب إلى منزل كانيامِل بسبب ديون سابقة. هرب تونِت من هذه الأماكن، مثل حاكم دخل عن طريق الخطأ إلى خمارة. أمضى أيامه يتجول في ضواحي البلدة. عندما كان يتعب، يذهب إلى سالِر، إلى پرِيو، إلى ميناء كاتارّوخا، إلى أي مكان لقتل الوقت. كان، الكسول، يبحر بقاربه الصغير ساعات كاملة لرؤية

صديق، دون أي غرض آخر سوى تدخين سيجارة معه. أجبره الموقف على العيش في كوخ والده، يتفحص ببعض القلق العم توني، الذي أظهر له ذات مرة، في ثبات نظرته، أنه يعرف كل ما حدث. دفع الضجر تونِت لتغيير سلوكه. بدلًا من تجوله من جانب لآخر في ألبوفيرا مثل حيوان محبوس، قام بمساعدة والده المسكين. ومنذ ذلك اليوم، ومع غضب الكسالى الوقتي عندما يقررون العمل، ذهب، كما كان يفعل في الماضي، لسحب الطين من التُّرع.

أظهر العم توني امتنانه لهذا الندم من خلال فرد تقطيبة جبينه وتوجيه كلمات قليلة لابنه. كان يعرف كل شيء. حدثت الأمور كما أعلن عنها. لم يكن تونِت يتصرف مثل فرد من عائلة پالوما، وعانى الأب كثيرًا وهو يسمع ما يُقال عنه. كان يؤلمه بشدة رؤية ابنه يعيش على حساب صاحب الحانة ويسرق منه زوجته أيضًا. كان يُجيب بجزع المذنب:

- كذب.. كذب! إنها افتراءات!

أخيرًا: ارتاح العم توني لأن الأمر كان هكذا. كان ما يهمه هو الابتعاد عن الخطر. الآن إلى العمل، ليكون رجلًا مستقيمًا، لمساعدة الأب في مهمة طمر بركته. عندما تتحول هذه البرك إلى حقول ويرون في پالمار أن عائلة پالوما تحصد الكثير من أكياس الأرز، سيجد تونِت حينها رفيقة له. سيتمكن من الاختيار بين جميع فتيات القرى المجاورة. لا أحد يرفض رجلًا ثريًّا.

استسلم تونِت، الذي شجعه كلام والده، إلى العمل بغضبٍ حقيقي. كانت لابوردا المسكينة متعبة وهي بجانبه أكثر من ذهابها مع

العم توني. كان الكوبي يعتقد دائمًا أنها تعمل قليلًا، كان كثير الطلبات وفظًّا مع الفتاة التعيسة، أثقل عليها كما لو كانت بهيمة، بل بدأ يضرب مثلًا للإرهاق. كانت لابوردا المسكينة تبتسم بسعادة، وهي تلهث تحت ثقل السلال الترابية والتحكم المستمر بالمُردي، وفى الليل، عندما كانت تعد العشاء وعظامها تؤلمها، كانت تنظر بامتنان إلى تونِت، ذلك الابن الضال الذي جعل والده يعاني كثيرًا، والآن، بسلوكه الجيد، أعطى جوًّا من الصفاء والثقة لوجه العامل الصلب.

لكن لم تسر إرادة الكوبي دائمًا على وتيرة واحدة، كانت تؤثر فيها هبات غاضبة من النشاط، ثم كان يعود هدوء الكسل المسيطِر والمطلق إلى الظهور.

بعد شهر من هذا العمل المتواصل، سئم تونِت مثلما شعر فيما مضى. كان جزء كبير من الحقول مغطى بالفعل، ولكن بقيت هناك حُفر عميقة، ملأها يأسه: كانت حفرًا بلا قاع، بدا من خلالها أن المياه المهزومة تعود، تأكل الأرض المتراكمة ببطء على حساب العمل الهائل. كان الكوبي يشعر بالخوف والإحباط أمام ضخامة المشروع. اعتاد على الوفرة في منزل كانيامِل، وتمرد أيضًا وهو يفكر في طبيخ لابوردا السيئ، والنبيذ الشحيح والضعيف، وكعكة الذرة الصلبة، والسردين العفن، وهو طعام والده الوحيد. أغضبه هدوء جده، الذي استمر في زيارة منزل كانيامِل، وكأن شيئًا لم يحدث. كان يتناول طعامه هناك ويتعشى، متفاهمًا بشكل رائع مع صاحب الحانة الذي بدا راضيًا بالنشاط الذي كان يستثمر به العجوز السِّكيوتا. وليذهب حفيده إلى

الجحيم! دون أن يقول له كلمة عندما كان يراه ليلًا في الكوخ، وكأنه غير موجود، وكأنه ليس المالك الحقيقي للسِّكيوتا!

كان الجد وكانيامِل متفاهمين لكي يستغلاه، وسيعاني كلٌّ منهما من خيبة أمل. ربما لم يكن هناك غرض آخر لكل سخط صاحب الحانة سوى إبعاده عن محيطه حتى تكون الأرباح أكبر. وبهذا الجشع الريفي، الشرس والقاسي، الذي لا يعترف بالعواطف أو العائلة في المسائل المالية، اقترب تونِت من العم پالوما في ليلة كان يبحر فيها للذهاب إلى موقع الصيد. كان هو مالك سِكيوتا، المالك الحقيقي، ومنذ وقت طويل لم يرَ فلسًا واحدًا. سبق أن عرف أن الصيد ليس ممتازًا كما هو الحال في السنوات الأخرى، ولكن كان العمل يُنجز، وأدخل الجد والعم پاكو ريالات جيدة في حزامهما. كان يعرف ذلك من مشتري أنقليس. لنرَ! كان يريد حسابات واضحة: إما أن يعطوه ما يخصه، وإما على العكس فإنه سيحتفظ بموقع الصيد، وسيبحث عن شركاء أقل جشعًا.

في البداية أحس العم پالوما، الذي كان يعتقد أنه يتمتع بالسلطة الاستبدادية على عائلته بأكملها، أنه مجبر على فتح رأس حفيده بطرف المُردي. لكنه فكر في الزنوج الذين قتلهم الكوبي بعيدًا، تبًّا! إن رجلًا مثل هذا لا يُضرب حتى لو كان ينتمي إلى العائلة. علاوة على أن تهديده باسترداد موقع الصيد ألقى الرعب في نفسه.

لجأ العم پالوما إلى الأخلاق. إذا لم يعطه المال، فلأنه كان يعرف شخصيته، والمال في أيدي الشباب تدمير. كان سيبتلعه، وسيذهب ليُقامر مع الأوغاد الذين يُجيدون لعب الورق في ظل أي كوخ في سالِر،

كان يُفضل الاحتفاظ بها بنفسه، وبالتالي كان يُسدي لتونِت معروفًا. في النهاية، عندما يموت، سيكون ماله لمن غير حفيده؟

لكن تونِت لم يلن بالآمال. كان يريد مالًا خاصًّا به، أو سيستولي على موقع صيد السمك مرة أخرى. وبعد مساومات شاقة استمرت أكثر من ثلاثة أيام، قرر المراكبي ذات مساء نبش حزامه، فأخرج بإيماءة محزنة لفة من الريالات. يمكنه أن يأخذها... يهودي! قلبه خبيث! عندما ينفقها خلال أيام قليلة، سيعود للمزيد. لا بد أنه لا يتحرج. أنهك جده! كان يرى بالفعل مستقبله في شيخوخته: يعمل مثل العبد، لكي يُمنح السيد الحياة الرغدة... وابتعد عن تونِت، كما لو كان يفقد العاطفة الضئيلة التي كان لا يزال يشعر بها تجاهه إلى الأبد. لم يعد الكوبي إلى كوخ والده عندما رأى المال معه. أراد أن يتسلى في تبطّله بالقنص، وأن يعيش حياة رجل الحرب، ويستخلص طعامه من البارود، وبدأ بشراء بندقية صيد تكون أفضل إلى حدٍّ ما من الأسلحة العظيمة التي يُحتفظ بها في منزله. كان سانجونِرا، الذي طُرد من منزل كانيامِل في اليوم التالي لطرد تونِت، يحوم حوله وهو يراه عاطلًا عن العمل ويشعر بالاشمئزاز من الحياة الشاقة التي كان يعيشها في كوخ والده. توافق الكوبي مع المشرد. لقد كان رفيقًا جيدًا يمكن الاستفادة منه. كان لديه مسكن، على الرغم من أنه أسوأ من بيت الكلاب، إلا أنه يمكن أن يكون بمثابة ملجأ لهما.

سيكون تونِت هو القناص وسانجونِرا الكلب. كل شيء سيكون لهما بالتساوي: الطعام والنبيذ. هل كان المتشرد راضيًا؟ كان سانجونِرا

مسرورًا. كما أنه سيساهم في المعيشة المشتركة. كان يمتلك يدين ذهبيتين لاستخراج أكياس الشبك من القنوات والاستيلاء على صيد السمك، وإعادة الشباك إلى الماء مرة أخرى. لم يكن مثل بعض اللصوص عديمي الضمير الذين، كما كان يقول صيادو پالمار، لم يكونوا يسرقون الروح فحسب، بل كانوا يأخذون الجسد أيضًا، وهي الأكياس الشبكية. سيبحث تونِت عن اللحم وهو سيبحث عن السمك. تم الاتفاق.

منذ ذلك الحين، كانوا يرون من وقتٍ لآخر حفيد العم پالوما في القرية مع بندقية الصيد الخاصة به على كتفه، وهو يصفر بشكل هزلي لسانجونِرا، الذي كان يسير خلف خطواته مطأطئ الرأس، وينظر بمكر في كل مكان في حال كان هناك شيء مفيد تصل إليه مخالبه.

كانا يقضيان أسابيع كاملة في دِئِسا، يعيشان حياة الناس البدائيين. كان تونِت، أثناء وجوده الهادئ في پالمار، يفكر كثيرًا بحزن في سنوات الحرب التي قضاها، في حرية كانت بلا حدود ومليئة بمخاطر محارب في حرب العصابات، حيث كان الموت أمام عينيه، لا يرى عقبات أو حواجز، والكاربين في يده، تلبي رغباته دون الاعتراف بأي قانون آخر غير قانون الضرورة. كانت العادات المنسية من سنوات الحرب في وسط الغابة تعود من جديد الآن في دِئِسا، على بُعد أربع خطوات من البلدات التي كان يتواجد فيها القوانين والسلطة. صنع هو ورفيقه بالأغصان الجافة أكواخًا في أي ركن من أركان الأجَمَة، عندما كانا يشعران بالجوع، كانا يقتلان زوجين من الأرانب أو الحمام البري

الذي كان يطير بين أشجار الصنوبر، وإذا احتاجا إلى نقود لشراء النبيذ والخراطيش، فإن تونِت كان يصطاد ببندقيته وعندما يتمكن في صباح أحد الأيام من تشكيل عنقود من القنص، كان المشرد يبيعه في سالِر أو في ميناء كاتارّوخا، ويعود بقِربة تختفي في الأدغال. كانت بندقية الصيد الخاصة بتونِت، وهي تدوي بغطرسة عبر دِئِسا، بمثابة تحدٍّ للحراس، الذين اضطروا إلى التخلي عن هدوء حياة المنعزلين.

كان سانجونِرا بالمرصاد مثل كلب بينما كان تونِت يقنص، وعندما يرى بنظرة المتشرد الحادة اقتراب الأعداء، كان يصفر إلى رفيقه ليختبئ. واجه عدة مرات حفيد العم پالوما المطاردين وجهًا لوجه وتحمل بجسارة رغبته في العيش في دِئِسا. ذات يوم أطلق أحد الحراس النار عليه، وبعد لحظات، كرد تهديدي، سمع دوي رصاصة بالقرب من رأسه. لم يكن هناك فائدة من إخبار المحارب السابق أي شيء. كان رجلًا ضالًّا لا يخاف الله ولا الشيطان. لقد كان يطلق الرصاص مثل جده، ولو أنه أرسل رصاصة قريبة، فإنها تكون للتحذير فقط. للانتهاء منه كان يلزم قتله. انتهى الحراس، الذين كان لديهم عائلات كبيرة في أكواخهم، إلى المساومة المتبادلة مع الصياد الوقح، وعندما كانت تدوي فرقعة بندقيته، كانوا يتظاهرون بأنهم يسمعون بشكلٍ سيئ، وهم يركضون دائمًا في الاتجاه المعاكس.

شعر سانجونِرا، الذي كان يتعرض للضرب بالعصا وإطلاق النار في كل مكان، بالقوة والفخر تحت حماية تونِت، وعندما دخل سالِر كان ينظر بوقاحة إلى الجميع، مثل كلب ينبح يحظى بحماية سيده.

في مقابل هذه الحماية، كان يُتقن عمله كحارس، وإذا جاء زوجان من الحرس المدني من وقت لآخر من بستان الرُّصافة، كان سانجونِرا يخمن ذلك قبل رؤيتهما، وكأنه استشعرهما. فيقول لرفيقه:

- التريكورنيوز[1]! هم هنا بالفعل!

كان تونِت وسانجونِرا يلجَآن إلى ألبوفيرا في الأيام التي كانا يريان فيها حاملات السلاح الصفراء وقبعات التريكورنيو اللامعة في ضواحي دِئِسا. في أحد القوارب الصغيرة الخاصة بالعم پالوما، كانا ينتقلان من منطقة شجيرات إلى أخرى وهما يطلقان النار على الطيور، حيث كان المتشرد معتادًا على الدخول إلى الماء حتى لحيته في منتصف الشتاء ليستردها. كان تونِت وسانجونِرا يقضيان الليالي العاصفة، المظلمة والممطرة- التي كان ينتظرها العم پالوما كنعمة، لأنها كانت ليالي صيد السمك بوفرة- في كوخ سانجونِرا، محميين في إحدى الزاويا، حيث كانت المياه تتدفق من خلال بقايا السقف.

كان تونِت على بعد خطوتين من والده، لكنه كان يتجنب رؤيته خوفًا من نظرته الصارمة والحزينة. كانت لابوردا تأتي بحذر لتغيير ملابس تونِت، لا يوجد أحد قادر على تقديم هذه الرعاية سوى امرأة. كانت الفتاة المسكينة، المتعبة من العمل نهارًا، تُصلح الخِرق على ضوء فانوس، بالقرب من المشردَين، دون أن توجه لهما كلمة عتاب، فقط تجرؤ على إلقاء نظرة على شقيقها مع تعبير حزين.

(١) نسبة إلى قبعة تُسمَّى تريكورنيو، وهي نوع من القبعات حوافها مرفوعة من ثلاث جهات، ولها ثلاث زوايا.

ولما كان الصديقان يقضيان الليل وحدهما، كانا يتحدثان دون أن يتركا الشراب عن أكثر أفكارهما حميمية. لم يستطع تونِت، الذي اعتاد على السُّكر المستمر أسوةً بسانجونِرا، مقاومة ثقل سره وأخبر زميله بحبه لنِلِتا. حاول المتشرد الاحتجاج في البداية. كان هذا سيئًا. «لا تشتهي زوجة قريبك». بعدئذٍ، من منطلق امتنانه لـتونِت، وجد أعذارًا ومبررات للخطأ، بدراسته الخرقاء كخادم كنيسة سابق. الحقيقة هي أن لديهم بعض الحق في حب بعضهما. لو التقيا بعد زواج نِلِتا، لكانت علاقتهما خطيئةً كبيرة. لكنهما كانا يعرفان بعضهما البعض منذ أن كانا طفلين، لقد كانا مخطوبين، والخطأ هو خطأ كانيامِل، لأنه أقحم نفسه حيث لم يدعُه أحد، مما أربك علاقتهما. لقد استحق ما كان يحدث له. وكان يضحك برضى على مصيبته الزوجية، وهو يتذكر الأوقات التي طرده فيها الرجل السمين من الحانة، وشرع في انتقامه. لاحقًا، عندما لم يتبق نبيذ في القِربة الصغيرة وبدأ الفانوس الورقي يضعف، ظل سانجونِرا يتحدث، وعيناه مغمضتان من السُّكر، عن معتقداته بشكلٍ غير منظم. كان تونِت، الذي اعتاد هذا الحديث، يغفو دون سماعه، بينما كانت تهتز تسقيفة الكوخ الخشبي التي كانت من القش بدفعات العاصفة الهوجاء، فتسرب المطر.

لم يكن سانجونِرا يتعب من الكلام. لماذا كان تعيسًا؟ لماذا كان تونِت يعاني، كان ضائعًا وقد سئم لأنه لا يقدر على الاقتراب من نِلِتا؟ لأن كل شيء في العالم كان ظلمًا، لأن الناس، الذين يسيطر عليهم المال، يصرون على العيش على عكس ما أمر الرب. كان يوقظ تونِت،

وهو يقترب من أذنه ، متحدثًا بصوتٍ غامضٍ، فقد أدرك قرب تحقيق آماله. كانت الأوقات الجيدة تقترب. كان «هو» في العالم بالفعل. لقد رآه، كما رأى تونِت الآن، وقد لمسه، الخاطئ المسكين، بيد البرودة الإلهية خاصته. وللمرة العاشرة كان يحكي لقاءه الغامض على شاطئ ألبوفيرا. عاد من سالِر بحزمة خراطيش من أجل تونِت، وعلى الطريق الذي يمتد على طول البحيرة شعر بعاطفة عميقة، كما لو أن شيئًا ما يقترب يشل قوته. التوت ساقاه وسقط على الأرض، وهو يرغب في النوم، في الاختفاء وعدم الاستيقاظ مرة أخرى. قال تونِت عندما وصل إلى هذه النقطة:

– لقد كنت في حالة سُكر.

لكن سانجونِرا كان يعترض. لا، لم أكن سكران. لقد شربت قليلًا في ذلك اليوم. والدليل أنه بقي مستيقظًا رغم رفض الجسد طاعته.

كان المساء قد انتهى. كان لون ألبوفيرا بنفسجيًّا، من بعيد، على الجبال، كانت السماء تتخضب بأمواجٍ من الدم، وعلى هذه الخلفية، رأى سانجونِرا، وهو يتقدم على الطريق، رجلًا توقف عندما وصل بالقرب منه.

ارتجف المتشرد عندما تذكر ذلك. النظرة الوديعة والحزينة، اللحية المنقسمة والشعر الطويل. ماذا كان يرتدي؟ لقد تذكر، فقط غلافًا أبيض، شيئًا مثل جلباب أو بلوزة طويلة جدًّا، وعلى ظهره، المُثقل بسبب وزنه، هيكل ضخم لم يستطع سانجونِرا تحديده. ربما كانت أداة لعذاب جديد، سيفتدي بها البشر أنفسهم... لقد مال عليه،

وبدا كل ضوء الشفق أنه يركز على عينيه. مد يده ومرر أصابعه على جبين سانجونِرا، وهي لمسة باردة هزته من جذور شعره إلى كعبه. تمتم بصوتٍ عذبٍ بكلمات متناغمة وغريبة لم يستطع المتشرد فهمها، وابتعد مبتسمًا، بينما هو، مدفوعًا بالعاطفة، غط في نومٍ عميق، ليستيقظ بعد ساعات في عتمة الليل.

لم يره ثانيةً، لكنه كان «هو». كان متأكدًا. عاد إلى العالم لينقذ عمله الذي عرضه الإنسان إلى الخطر، ذهب مرةً أخرى يبحث عن الفقراء، البسطاء، الصيادين البائسين في البحيرات. يجب أن يكون سانجونِرا واحدًا من المختارين: لقد لمسه بيده لسببٍ ما. وأعلن المتشرد بحماسة إيمانية نيته التخلي عن رفيقه بمجرد ظهور الطيف الوديع مرةً أخرى.

لكن تونِت احتج بمزاج سيئ عندما رأى نومه ينقطع، وهدده بصوتٍ أجش. هل تريد أن تصمت؟ قال له عدة مرات أن هذا ليس أكثر من حلم مخمور. لو كان «واعيًا» و«جافًّا»، وهي الطريقة التي يجب أن ينجز بها مهامه، لكان قد رأى أن الرجل الغامض هو أحد المتشردين الإيطاليين كان يقضي يومين في پالمار يشحذ السكاكين والمقصات، ويحمل العجلة الخاصة بمهنته.

خرس سانجونِرا خوفًا من يد حاميه، لكن إيمانه كان يتعرض للفضيحة، وتمرد في صمت على تفسيرات تونِت المبتذلة... سأراه مرةً أخرى! كان لديه يقين أنه يسمع لغته الجميلة والغريبة من جديد، ويشعر بيده شديدة البرودة على جبينه، ويرى ابتسامته الرقيقة. وكان ما يحزنه فقط احتمالية تكرار اللقاء عندما ينتهي المساء، عندما يروي عطشه عدة

مرات ويرى ساقيه المشلولتين. هكذا كان الرفيقان يقضيان الشتاء: يداعب سانجونِرا أكثر آماله غرابة، يفكر تونِت في نِلِتا، التي لم يرها أبدًا، حيث كان الشاب يتوقف، في رحلاته النادرة إلى پالمار، في ساحة الكنيسة، ولم يجرؤ على الاقتراب من منزل كانيامِل.

هذا الغياب، الذي طال لشهور وشهور، كان يجعل ذكرى السعادة الماضية تنمو في ذاكرته، وتكبر بتفاوتٍ مخادع. كانت صورة نِلِتا تملأ عينيه. كان يراها في الغابة المطيرة حيث ضاعا وهما طفلان، في البحيرة حيث استسلما لبعضهما وهما محاطان بالغموض العذب لليل. لم يكن قادرًا على التحرك في محيط الماء والوحل، حيث كانت حياته الحالية، دون التعثر بشيء يذكره بها. كان تونِت، يدفعه امتناعه عن النساء وتحمسه بنشاط حياته الهائمة، ينام عدة ليالٍ نومًا هائجًا، وكان سانجونِرا يسمعه ينادي على نِلِتا مع هدير الذكر المضطرب.

ذات يوم، شعر تونِت بالحاجة إلى رؤيتها، متأثرًا بهذا الشغف الذي كان يدفعه إلى الجنون. كان كانيامِل، المريض بشكلٍ متزايدٍ، يذهب إلى المدينة. دخل الكوبي إلى الحانة بعزم في الظهيرة، عندما كان جميع الزبائن في منازلهم ويمكنه أن يجد نِلِتا وحدها خلف المنضدة.

صرخت صاحبة الحانة، عندما رأته عند الباب، وكأنه قد بُعث. مرت في عينيها ومضة من الفرح، لكنهما أظلمتا على الفور، كما لو أن عقلها قد ظهر من جديد، وطأطأت رأسها بإيماءة من النفور والتمنع. وهمهمت:

– ابتعد، ابتعد! هل تريد أن تخسرني؟

يخسرها! سبَّب له هذا الافتراض ألمًا شديدًا لم يجرؤ على الاحتجاج عليه. تراجع غريزيًّا، والآن عندما أراد أن يندم على ضعفه، كان بالفعل في الساحة، بعيدًا عن الحانة.

لم يحاول العودة. عندما كان يفكر في الذهاب إليها يدفعه بعض الشغف، كانت تكفي ذكرى تلك الإيماءة لكي يسيطر عليه في الحال برود شديد. لقد انتهى كل شيء بين الاثنين. كان كانيامِل، الذي سخر منه فيما مضى، عقبة لا يمكن التفوق عليها.

وبسبب الكراهية التي كان يشعر بها تجاه الزوج ذهب للبحث عن جده، معتقدًا أن كل ما يفعله ضد الأخير يضر بزوج نِلِتا. المال! كان يريد المال! لقد اغتنيا من السِّكيوتا، وهو، السيد، نسياه! وَلَّدَت هذه المطالب بين الجد والحفيد جدالات وغضبًا بأعجوبةٍ لم ينتهيا بالضرب على ضفة القناة. اندهش المراكبية العجائز من الصبر الذي أظهره العم پالوما لإقناع حفيده. كانت السنة سيئة، لم تعطهم السِّكيوتا النتيجة التي كانا يتوقعانها، علاوة على أن كانيامِل كان مريضًا وصعب المِراس. كان العم پالوما نفسه يتمنى في بعض الأحيان أن تنتهي السنة وأن تأتي قرعة جديدة، ليتخلص من عمل تسبب له في الكثير من المتاعب. كان نظامه القديم هو النظام الجيد: أن يصطاد كل شخص بمعرفته: أما بالنسبة للشركاء، ولا حتى مع المرأة!

عندما استطاع تونِت انتزاع بعض الريالات من جده، صَفَّر بسعادة إلى سانجونِرا، كانا يذهبان من حانة إلى حانة حتى بلنسية، وهما

يقضيان عدة أيام من المجون في خمارات الضواحي، حتى أجبرتهما خفة جيوبهما على العودة إلى ألبوفيرا .

أثناء محادثاته مع جده علم بمرض كانيامِل. لم يكن يُحكى في پالمار عن شيء آخر، لأن صاحب الحانة كان البطل في القرية، حيث كان الجميع تقريبا، في أوقات الضيق، يطلبون خدماته. كان يستشري مرض كانيامِل: لم تكن هواجس، كما كان يعتقد الجميع في البداية. كانت صحته تتدهور، ولكن عندما رأوا جسمه يزداد بدانة، ووجهه تورمًا وتطغى الدهون، أعلن الناس بجدية أنه سيموت بسبب الصحة الزائدة والحياة الجيدة.

كان يشتكي في كل مرة، دون أن يستطيع تحديد مكان ألمه. كان داء المفاصل الغدار -بسبب تلك الأراضي المستنقعية وحياة من الجمود- يتجول في بدنه، يلعب الغميضة، تلاحقه اللبخات والعلاجات المنزلية، التي لم تكن من الممكن أن تصيبه في تحركاته المجنونة. كان صاحب الحانة يشتكي من رأسه في الصباح ومن بطنه أو تورم أطرافه في المساء. كانت الليالي فظيعة، وفى أكثر من مرة كان يقفز من الفراش ويفتح النافذة في منتصف الشتاء، مدعيًا أنه كان يختنق في الغرفة، ولم يجد فيها هواءً لرئتيه.

كانت هناك لحظة اعتقد فيها أنه كشف مرضه. لقد أمسك به بالفعل! وعرف اسم النذل! عندما كان يأكل كثيرًا، كانت صعوبة التنفس أكبر ويشعر بالغثيان الشديد. كان مرضه في معدته. وبدأ في تناول الدواء، معترفًا أن العم پالوما كان رجلًا حكيمًا. ما كان لديه هو الكثير من

الراحة، كما قال المراكبي، مرض الأكل بإفراط والشرب بشكلٍ جيدٍ. كانت الوفرة عدوه.

كانت تتقرب منه لاساماروكا، صهرته الرهيبة، منذ أن طرد تونِت من الحانة. أخيرًا، كما كانت تؤكد بشراسة هاربي[1]، شعر صهرها بالخجل لأول مرة.

عندما كان كانيامِل يتجول في القرية كانت تخرج لمقابلته، كانت تناديه خارج الحانة – لم تكن تجرؤ على الوقوف أمام نِلِتا داخل منزلها، واثقة من أنها ستطردها– وفى هذه المقابلات كانت تستفسر باهتمام مبالغ فيه عن صحة صهرها، وتتأسف على حماقاته. لا بد أنه بقي وحيدًا بعد خسارة المرحومة. كان يريد أن يلعب دور الشاب المتزوج من فتاة، وكان لديه كل شيء: الحزن وضعف الصحة. ذلك التهور بدا عليه، والحمد لله أنه لم يكلفه حياته.

عندما أخبرها كانيامِل عن مرض معدته، نظرت الثرثارة الخبيثة له نظرة من الدهشة، كما لو أن فكرة مرت بخاطرها أخافتها هي نفسها. هل كان حقًّا في معدته الشر؟... ألم يعطوه شيئًا للتخلص منه؟ ورأى صاحب الحانة، في الأعين الماكرة للعجوز الشريرة، شكوكًا واضحة للغاية، وبغيضة جدًّا ضد نِلِتا، لدرجة أغضبته، وبالكاد امتنع عن ضربها. هِيّ، أيتها البهيمة الشريرة! سبق أن قالت له المرحومة المسكينة أنها كانت تخاف أختها أكثر من الشيطان. وأدار ظهره للاساماروكا، وقد نوى عدم رؤيتها مرةً أخرى.

---

(١) هاربي: هو وحش مجنح في الأساطير الإغريقية الرومانية نصفه امرأة ونصفه طائر.

الشك في فظائع نِلِتا!... لم تكن أبدًا زوجته لطيفة ومهتمة به مثل الآن. إذا كان هناك بعض الضغينة داخل العم پاكو بسبب الوقت الذي أصبح فيه تونِت مالك الحانة يدعمه صمت زوجته، فقد اختفى بسبب سلوك نِلِتا، التي نسيت كل أمور المتجر للتفكير فقط في زوجها.

كانت تشك هي في معرفة ذلك الطبيب المتجول -أجير العلم الحزين الذي كان يأتي مرتين في الأسبوع إلى پالمار، وكان ينصح بخلاصة الكينا علاجه الوحيد، كما لو أنه لا يعرف أي دواء آخر- وأثقل الكسل المتزايد زوجها، كانت تلبسه كطفل، وهي تضع له كل قطعة ثوب وسط شكاوى واحتجاجات من الروماتيزم، وتقتاده إلى بلنسية ليفحصه أطباء مشهورون. كانت تتحدث نيابةً عنه، وتنصحه مثل أم أن يفعل كل ما أمره به هؤلاء السادة.

كانت الإجابة دائمًا نفسها. لم يكن يعاني غير الروماتيزم، ولكنه كان روماتيزمًا قويًّا، لم يكن موجودًا في مكانٍ بعينه، بل سيطر على جسده بالكامل نتيجة لفترة شبابه المضطربة كمتشرد والحياة الكسولة والمستقرة التي كان يعيشها الآن. كان عليه أن يتحرك، ويعمل، ويمارس الكثير من التمارين، وقبل كل شيء، يمتنع عن الإسراف. ممنوع الشرب، حيث يمكن التخمين من مهنة صاحب الحانة المولع بالتواصل مع الزبائن. لا إفراط ثانيةً. وكان الأطباء يخفضون أصواتهم، وهم يستكملون توصياتهم بالغمزات، حيث لم يجرؤوا على صياغتها بوضوح في حضور امرأة.

عادا إلى ألبوفيرا مفعمين بالطاقة المفاجئة بعد سماع الأطباء. كان

مستعدًّا لأي شيء: أراد أن يتحرك، ليطرد تلك الدهون التي كانت تغلف جسده وتغمر رئتيه، سيذهب إلى الحمامات التي أوصوه بها، كان يطيع نِلِتا، التي كانت تعرف أكثر منه وكان يندهش من طلاقة لسانها مع هؤلاء السادة الجادين جدًّا. ولكن بمجرد دخوله الحانة، انهارت كل إرادته، كان يشعر أنه مأخوذ بشهوة الكسل، ولم يجرؤ على تحريك ذراعه إلا بالآهات والجهود الجبارة. كان يمضي أيامه بالقرب من المدخنة، وهو يحدق في النار، ورأسه فارغ، يشرب الكؤوس بناء على طلب أصدقائه. كأس أخرى لن تقتله! وإذا نظرت إليه نِلِتا بصرامة، وهي توبخه كطفل، كان الرجل الضخم يعتذر بتذلل. لم يكن يستطيع أن يحتقر الزبائن، كان لا بد من رعايتهم، كان العمل قبل الصحة.

وسط هذا اليأس، مع موت إرادته وجسده المكبل بالألم، كان يبدو أن غريزته الجسدية تتزايد، وتستحثه بطريقة تعذبه في جميع الأوقات بطعنات من النار. كان يشعر ببعض التحسن وهو يبحث عن نِلِتا. كأن سوطًا يهز كيانه، وبعد أن تهدأ أعصابه. كانت تتشاجر معه. كان يقتل نفسه! يجب عليه تذكر نصائح الأطباء! لكن العم پاكو كان يعتذر بالطريقة نفسها التي يعتذر بها عندما يأخذ مشروبًا. مرةً أخرى لن تقتله. ولانت مع استسلام، وشرارة من الغموض الماكر تلمع في عينيها، كما لو كانت تشعر في أعماقها بفرحٍ غريب لحب المريض الذي كان يُعجل بنهاية حياته.

كان كانيامِل يَئن، تهيمن عليه غريزة الجسد. كانت هذه هي تسليته الوحيدة، تفكيره المستمر وسط الجمود المؤلم للروماتيزم. في الليل

كان يختنق عندما يستلقي على الفراش: كان يضطر إلى انتظار الفجر وهو يجلس على مقعد من الحبال بجانب النافذة، مع نَفَس مؤلم بسبب الربو. كان يشعر بتحسن خلال النهار، وعندما يسأم من تحميص ساقيه أمام النار، يدخل الغرف الداخلية بخطوات مترنحة. كان يصرخ بصوتٍ قلق، كانت تخمن فيه زوجته توسلًا ما.

– نِلِتا... نِلِتا!

وتذهب نِلِتا إلى هناك بتعبير مستسلم، تاركة منضدة الشرب لخالتها، ومختفية لأكثر من ساعة، بينما كان الزبائن يبتسمون، فهم يعلمون كل شيء عن حياتهما تقريبًا بسبب صداقتهم الحميمة مع أصحاب الحانة.

كان العم پالوما يقول، وقد أوشك على الانتهاء من استثماره في موقع صيد السمك كما كان احترامه لشريكه يقل، إن كانيامِل وزوجته كانا يطاردان بعضهما في الحانة مثل الكلاب في وسط الشارع.

كانت لاساماروكا تزعم أنهما قتلا صهرها. كانت التي تُدعى نِلِتا مجرمة وخالتها ساحرة. كانت الاثنتان تعطيان العم پاكو شيئًا أحدث اختلالًا في إدراكه: ربما كان مسحوق التابعين الذي كانت تعرف بعض النساء كيفية صنعه للتغلب على مجافاة الرجال. هكذا كان المسكين يسير، غاضبًا خلفها، ولم يروِ عطشه أبدًا، وكل يوم يفقد جزءًا صغيرًا من صحته. ولم تكن هناك عدالة على الأرض لمعاقبة هذه الجريمة!

كانت حالة العم پاكو تبرر النميمة. كان الزبائن يرونه بلا حركة بجوار الموقد، حتى في منتصف الصيف، وهو يبحث عن النار التي كانت تغلي عليها البايّيا. كان الذباب يرفرف بالقرب من وجهه، دون أن

يُظهِر أي رغبة في إخافته. في الأيام المشمسة كان يلف نفسه بالبطانية، وهو يَئن كالطفل، ويشكو من البرد الذي كان يسبب له الألم. كانت شفتاه تتلون باللون الأزرق، وخداه، المترهلان والمنتفخان، لهما لون الشمع الأصفر الشاحب، وعيناه البارزتان كانتا محاطتين بهالةٍ سوداء كأنهما يغرقان فيها. كان شبحًا ضخمًا، شحميًّا ومرتجفًا، كان يُحزن الزبائن بمظهره. كان العم پالوما، الذي أنهى مع كانيامِل العمل في موقع صيد السمك، لا يذهب إلى الحانة. كان يؤكد أن النبيذ بدا أقل استساغة بالنسبة له وهو ينظر إلى تلك الحزمة من الآلام والآهات. بما أن الرجل العجوز كان يملك المال الآن، فقد كان يتردد على إحدى الحانات حيث كان يتبعه أصدقاؤه، وتراجع الإقبال على بيت كانيامِل بشكلٍ كبير.

كانت نِلِتا تنصح زوجها بالذهاب إلى الحمامات التي أوصى بها الأطباء. سترافقه خالتها. كان المريض يجيب:

– في وقتٍ لاحق. لاحقًا... لاحقًا.

وظل ساكنًا على كرسي صغير من الحَلْفاء، غير راغب في الابتعاد عن زوجته وعن تلك الزاوية التي كان يبدو أن وجوده مرتبط بها.

بدأ كاحلاه في الانتفاخ، وأخذا أبعادًا وحشية. توقعت نِلِتا هذا. كان تورم الكعبين (كان هو، كانت تتذكر الاسم جيدًا) الذي أخبرها به أحد الأطباء في رحلتهما الأخيرة إلى بلنسية.

أخرج هذا المنظر الذي كان أحد مظاهر المرض كانيامِل من رقاده العميق. كان يعرف بالفعل ماهية ذلك. الرطوبة اللعينة لبالمار التي توغلت إلى قدميه عندما بقي ساكنًا. وأطاع نِلِتا التي أمرته بالانتقال إلى

منطقة أخرى. كان لديهما في الرُّصافة، مثل كل أغنياء پالمار، منزلهما الصغير المستأجر لحالات المرض. هناك كان يمكنه الاستعانة بالأطباء وبالصيدليات في بلنسية. انطلق كانيامِل في رحلته برفقة خالة زوجته، وغاب لمدة خمسة عشر يومًا تقريبًا. ولكن بمجرد أن هبط التورم قليلًا، أراد العم پاكو العودة، مؤكدًا أنه أصبح جيدًا بالفعل. لم يستطع العيش من دون نِلِتا. في الرُّصافة كان يشعر ببرد الموت، عندما ينادي زوجته، كانت تحضر خالتها بوجهها المتجعد وشفتيها الغليظتين مثل أنقليس عجوز.

استأنف عاداته القديمة من جديد، أنين كانيامِل الخافت يرن في الحانة مثل عويل مستمر.

في بداية الخريف كان عليه أن يعود إلى الرُّصافة في حالة أسوأ. بدأ الانتفاخ ينتشر في ساقيه بشكلٍ هائل، مشوهًا بالروماتيزم، قوائم فيل حقيقية يجرها بصعوبة، متكئًا على الأقرب وهو يتأوه عندما يضع قدمه على الأرض.

رافقت نِلِتا زوجها إلى القارب البريدي. سبقت الخالة، في الصباح، في عربة الأنقليس، لتجهيز منزل الرُّصافة الصغير.

في الليل، عندما ذهبت إلى الفراش، بعد إغلاق الحانة، اعتقدت نِلِتا أنها سمعت من الجانب المواجه للقناة صافرة خافتة كانت تعرفها منذ أن كانت طفلة. واربت النافذة لتنظر. كان هو هناك! كان يتجول مثل كلب حزين، بأمل غامض أن يفتحوا له. أغلقت نِلِتا، وعادت إلى السرير. كانت نية تونِت ستفضي إلى الجنون. لم تكن حمقاء لتعرض

مستقبلها للخطر في نشوة من شوق الشباب. كما كانت تقول عدوتها لاساماروكا، كانت تعرف أكثر من امرأة عجوز.

ومع ذلك، شعرت بالإطراء من شغف تونِت، الذي ركض إليها بمجرد أن اعتبرها بمفردها، نامت صاحبة الحانة وهي تفكر في عشيقها. كان لا بد من مرور الوقت. ربما، عندما تقل توقعاتهما، تزدهر السعادة القديمة ثانيةً.

عانت حياة تونِت من تغيير جديد. لقد أصبح صالحًا مرةً أخرى، عاش مع والده، وعمل في الحقول التي تكاد تُغطى بالتراب، بفضل مثابرة العم تونِي.

انتهت تجاوزات الكوبي في دِئِسا. وكان الحرس المدني لبستان الرُّصافة يتردد على الغابة. هؤلاء الجنود ذوو الشوارب، ذوو الوجوه المتفحصة، جعلوا ردهم على الطلقة الأولى التي أُطلقت بين أشجار الصنوبر هو رصاصة من بندقية ماوزر. استغل الكوبي التحذير. لم يكن الأشخاص ذوو حمالة السلاح الصفراء مثل حراس دِئِسا: كان يمكنهم تركه ملقى عند سفح شجرة ثم يقدموا قطعة من الورق تصف ما حدث. صَرَف سانجونِرا، وعاد المتشرد مرة أخرى إلى حياته الهائمة، متوِّجًا نفسه بزهور المنحدر عندما يكون في حالة سُكر ويبحث في البحيرة عن الظهور الغامض الذي أثّر فيه.

من جانبه، علق تونِت بندقية الصيد في كوخ والده وأقسم أمامه بالتوبة الأبدية. كان يُريد أن يعتبره رجلًا جادًّا. سيكون هو بالنسبة للعم تونِي محترمًا وصالحًا، كما كان الأخير مع الجد. انتهى الطيش إلى

الأبد. عانق الأب -الذي لان قلبه- تونِت، وهو ما لم يفعله منذ عودته من كوبا، واستسلما معًا إلى طمر الحقول بحماسة من يرى عمله قارب على الانتهاء.

كان الحزن يمنح تونِت قوة جديدة، يُقسي إرادته. كان يمضي عدة ليالٍ يتسكع حول الحانة، مدركًا أن نِلِتا كانت وحدها، يدفعه شغفه الذي كان يقضم أحشاءه. كان يرى ألواح النافذة توارب قليلًا وتُغلق مرةً أخرى. لا شك أنها تعرفت عليه، وعلى الرغم من ذلك ظلت صامتة، لا يمكن الوصول إليها. لا يجب انتظار شيء. بقي له محبة أهله فقط. وفى كل مرة كان يألف أكثر العم تونى ولابوردا، وهو يشاركهما في أوهامهما وأحزانهما، ويشاطرهما بؤسهما معجبًا ببساطة عاداتهما، فبالكاد كان يشرب ويقضي السهرات وهو يسرد مغامراته كرجل حرب عصابات لوالده. كانت لابوردا تشع سعادة، وعندما كانت تتحدث مع إحدى الجارات تمتدح شقيقها. تونِت المسكين! كم كان صالحًا! كم يُسعد الأب عندما كان يشاء!

غادرت نِلِتا الحانة فجأة للذهاب إلى الرُّصافة. كانت في عجلة كبيرة لدرجة أنها لم ترغب في انتظار قارب البريد، ونادت العم پالوما، حتى يصطحبها في قاربه الصغير إلى سالِر، إلى ميناء كاتارّوخا، إلى أي نقطة على اليابسة حيث يمكنها الذهاب إلى الرُّصافة.

كان كانيامِل شديد المرض: كان يحتضر. بالنسبة لنِلِتا لم يكن هذا هو الشيء الأكثر أهمية. كانت قد وصلت خالتها في الصباح وهي تحمل أخبارًا تركتها خلف المنضدة بلا حراك من المفاجأة. كانت

لاساماروكا في الرُّصافة منذ أربعة أيام. لقد دخلت المنزل كقريبة، ولم تجرؤ الخالة المسكينة على الاحتجاج. بالإضافة إلى ذلك، كان معها ابن أخيها، الذي كانت تحبه كابن، وكان يعيش معها: الشخص نفسه الذي ضربه تونِت ليلة أغاني الفجر. في البداية، كانت الممرضة صامتة، فقد كانت امرأة لطيفة وبسيطة: لقد كانا أقارب كانيامِل، ولم تكن قاسية القلب لدرجة أنها تحرم المريض من هذه الزيارات. لكنها سمعت لاحقًا بعض الأحاديث بين كانيامِل وأخت زوجته. كانت هذه الساحرة تحاول إقناعه بأن لا أحد يحبه مثلها وابن أخيها. كانت تتحدث عن نِلِتا، مؤكدة أنه بمجرد انطلاقه في رحلته، كان حفيد العم پالوما يدخل منزله كل ليلة. إلى جانب ذلك... (هنا كانت المرأة العجوز مترددة من الخوف) في اليوم السابق، أتى إلى المنزل رجلان، تقودهما لاساماروكا وابن أخيها: أحدهما كان يسأل كانيامِل بصوتٍ خافتٍ، والآخر كان يكتب. لا بد أنها وصية.

أمام هذا الخبر، ظهرت شخصية نِلِتا الحقيقية. أصبح صوتها الحنون، بتأثيراته اللطيفة، مبحوحًا، لمعت القطرات الصافية في عينيها كما لو أنها من الطلق[1]، جرت موجة من الشحوب الضاربة إلى الخضرة عبر بشرتها البيضاء. صاحت مثل مراكبي من أولئك الذين كانوا يتوافدون إلى الحانة:

– تبًّا!

(١) الطلق: أو التلك. هو معدن أبيض ناعم الملمس، ويُستخدم في صناعة بعض مساحيق التجميل وغيرها.

ألم تتزوج كانيامِل لهذا؟ ألم تكن تتحمل مرضًا لا ينتهي، وهي تسعى جاهدة لتبدو لطيفة ومحبّة؟ كانت تهتز داخلها وهي واقفة، بكل قوتها الهائلة، أنانية الفتاة الريفية التي تضع المصلحة فوق الحب.

في اللحظة الأولى، أرادت أن تضرب خالتها التي أبلغتها مثل هذه الأخبار في اللحظة الأخيرة، فربما لا تستطيع فعل شيء. لكن انفجار الغضب سيجعلها تضيع الوقت، وفضلت الركض إلى قارب العم پالوما في عجلة لدرجة أنها أمسكت هي نفسها بالمُردي للخروج من القناة في أسرع وقت وبسطت الشراع.

في منتصف المساء، دخلت مثل إعصار إلى منزل الرُّصافة الصغير. عندما رأتها لاساماروكا، شحبت، وأدارت ظهرها إلى الباب بشكلٍ غريزي، ولكن بمجرد محاولتها الانسحاب، صُدمت بصفعة من نِلِتا، وتشبثت المرأتان بشعر بعضهما بشكلٍ صامتٍ، بغضبٍ كظيمٍ، وهما مضطربتان، تتحركان من جانب إلى آخر، تصطدمان بالجدران، تدحرجان الأثاث بأيديهما المشدودة المدفونة في العقيصة، مثل بقرتين متصلتين تتقاتلان برؤوسهما معًا دون القدرة على الانفصال.

كانت لاساماروكا قوية وكانت تلقي في نفوس الجارات في پالمار بعض الخوف، لكن نِلِتا، بابتسامتها العذبة وصوتها المعسول، كانت تُخفي حيوية أفعى وعضت عدوتها في وجهها بغضب جعلها تبتلع الدم. كان صوت كانيامِل يئن من غرفة مجاورة، خائفًا من الضجيج:

– ما هذا؟ ماذا يحدث؟

خرج الطبيب الذي كان برفقته من غرفة النوم، وتمكن من فصل

المرأتين بمساعدة ابن أخي لاساماروكا، بعد مجهود كبير وخدوش كثيرة. تزاحم الجيران عند الباب. كانوا معجبين بالغيظ الأعمى الذي كان يتشاجر به النساء، وكانوا يثنون على شجاعة الشقراء الصغيرة، التي كانت تبكي لعدم قدرتها على التنفيس عن المزيد.

فرت أخت زوجة كانيامِل، وتبعها ابن أخيها. أُغلق باب المنزل، ودخلت نِلِتا -وشعرها في حالة فوضى وسحنتها البيضاء احمرت بسبب الخدوش- إلى غرفة زوجها بعد تنظيف الدم الغريب الذي كان يلطخ أسنانها.

كان كانيامِل متهالكًا. كانت ساقاها متورمتين بشكلٍ مشوه: كانت الوذمة[1]، وفقًا لما قاله الطبيب، تنتشر بالفعل على بطنه، وكان فمه أزرق مائلًا إلى السواد مثل الجثث.

كان يبدو أكثر ضخامة وهو يجلس على كرسي من الحبال، ورأسه يغوص بين كتفيه، غارقًا في سبات سكتة دماغية، لم يتمكن من الخروج منها إلا بمجهودات كبيرة. لم يسأل عن سبب الضجيج، وكأنه نسيه على الفور، وعندما رأى زوجته قام فقط بعمل إيماءة خرقاء من الفرح وهمهم:

- أنا مريض جدًّا... مريض جدًّا.

لم يكن يستطيع التحرك. بمجرد أن حاول الاستلقاء، اختنق، وكان لا بد أن يُسرعا لرفعه كما لو أن ساعته الأخيرة قد حانت.

---

(١) الوذمة: تورم ناتج عن احتباس السوائل الزائدة في أجزاء الجسم.

قامت نِلِتا بعمل استعداداتها للبقاء هناك. لن تسخر منها لاساماروكا أكثر من ذلك. لن تترك زوجها حتى ترجعه سليمًا إلى القرية.

لكنها هي نفسها قامت بعمل إيماءة عدم تصديق أمام أمل عودة كانيامِل إلى ألبوفيرا. لم يكن الأطباء يخفون رأيهم الحزين. كان يموت من روماتيزم القلب، توقف الانقباض. كان مرضًا بلا علاج، سيصير القلب من دون انقباض في لحظة غير متوقعة وستنتهي الحياة.

لم تتخل نِلِتا عن زوجها. هذان السيدان اللذان كتبا أوراقًا بالقرب منه لم يبعدا عن تفكيرها. كانت تغضبها غفوة كانيامِل فقد كانت تريد أن تعرف ما أملاه تحت الإلهام اللعين للاساماروكا، وكانت تهزه لتُخرجه من سباته.

لكن العم پاكو، عندما كان يعود للحظة، كان يجيب دائمًا على الشيء نفسه. كل شيء تم ترتيبه بشكلٍ جيد. إذا كانت الأمور جيدة، إذا كان يحبها كما كان يقسم مراتٍ عديدة، فلن يكون لديها ما تخشاه.

بعد يومين، تُوفي كانيامِل على كرسي الحَلْفاء الخاص به، مختنقًا بالربو، ومتورمًا، وساقاه داكنتان.

بكت نِلِتا بصعوبة. كان شيء آخر يقلقها. عندما غادرت الجثة إلى المقبرة وتحررت من المواساة التي كان يحيطها بها أهل الرُّصافة بشكلٍ مبالغ فيه، لم تفكر إلا في البحث عن كاتب العدل الذي وضع الوصية ومعرفة رغبة زوجها.

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لتحقيق رغبتها. كان كانيامِل يعرف كيف يفعل الأشياء بشكلٍ جيد، كما كان يدعي في لحظاته الأخيرة.

أعلن نِلِتا وريثته، دون وصايا أخرى أو أوصياء آخرين. لكنه أمر إذا تزوجت مرةً أخرى أو كان سلوكها يُظهر أنها في علاقة غرامية مع رجل، ينتقل ذلك الجزء من ثروته الذي يمكنه قانونيًّا التصرف فيه إلى صهرته وجميع أقارب الزوجة الأولى.

❊ ❊ ❊

- ٨ -

لم يعرف أحد كيف عاد تونِت لحانة المرحوم كانيامِل.

رآه الزبائن ذات صباح يجلس على طاولة صغيرة، وهو يلعب الورق مع سانجونِرا وعاطلين آخرين من القرية، ولم يستغرب أحد. كان من الطبيعي أن يتردد تونِت على متجر كانت نِلِتا مالكته الوحيدة.

عاد الكوبي ليقضي حياته هناك، وتخلى مرة أخرى عن والده، الذي كان يؤمن بالتحول الكامل. لكن لم تتكرر بينه وبين صاحبة الحانة تلك العلاقة التي فضحها في پالمار استعراضهما لأخوة مشبوهة. كانت نِلِتا، مرتدية الحداد، تقف خلف المنضدة، يزينها مظهر معين للسلطة. بدت أكبر عندما أصبحت غنية وحرة. كانت تمزح أقل مع الزبائن، أظهرت عفة فظة، كانت تستقبل، بعبوس مخيف وهي تضغط على شفتيها، النكات التي اعتاد الحاضرون عليها، وكان يكفي أن يلمس أحد الشاربين ذراعيها المشمرتين وهو يأخذ الكأس، حينها تُظهر نِلِتا أظافرها، مهددة بطرده.

لم يجرؤ تونِت على تركيز عينيه على نِلِتا، وكأنه يخشى تعليقات الناس. كانت لاساماروكا تتحدث بما فيه الكفاية، وهي تراه مرةً أخرى في الحانة! كان يلعب، ويشرب، ويجلس في زاوية، كما كان يفعل كانيامِل فيما مضى، وكان يبدو أنه خاضع لسيطرة تلك المرأة التي كانت تنظر إلى الجميع باستثنائه هو.

كان العم پالوما يفهم بمكره المعتاد حالة حفيده. كان دائمًا موجودًا هناك لكي لا يغيظ الأرملة، التي كانت تريد أن تجعله تحت نظرها، لممارسة سلطة مطلقة عليه. كان تونِت يحرسها، كما كان يقول العجوز، وعلى الرغم من أنه كان يشعر من وقت لآخر بالرغبة في الخروج إلى حقول القصب لإطلاق بضع طلقات، إلا أنه كان صامتًا وظل ساكنًا، فقد كان يخشى مهاترات نِلِتا -دون شك- عندما يصبحان وحدهما.

لقد عانت كثيرًا في الآونة الأخيرة، عندما تحملت مطالب كانيامِل المؤلمة، والآن بعد أن أصبحت غنية وحرة، كانت تعوض نفسها، مما جعل سلطتها تُثقل كاهل تونِت.

كان الفتى المسكين، الذي اندهش من السرعة التي رتب بها الموت الأمور، لا يزال يشك في حسن حظه عندما رأى نفسه في منزل كانيامِل، دون خوف من ظهور صاحب الحانة الغاضب. كان يطيع جميع مطالب الأرملة، وهو يتأمل تلك الوفرة التي كانت نِلِتا المالك الوحيد لها.

كانت تراقبه بحنانٍ قاسٍ، يشبه قسوة الأم. كانت تقول لتونِت الذي كان يتجرأ، بتحريض من سانجونِرا، على طلب كؤوس جديدة على منضدة الشراب:

- لا تشرب المزيد.

فكان حفيد العم پالوما، المطيع كطفل، يرفض الشرب وكان يبقى بلا حراك في مقعده، يحترمه الجميع، حيث لا يجهل أحد علاقته مع صاحبة المنزل.

كان الزبائن، الذين شهدوا علاقتهما الحميمة في أيام كانيامِل، يجدون أنه من المنطقي أن يكونا على علاقة غرامية. ألم يكونا مخطوبين؟ ألم يحبا بعضهما لدرجة إثارة غيرة الهادئ العم پاكو؟... سوف يتزوجان الآن، بمجرد أن تمر شهور الانتظار التي يقتضيها القانون بالنسبة للأرملة، وسيظهر الكوبي بمظهر المالك الشرعي وراء تلك المنضدة التي كان يقتحمها بالفعل كعشيق.

الوحيدون الذين لم يتقبلوا هذا الحل هم لاساماروكا وأقاربها. لن تتزوج نِلِتا: لقد كانوا متأكدين من ذلك. كانت تلك المرأة الصغيرة ذات اللسان المعسول شريرة لكي تفعل ما أمر به الله. وبدلًا من أن تقوم بعمل تضحية وتتنازل لأقارب الزوجة الأولى عن ما كان ملكها، كانت تفضل أن تعيش متورطة مع الكوبي. فبالنسبة لها لن يوقفها شيءٌ مرةً أخرى. لقد رأى كانيامِل المسكين أشياء أعظم قبل موته!

كانت لاساماروكا وعائلتها يمارسون تجسسًا دقيقًا على العاشقين، تدفعهم الوصية التي كانت تقدم لهم إمكانية الثراء، واقتناعهم بأن نِلِتا لن تمهد الطريق لهم وتتزوج.

في الساعات المتأخرة من الليل، عندما كانت الحانة تُغلق، كانت المرأة المسنة الشرسة، المتدثرة في شالها، تتجسس على رحيل الزبائن،

وتبحث بينهم عن تونِت.

كانت ترى سانجونِرا يعود إلى كوخه بخطوات مترنحة. كان يطارده رفاقه بسخرية، وهم يسألونه عما إذا كان قد قابل شحاذ المقصات الإيطالي مرةً أخرى. كان هادئًا وهو في غمرة سُكره... آثمون! فمن المستحيل أن يكونوا مسيحيين ويسخرون من هذا اللقاء! سيأتي بالفعل القدير، وسيكون عقابهم ألا يعترفوا به، ولا يتبعونه، ويُحرموا من السعادة المنتظرة للمختارين.

في بعض الأحيان، عندما كان سانجونِرا يمكث بمفرده أمام كوخه، كانت لاساماروكا تقترب منه، وهي تخرج من الظلام مثل الساحرة. أين كان تونِت؟ لكن المتشرد كان يبتسم بخبث، وهو يخمن نوايا المرأة المسنة. بضعة أسئلة له! فيجيبها وهو يمد يديه بإيماءة غامضة، كأنه يريد أن يعانق ألبوفيرا بأكملها:

– تونِت؟ حول العالم، حول العالم.

كانت لاساماروكا لا تعرف الكلل في استفساراتها. قبل الفجر كانت أمام كوخ عائلة پالوما، وعندما فتحت لابوردا الباب بدأت محادثةً معها، بينما كانت تُلقي نظرات نهمة داخل المسكن لترى إذا كان تونِت بالداخل.

اقتنعت عدوة نِلِتا المتمادية بأن الشاب بقي في الحانة ليلًا. يا لها من فضيحة! لقد مات كانيامِل منذ بضعة أشهر فقط! لكن أكثر ما كان يزعجها بشأن هذه الجرأة الغرامية هو أن وصية صاحب الحانة لم تتحقق، ونصف ممتلكاته لا تزال في يد الأرملة، بدلًا من أن تنتقل إلى

أقارب الزوجة الأولى. سافرت لاساماروكا إلى بلنسية: تستعلم من أشخاص كانوا يعرفون القوانين حتى أطراف أظافرهم، وقضت وقتها في إثارة مستمرة، وهي تكمن ليالي كاملة حول الحانة، برفقة أقاربها الذين كانوا بمثابة شهود. وكانت تتوقع أن يغادر تونِت المنزل قبل الفجر بعد اختبار علاقته بالأرملة. لكن أبواب الحانة لم تُفتح طوال الليل: ظل البيت مظلمًا وصامتًا، وكأن الجميع ينامون في داخله نوم العفة. في الصباح، عندما فُتحت الحانة، ظهرت نِلِتا خلف المنضدة هادئة، مبتسمة، منتعشة، وهي تنظر إلى الجميع وجهًا لوجه، وكأن ليس لديها ما تخفيه، وبعد فترة طويلة، ظهر تونِت وكأنه سحر، دون أن يتيقن الزبائن ما إذا كان قد دخل من الباب الذي يؤدي إلى الشارع أو من الباب المطل على القناة.

كان من الصعب القبض على ذلك الزوج وهما يخطئان. يئست لاساماروكا، واعترفت بمكر نِلِتا. لتتجنب الأسرار، طردت خادمة الحانة، واستبدلت بها خالتها، تلك المرأة العجوز التي لا إرادة لها، المستسلمة لكل شيء، والتي كانت تشعر ببعض الاحترام، لا تستثني منه الخوف، أمام مزاج ابنة أختها العنيف وثروتها.

استوقف القِس دون ميجيل، الذي كان على علم بتصرفات لاساماروكا الخفية، تونِت أكثر من مرة، موبخًا إياه ليتجنب الفضيحة. كان لا بد أن يتزوجا: في أي يوم يمكن أن يفاجئهما أصحاب الوصية وستُحكى الحقيقة في جميع أنحاء ألبوفيرا. حتى لو خسرت نِلِتا جزءًا من ميراثها، ألم يكن من الأفضل أن تعيش كما أمر الله، بلا كتمان أو

كذب؟ كان الكوبي يهز كتفيه. هو كان يريد الزواج، لكن كان عليها أن تعقد النية. كانت نِلِتا هي المرأة الوحيدة في پالمار التي وقفت بحلاوتها المعتادة في وجه القِس الفظ: فقد كانت ساخطة عندما سمعت توبيخه. كانت كلها أكاذيب! هي تعيش دون أن تفتقد أحدًا. لم تكن بحاجة إلى رجال. كانت تحتاج إلى خادم في الحانة وكان لديها تونِت، الذي كان رفيق طفولتها... ألا يمكنها أن تختار في منزل مثل منزلها، الذي يمتلئ بالمصالح، الشخص الذي يستحق أكبر قدر من الثقة؟ كانت تعرف أنها افتراءات من لاساماروكا لمنحها حقول الأرز الخاصة بزوجها المتوفى، نصف الثروة التي ساهمت في إنشائها كزوجة شريفة ومجتهدة. لكن تلك الساحرة ستكون وقحة إذا انتظرت الميراث! سوف تجف ألبوفيرا أولًا!

كان بخل المرأة الريفية يتجلى في نِلِتا مع حِدة قادرة على إحداث أشد حالات الغضب. استيقظت داخلها غريزة أجيال عديدة من الصيادين البائسين الذين كان يقضمهم البؤس، والذين كانوا يعجبون بحسد بثروة أولئك مَن يمتلكون الحقول، ويبيعون النبيذ للفقراء ويستولون على المال ببطء. كانت تتذكر طفولتها الجائعة، أيام الهجر، حيث كانت تقف بتواضع عند باب عائلة پالوما، وهي تنتظر أن تشفق عليها والدة تونِت، الجهود التي اضطرت أن تبذلها لتغزو قلب زوجها ومعاناتها أثناء مرضه، والآن بعد أن أصبحت الأكثر ثراءً في پالمار، ستضطر إلى تقسيم ثروتها على الأشخاص الذين كانوا يؤذونها دائمًا؟ كانت تشعر أنها قادرة على ارتكاب جريمة بدلًا من التنازل عن شيء

ولو حتى تافه إلى أعدائها. كانت احتمالية انتقال جزء من حقول الأرز، التي كانت تهتم بها بشغف، إلى لاساماروكا تجعلها تستشيط غضبًا، وكانت يداها ترتعشان بالهياج نفسه الذي جعلها في الرُّصافة تنقض على عدوتها.

كان امتلاك الثروة قد غيّرها. لقد كانت تحب تونِت كثيرًا، لكن بينه وبين ممتلكاتها، لن تتردد في التضحية بحبيبها. إذا تركت تونِت، فسيعود عاجلًا أو آجلًا، حيث كانت حياته مرتبطة بها إلى الأبد، ولكن إذا تخلت عن أصغر جزء من ميراثها، فلن تراه مطلقًا.

لذلك استقبلت بسخط المقترحات الخجولة التي قدمها لها تونِت في الليل في صمت الطابق العلوى من الحانة.

كانت حياة الهروب والاختفاء هذه تُحزن الكوبي. أراد أن يكون المالك القانوني للحانة، لإبهار جميع الناس بمنصبه الجديد، وإظهار رجولته أمام الأشخاص الذين كانوا يحتقرونه. بالإضافة إلى ذلك (وهذا ما كان يخفيه باهتمام)، كونه زوج نِلِتا، سيخف من شخصيتها المسيطرة واستبدادها كامرأة غنية يمكنها طرد حبيبها وإساءة استخدام الموقف. بما أنها كانت تحبه فلماذا لا يتزوجان؟

عندما قال تونِت هذا في عتمة غرفة النوم، سُمع حفيف قش الذرة في الفراش، والذي كانت تسببه حركات نِلِتا المتململة. كان لصوتها بحة غضب... هو أيضًا؟ لا، يا إلهي، كانت تعرف ما تحتاج إلى فعله، ولم تطلب النصيحة. كانا أفضل هكذا. هل كان هناك شيء ينقصه؟ ألم يكن لديه كل شيء كما لو كان المالك؟ لماذا يسمح بأن يزوجهما دون

ميجيل، ثم بعد الحفلة، تتخلى عن نصف ثروتها في يدي لاساماروكا القذرتين؟ أحرى بها أن تقطع ذراعها بدلًا من بتر ميراثها. علاوة على ذلك، كانت تعرف العالم. لقد خرجت بضع مرات من البحيرة، وذهبت إلى المدينة، حيث كان السادة معجبين بطلاقة لسانها، ولم يكن يخفى عنها أن ما بدا أنه ثروة في پالمار، كان خارج ألبوفيرا بمثابة فقر مقبول. كان لديها ادعاءاتها بأنها طموحة. لم تكن مضطرة دائمًا إلى ملء الكؤوس والتعامل مع السكارى، كانت تريد إنهاء أيامها في بلنسية، في شقة، مثل سيدة تعيش على دخلها. كانت ستقرض المال أفضل من كانيامِل، وستجد حلًّا لزيادة ثروتها بوفرة متواصلة، وعندما تكون ثرية حقًّا، ربما تقرر التساهل مع لاساماروكا، وتسلمها ما ستنظر له حينها على أنه مبلغ زهيد. حينئذٍ، يمكنه التحدث معها عن الزواج إذا استمر في التصرف بشكلٍ جيد وإطاعتها دون خلافات. لكن في الوقت الحاضر لا، تبًّا! لا زواج أو إعطاء مال لأحد: تُفتح بطنها أولًا مثل سمكة التنش.

وكانت تعبّر عن نفسها بطلاقة لدرجة جعلت تونِت لم يجرؤ على الرد. علاوة على ذلك، فإن ذلك الشاب الذي كان يحاول، بشجاعة، فرض نفسه على البلدة بأكملها شعر بأن نِلِتا تهيمن عليه وخاف منها، فقد شعر أنه لم يعد واثقًا من عاطفتها كما كان يعتقد في البداية.

لم يكن الأمر أن نِلِتا قد سئمت من هذا الحب. لقد كانت تحبه، لكن ثروتها أعطتها تفوقًا كبيرًا عليه. علاوة على ذلك، فإن الامتلاك المتبادل خلال ليالي الشتاء التي لا نهاية لها في الحانة المغلقة ودون أي مخاطر، قد أخمد فيها الإثارة التي يسببها الخطر، والشهوة المرتعشة

التي سيطرت عليها في زمن كانيامِل عندما كانا يقبّلان بعضهما خلف الأبواب، أو المواعدة السريعة في ضواحي پالمار المعرضة دائمًا للمفاجأة.

بعد أربعة أشهر من هذه الحياة الزوجية تقريبًا، من دون عائق آخر سوى مراقبة لاساماروكا، والتي كان يسهل خداعها، اعتقد تونِت للحظة أنه يمكن تحقيق رغباته الزوجية. بدت نِلِتا قلقة وجادة. كانت تقطيبة حاجبيها العمودية تشي بالأفكار المحزنة. كانت تتشاجر مع تونِت لأبسط الذرائع، تهينه، تصده وتتأسف على حبه، وهي تلعن لحظة الضعف التي احتضنته فيها، لكن لاحقًا، يدفعها جسدها، كانت تقبله مرةً أخرى، وتستسلم بلا مبالاة، كما لو أن الألم الذي كان يسيطر عليها لا يمكن إصلاحه.

حوَّل مزاجها المتفاوت والعصبي ليالي الحب إلى مقابلات مضطربة، تتناوب خلالها المداعبات مع الاتهامات المتبادلة، ولم يمض وقت طويل قبل أن يعضا أفواه بعضهما قبل لحظات من التقبيل. أخيرًا، ذات ليلة، كشفت نِلِتا، بكلمات متقطعة بسبب غضبها، سر حالتها. كانت حتى ذلك الحين صامتة، تشك في مصيبتها، لكن الآن، بعد شهرين من المراقبة، أصبحت متأكدة. ستكون أمًّا... شعر تونِت بالرعب والرضى في الوقت نفسه، بينما واصلت هي نحيبها. كان من الممكن أن يحدث ذلك عندما كان يعيش كانيامِل من دون أي خطر. لكن الشيطان، الذي كان متورطًا معهما بلا شك، يعتقد أنه من الأفضل ظهور العقبة في اللحظات الصعبة، بينما هي تهتم بإخفاء حبها حتى لا تُرضي أعداءها.

سألها تونِت بخجل، بعد لحظة المفاجأة الأولى، عما ستفعله. خمنت هي في ارتجاف صوته الأفكار الخفية لحبيبها وانفجرت في الضحك بقهقهة ساخرة ومستهزئة كانت تكشف عن صلادة روحها. آه! هل اعتقد أنهما سيتزوجان لهذا السبب؟ لم يكن يعرفها. يمكنه أن يتأكد من أنها ستقتل نفسها بدلًا من الاستسلام أمام أعدائها. ما يخصها كان ملكًا لها. وستدافع عنه. لم تكن لتتزوج من تونِت، حيث يوجد علاج لكل شيء في العالم!

مرت نوبة الغضب التي سببتها الحيلة القذرة التي سمحت بها الطبيعة وفاجأتهما بها عندما كانا يعتقدان أنهما أكثر أمنًا، وواصلت نِلِتا وتونِت حياتهما وكأن شيئًا لم يحدث، وهما يتجنبان الحديث عن العقبة التي نشأت بينهما، وتآلفا معها، مطمئنين لأن حدوثها كان لا يزال بعيدًا، واثقين بشكلٍ غامض في حدوث أي ظرف غير متوقع يمكن أن ينقذهما.

كانت نِلِتا، دون أن تتحدث عن ذلك لعشيقها، تبحث عن طريقة للتخلص من الحياة الجديدة التي كانت تشعر بنبضها داخل أحشائها كأنها تهديد لبخلها.

وحكت الخالة، المفزوعة من سرها، عن علاجات قوية. كانت تتذكر محادثاتها مع عجائز پالمار عندما أعربت عن أسفها للسرعة التي تتكاثر بها العائلات الفقيرة. وبناءً على نصيحة ابنة أختها، كانت تذهب إلى الرُّصافة أو تدخل المدينة لاستشارة الأطباء الدجالين الذين يتمتعون بشهرة غامضة في الطبقات الاجتماعية الدنيا، وتعود من هناك بعلاجات

غريبة، كانت تتركب من مكونات مثيرة للاشمئزاز تقلب المعدة.

ظل تونِت مندهشًا لعدة ليالٍ من اللصقات النتنة التي على جسد نِلِتا، والتي منحتها صاحبة الحانة أكبر قدر من الإيمان: لبخات من الأعشاب البرية، والتي أضفت على أمسيات الحب جوًّا من السحر.

لكن ثبت بمرور الوقت أن جميع العلاجات غير فعالة. مرت أشهر واقتنعت نِلِتا بيأسٍ شديد بعدم جدوى جهودها.

كما كانت تقول الخالة، ذلك الكائن الخفي متشبث جيدًا، وعبثًا كافحت نِلِتا للتخلص منه داخل أحشائها.

كانت مقابلات العاشقين أثناء الليل عاصفة. بدا أن كانيامِل كان ينتقم، ويُبعث بين الاثنين، ليدفعهما ضد بعضهما البعض.

كانت نِلِتا تبكي من اليأس، متهمة تونِت في مصيبتها. لقد كان المذنب: بسببه كان مستقبلها يتعرض للخطر. وعندما كانت تسأم من إهانة الكوبي، أثناء عصبيتها، تعلق عينيها الغاضبتين على بطنها- التي كانت تفلت بها من فضول الغرباء ومن المضايقات التي تتعرض لها خلال النهار- التي كانت تبدو أنها تكبر كل ليلة بانتفاخ هائل. كرهت نِلِتا بغضب شرس الكائن الخفي الذي كان يتحرك في أحشائها، وبقبضتها المغلقة ضربت نفسها بشكلٍ وحشي، وكأنها تريد أن تسحقه داخل الغلاف الدافئ.

كرهه تونِت أيضًا، حيث رأى فيه تهديدًا. كان يفكر برعب، بعد أن لوثه جشع نِلِتا، في فقدان جزء من هذا الميراث الذي كان يعتبره ملكه.

كان ينصح حبيبته بجميع العلاجات التي كان يسمعها بارتباك في المحادثات الجريئة بين أصحاب المراكب. كانت تجارب قاسية، وجرائم ضد الطبيعة تجعل الشعر يقف، أو عِلاجات سخيفة تثير الابتسام، لكن صحة نِلِتا كانت تسخر من كل شيء. كان هذا الجسد، رقيق المظهر، قويًّا وصلبًا واستمر في صمت ليحقق أسمى وظيفة للطبيعة، دون أن تتمكن الرغبات الشريرة من تحريف أو تأخير عمل الخصوبة المقدس.

كانت الأشهر تمر. كانت نِلِتا تضطر إلى بذل جهود كبيرة، وإلى المعاناة من مضايقات هائلة لكي تخفي حالتها عن كل الناس. كانت تشد مشدها في الصباح بطريقة قاسية تجعل تونِت يرتجف. وفى كثير من الأحيان كانت تفتقر إلى القوة لاحتواء تدفق الأمومة. كانت تقول وهي تُظهر لحبيبها أربطة مشدها بإيماءة مخيفة، وتضغط على شفتيها لاحتواء تأوهات ألمها:

– شِد... شِد!

وكان تونِت يشد، وهو يشعر بعرق بارد على جبهته، مرتجفًا من الإرادة التي كانت تُظهرها تلك المرأة الصغيرة، وهي تزأر بهدوء وتبتلع دموع كربها.

زينت وجهها ولجأت لكل المستحضرات العطرية الرخيصة لتظهر في الحانة نضرة، هادئة وجميلة كالعادة، دون أن يتمكن أحد من قراءة أعراض حالتها على وجهها. كانت لاساماروكا، التي كانت تشمشم حول المنزل مثل الكلب البِرديجِرو، تشعر بشيء غير طبيعي وهي تلقي

بنظراتها السريعة من خلال الباب. خمنت النساء الأخريات، بخبرة جنسهن، ما كان يحدث لصاحبة الحانة.

بدا جو من الشك واليقظة يتشكل حول نِلِتا. كان هناك الكثير من النميمة عند أبواب الأكواخ. كانت لاساماروكا وأقاربها يتشاجرون مع النساء اللواتي لم يرغبن في قبول ادعاءاتهم. كانت الثرثارات النمامات، بدلًا من إرسال أطفالهن الصغار إلى الحانة للحصول على النبيذ أو الزيت، يذهبن شخصيًّا للوقوف أمام المنضدة، وهن يبحثن عن ذرائع مختلفة حتى تنهض صاحبة الحانة من كرسيها، وتتحرك لخدمتهن، بينما يتابعونها بأعين شرهة، وهن يقدرن خطوط خصرها المشدود.

كانت بعضهن تقلن بمظهر المنتصر عندما لمحْنَها مع الجارات:

- نعم، هو كذلك.

وكانت أخريات تصرخن:

- لا، ليس كذلك. كل شيء كذب.

وكانت نِلِتا، التي خمّنت سبب كثرة المجيء والذهاب، ترحب بابتسامة ساخرة بالفضوليين... الكثير من الخير هنا! ألن يستريحوا إذا لم يستطعن رؤيتها؟ كانت تظهر في منزلها حالة من الهرج والمرج!

لكن هذه البهجة الوقحة، والجرأة التي تثير فضول الثرثارات، كانت تتبخر في الليل، بعد يوم من المعاناة الخانقة والسكينة المصطنعة. كانت عندما تنزع الدرع الضخم، تسقط شجاعتها فجأة، مثل شجاعة جندي تجاوز المثابرة البطولية ولم يعد قادرًا على القيام بذلك. كان يغمرها

الإحباط، في الوقت نفسه الذي كانت تتفرق أحشاؤها المتورمة التي فلتت من المضايقات. كانت تفكر برعب في العذاب الذي ستخضع له في اليوم التالي لإخفاء حالتها.

لم تعد تستطيع تحمل المزيد. هي، القوية جدًّا، أعلنت هذا لتونِت في صمت بعض الليالي التي لم تكن ليالي غرام، بل ليالي قلق وأسرار مؤلمة. الصحة اللعينة! كيف كانت تحسد النساء المريضات اللاتي لا تنبت حياة في بطونهن أبدًا!

في لحظات الإحباط هذه كانت تتحدث عن الهروب، عن ترك الحانة المؤتمنة عليها إلى خالتها، واللجوء إلى حي منعزل في المدينة حتى تخرج من الورطة. لكن التفكير يجعلها ترى على الفور عدم جدوى الهروب. كانت تظهر أمامها صورة لاساماروكا. كان الفرار بمثابة إثبات لما كان حتى ذلك الحين مجرد شكوك. إلى أين ستذهب حتى لا تتبعها أخت زوجة كانيامِل الشرسة؟

علاوة على ذلك، كان ذلك في أواخر الصيف، كانت ستجمع المحصول من حقول الأرز، وسيثير غيابها غير المبرر فضول المدينة بأكملها، فهي امرأة تهتم بمصالحها بحماسٍ شديد.

ستبقى. سوف تواجه الخطر وجهًا لوجه: فعندما تبقى في مكانها سيراقبونها بشكلٍ أقل. كانت تفكر برعب في الولادة، وهو لغز مؤلم كان يبدو أكثر كآبة تلفه ظلال المجهول بالنسبة لها، وحاولت أن تنسى خوفها فاهتمت بعمليات الحصاد، وساومت بدناءة العمال الأجراء على سعر عملهم. كانت توبخ تونِت، الذي كان سيراقب العمال بناءً

على طلبها، لكنه كان يحمل دائمًا بندقية الصيد الخاصة بكانيامِل وكلبته المخلصة ثِنتيا في قاربه الصغير، ويهتم بإطلاق النار على الطيور أكثر من عد حِزم الأرز.

في بعض فترات المساء، كانت تترك الحانة في رعاية خالتها وتذهب إلى الجُرن، وهو ساحة من الطين الصلب وسط مياه الحقول. كانت هذه الرحلات مهدئة لوضعها المؤلم.

كانت تمزق مشدها بإيماءة حزينة، وهي مختبئة خلف الحِزم، وتجلس بجانب تونِت، على كومة ضخمة من قش الأرز، تنبعث منها رائحة نفاذة. كانت الأحصنة تدور عند قدميهما في مهمة الدَّرْس[1] الرتيبة، وتبسط ألبوفيرا أمامهما صفائحها الخضراء الهائلة، وهي تعكس الجبال الحمراء والزرقاء المقلوبة التي كانت تقطع الأفق.

هَدَّأَت فترات المساء الرائقة من توتر العاشقين. كانا أكثر سعادة مما كانا عليه في غرفة النوم المغلقة، التي كان يسكن عتمتها الرعب. كانت البحيرة تبتسم بعذوبة وهي تقذف من أحشائها الحصاد السنوي. بدا أن أغاني الدرّاسين وأطقم القوارب الكبيرة المحملة بالأرز تهدئ الأم ألبوفيرا بعد تلك الولادة التي كفلت الحياة لأطفال ضفافها.

كان هدوء المساء يخفف من حدة شخصية نِلِتا الساخطة، مما منحها ثقة جديدة. كانت تحسب على أصابعها مسار الشهور ومدة الحمل التي كانت تتحقق منها في أحشائها. لم يتبق سوى القليل من

(١) الدَّرْس: هي عملية فصل الحبوب عن القش.

الوقت للحدث المؤلم الذي يمكن أن يغير مصير حياتها. سيكون الشهر التالي، في نوفمبر، ربما عندما تُقام في ألبوفيرا جولات صيد الطيور التي تُسمى سان مارتين وسانتا كاتالينا. وعندما كانت تَعُد، تتذكر أنه لم يمر عام على وفاة كانيامِل، ومع غريزة المنحرفة غير الواعية، التواقة إلى ترتيب حياتها وفقًا لسعادتها، ندمت على عدم استسلامها لتونِت قبل أشهر. وهكذا كان من الممكن أن تتباهى بحالتها دون خوف، وتنسب إلى الزوج أبوة الكائن الجديد.

احتمال تدخل الموت في شؤونها كان يُعيد ثقتها بنفسها. من يدري إذا كان الطفل سيولد ميتًا بعد كل هذا الرعب؟ لن يكون الأول. وتحدث العاشقان، اللذان خدعهما هذا الوهم، عن الطفل الميت كظرف مؤكد لا مفر منه، وكانت نِلِتا تتحسس حركات أحشائها، وهي تشعر بالرضا عندما لا يُصدر الكائن الخفي أي علامة تدل على الحياة. سيموت! بلا شك. لن يتخلى عنها الحظ السعيد الذي كان يرافقها دائمًا.

أدى الانتهاء من الحصاد إلى صرف انتباهها عن هذه المخاوف. كانت أكياس الأرز تتراكم في الحانة. احتلت الغلة الغرف الداخلية للمنزل، وكُدست بجانب المنضدة، لتأخذ مساحة من الزبائن، وحتى أنها احتلت زوايا غرفة نوم نِلِتا. أُعجبت بالثروة الموجودة في الأكياس، وثملت من غبار الأرز القابض. وعندما فكرت أن نصف هذا الكنز قد يكون ملكًا للاساماروكا! عندما تذكرت ذلك فقط، شعرت نِلِتا بقوتها تولد من جديد يدفعها الغضب. كانت تعاني كثيرًا بسبب التستر المؤلم على حالتها، لكنها تفضل الموت قبل أن تستسلم للنهب.

كانت بحاجة إلى حلول فعالة. كان وضعها يزداد سوءًا. انتفخت قدماها، وشعرت برغبة لا تقاوم في عدم الحركة، والبقاء في السرير. على الرغم من ذلك، كانت تأتي إلى منضدة الشراب كل يوم، لأن ذريعة المرض يمكن أن تثير الشكوك. كانت تتحرك ببطء عندما كان يجبرها الزبائن على النهوض، وكانت ابتسامتها المصطنعة بمثابة تشنج مؤلم يجعل تونِت يرتجف. بدا الخصر الضيق قريبًا من الانفجار الذي يسببه التفاف الحيتان القوي.

كانت تئن بشدة وهي تخلع ملابسها، وتندفع منبطحة على الفراش:

- لا أستطيع بعد الآن.

كان العاشقان يتبادلان كلامهما، في صمت غرفة النوم، ببعض الرعب، وكأنهما شاهدا الشبح المُهدِّد لخطيئتهما ينهض بينهما... ماذا لو لم يولد الطفل ميتًا؟ كانت نِلِتا متأكدة من ذلك. كانت تشعر به يتحرك في أحشائها بقوة بددت أملها الإجرامي.

تمردها كامرأة جشعة، غير قادرة على الاعتراف بالخطيئة في سبيل عدم المساس بالثروة، أوحى لها بالقرار الجريء لكبار المجرمين.

أمر تافه حمل الطفل إلى بلدة مجاورة لألبوفيرا، والبحث عن امرأة مخلصة لتربيته. لكنها تخاف من طيش المرضعة، ومكر الأعداء وحتى عدم حذرهما، فهما كأبوين سيتعلقان بالصغير، ويكشفان نفسيهما في النهاية. كانت نِلِتا تفكر ببرود مرعب، وهي تنظر إلى أكياس الأرز المكدسة في غرفة نومها. ولم تفكر في إخفائه في بلنسية أيضًا. فستتعقب لاساماروكا أثرها، ستبحث عن الحقيقة في الجحيم نفسه.

ثبَّتت نِلِتا عينيها الخضراوين، اللتين بدتا ضائعتين بسبب قلق الألم وخطر الموقف، على حبيبها. لا بد من التخلي عن المولود، مهما كان. يجب أن يكون لديه الشجاعة. يظهر الرجال وقت الخطر. سيأخذه إلى المدينة ليلًا، وسيتركه في الشارع، عند باب الكنيسة، في أي مكان: بلنسية كبيرة... ويخمنون من هما الوالدان!

حاولت المرأة القاسية، بعد أن اقترحت الجريمة، أن تجد أعذارًا لشرها. ربما يكون نصيب الصغير هذا الهجر . فإن مات كان خيرًا له. وإذا نجا، فمن يدري في أي يد يمكن أن يقع! ربما كانت الثروة تنتظره: فقد عُرفت حكايات أكثر إدهاشًا. وكانت تتذكر قصص الطفولة، أبناء ملوك تُركوا في الغابة، أو أبناء الزنا لزوجات الرعاة، الذين بدلًا من أن تأكلهم الذئاب، يصبحون شخصيات ذات نفوذ.

كان تونِت يستمع إليها برعب. حاول المقاومة، لكن نظرة نِلِتا فرضت بعض الخوف على إرادته الضعيفة دائمًا. إلى جانب ذلك، شعر أيضًا أن الجشع ينهشه: لقد اعتبر كل شيء تملكه نِلِتا ملكًا له، وكان غاضبًا من فكرة تقسيم ميراث حبيبته مع الأعداء. جعله التردد يغلق عينيه ويثق في المستقبل. لن ييأس: سيحاول الآن إصلاح كل شيء. ربما سيأتي حظه الجيد لحل النزاع في اللحظة الأخيرة.

وتمتع بهدوء مؤقت، وترك الوقت يمر دون التفكير في مقترحات نِلِتا الإجرامية.

كان مرتبطًا بها إلى الأبد: كانت كل عائلته. كانت الحانة الآن منزله الوحيد. انفصل عن والده، الذي علم من نميمة الناس عن حياته

الزوجية مع صاحبة الحانة، ورأى أن أسابيع وأشهر مرت دون أن ينام ابنه ليلة واحدة في الكوخ، أجرى معه مقابلة سريعة ومؤلمة. ما كان يفعله تونِت كان عارًا على عائلة پالوما. لم يكن يستطيع تحمل نعت ابنه بأنه رجل يعيش علانية على حساب امرأة ليست زوجته. كان يريد أن يعيش في العار، بعيدًا عن أهله ومن دون مساعدتهم... كأنهم لا يعرفون بعضهم البعض! لقد أصبح بلا أب: من الممكن مقابلته مرة أخرى عندما يستعيد شرفه فقط. وبعد هذا التوضيح، استمر العم توني في دفن حقوله بمساعدة مخلصة من لابوردا. الآن وقد اقترب المشروع العظيم من نهايته، شعر بالإحباط: تساءل بحزن لمن يجب أن يكون ممتنًّا على الكثير من الجهد، وبسبب إصرار العامل فقط، استمر في هذه المثابرة.

لقد حان وقت جولات صيد الطيور الضخمة: سان مارتين وسانتا كاتالينا، احتفالات سالِر.

في جميع اجتماعات المراكبية، كان يُحكى بحماس عن العدد الكبير من الطيور التي كانت هذا العام في ألبوفيرا. كان يرى حراس الصيد، الذين كانوا يراقبون من بعيد الزوايا والشجيرات حيث كانت تتجمع طيور الغُرّة، زيادتها بشكل سريع. كانت بقعًا كبيرة سوداء على سطح الماء. عندما يمر قارب بالقرب منها، كانت تنشر أجنحتها وهي تطير في مجموعة مثلثة وتذهب إلى مكان أبعد قليلًا، مثل سحابة من الجراد، منومة بسبب بريق البحيرة، وغير قادرة على ترك المياه التي ينتظرها فيها الموت.

انتشر الخبر في جميع أنحاء المقاطعة، وسيصبح عدد الصيادين أكثر من السنوات الأخرى.

جعلت جولات صيد الطيور الضخمة في ألبوفيرا كل بنادق بلنسية في حالة اضطراب. كانت احتفالات قديمة، كان يعرف أصلها العم پالوما منذ أن كان يحتفظ بأوراق هيئة المحكمين، ويحكيها لأصدقائه في الحانة. عندما كانت ألبوفيرا تابعة إلى ملوك أراجون، وكان الملوك فقط هم من يستطيعون القنص فيها، أراد الملك دون مارتين أن يمنح مواطني بلنسية يومًا للاحتفال، واختار يوم قديسه. لاحقًا، تكررت الجولات أيضًا في يوم سانتا كاتالينا. خلال هذين الاحتفالين، كان بإمكان جميع الناس أن يدخلوا البحيرة بحرية بأفخاخهم، ويصطادون الطيور التي لا تعد في حقول القصب، وتكرر الامتياز، الذي تحول إلى تقليد، عبر القرون. الآن كان للجولات المجانية مقدمة مدتها يومان، حيث يُدفع لمستأجر ألبوفيرا لاختيار أفضل المواقع، ويأتي الرماة من جميع مدن المقاطعة.

شحت القوارب الصغيرة والمراكبية الذين كانوا في خدمة القناصين. ولم يدرِ العم پالوما، المعروف منذ سنوات عديدة بين الهواة، كيف يلبي مطالبهم. لقد كان مقترنًا منذ فترة طويلة برجلٍ ثري كان يدفع بسخاء مقابل تجربته أمور ألبوفيرا. ولكن ليس لهذا السبب كان القناصون ينتهون إلى التوجه إلى شيخ المراكبية. كان العم پالوما يسير من مكان إلى آخر وهو يبحث عن قوارب صغيرة ورجال لكل من كتب إليه من بلنسية.

عشية إطلاق النار، رأى تونِت جده يدخل الحانة. لقد جاء يبحث عنه. في ذلك العام، كان في ألبوفيرا بنادق صيد أكثر من الطيور. لم يعد يعرف من أين يأتي بالمراكبية. كل مَن كان مِن سالِر، من كاتارّوخا، وحتى أولئك من كانوا من پالمار مرتبطون: والآن، أحد الزبائن القدامى، الذي لم يكن من الممكن رفضه، أوصاه برجلٍ وقاربٍ صغيرٍ لصديقٍ له كان يصطاد لأول مرة في ألبوفيرا. هل كان يريد تونِت أن يكون هذا الرجل، ليُخرج جده من الورطة؟

رفض الكوبي. كانت نِلِتا مريضة. في الصباح كانت قد غادرت منضدة الشراب، وهي غير قادرة على مقاومة الآلام. ربما تحدث اللحظة المخيفة قريبًا جدًّا، وكان بحاجة إلى التواجد في الحانة.

لكن رفضه المقتضب فُسر على أنه ازدراء للرجل العجوز الذي بدا غاضبًا. ولأنه أصبح ثريًّا الآن، فقد سمح لنفسه أن يحتقر جده المسكين، تاركًا إياه في وضع سخيف! لقد كان يتحمل كل شيء: لقد عانى من كسله عندما استغلوا موقع صيد السمك، أغمض عينيه عن سلوكه مع صاحبة الحانة الذي لم يُشرف العائلة كثيرًا، لكن يتركه في مأزق كان يعتبره مشرفًا؟ يا إلهي! ماذا سيقول عنه أصدقاؤه من المدينة عندما يرون أنه في ألبوفيرا، حيث كانوا يعتقدون أنه سيدها، لم يستطع العثور على رجل لخدمتهم؟ وكان حزنه عظيمًا وواضحًا لدرجة أن تونِت ندم. كان رَفْضُ مساعدته في جولات صيد الطيور بالنسبة للعم پالوما إهانة لهيبته وفي الوقت نفسه بدا الأمر كخيانة لبلد القصب والطين حيث وُلدوا.

قَبِل الكوبي طلب جده بخضوع. كان يعتقد أيضًا أن نِلِتا يمكن أن

تنتظر. لفترة طويلة كانت تزعجها الآلام الزائفة، والنوبة الحالية ستكون هي نفسها مثل النوبات الأخرى.

في نهاية الليل، وصل تونِت إلى سالِر. بصفته مراكبيًّا، كان عليه أن يساعد في لادِمانا، ويشهد مع صياده توزيع المواقع.

كان البيت الريفي في سالِر (البعيد عن البحيرة، في نهاية قناة من جهة بلنسية) يبدو غير عادي بسبب جولات الصيد الكبيرة.

في موقع من القناة كان يُسمى الميناء، احتشدت عشرات القوارب السوداء معًا، دون مساحة للتحرك، وكانت جوانبها الرقيقة تُحدث صريرًا ضد بعضها البعض وتهتز من وزن الدلاء الخشبية الضخمة التي كان من المقرر تثبيتها في اليوم التالي فوق أوتاد في طين. في داخل هذه الدلاء، كان يختبئ القناصون لإطلاق النار على الطيور.

بين منازل سالِر، أقامت بعض الشابات الطيبات من المدينة طاولاتهن من الحبوب المحمصة وحلواء عفنة، وأضأن الشموع المحمية بأقماع ورقية. عند أبواب الأكواخ، كانت نساء البلدة يغلين أباريق القهوة، ويقدمن فناجين تلامسها المشروبات الكحولية، حيث كان القصب أكثر من القهوة، وقد كان عدد غير عادي من السكان يسير عبر البلدة، ويزيد عددهم في كل لحظة بسبب العربات والترتانات التي كانت تصل من المدينة. كانوا برجوازيين من بلنسية، يرتدون مِسماة عالية ولبادات ضخمة، مثل محاربي ترانسفال[1]، يتباهون بشراسة

(١) ترنسفال: كانت مقاطعة في جنوب أفريقيا من عام ١٩١٠ حتى عام ١٩٩٤ وقسمها الدستور الجديد بعد الفصل العنصري. قبل ذلك وبالتحديد في عام ١٨٧٧ احتلتها بريطانيا، وفى عام ١٨٨٦ تم اكتشاف الذهب والماس بها مما أدى إلى توافد المستوطنين إليها بأعداد كبيرة.

ببلوزاتهم وجيوبها الصغيرة التي لا حصر لها، يصفرون على كلابهم ويعرضون بفخر بنادق الصيد الحديثة الخاصة بهم في جراب أصفر معلق على الكتف، الفلاحون الأثرياء من مدن المقاطعة، مع دُثُر فخمة وجعبة خراطيش فوق الحزام، وبعضهم بالوشاح الملفوف على شكل تاج الأسقف، والبعض الآخر يرتديه مثل العمامة أو يتركه يرفرف مع ذيل طويل على الرقبة، وتوحي زينة رؤوسهم جميعًا بزوايا بلنسية المختلفة التي كانوا يأتون منها.

كان يبدو أن البندقية تتشابه مع القناصين. كانوا يتعاملون بأخوة رفقاء السلاح، وهم متحمسون عندما يفكرون في حفلة اليوم التالي، كانوا يتحدثون عن البارود الإنجليزي، البنادق البلجيكية، وجودة الأسلحة النارية المركزية، وهم يرتجفون من شهوة العرب الشرهة، وكأنهم كانوا يستنشقون في كلماتهم دخان الطلقات. كانت الكلاب، الضخمة والصامتة، بنظرتها المتيقظة الغريزية، تنتقل من مجموعة إلى أخرى وهي تشم رائحة أيدي القناصين، إلى أن تظل بلا حركة بجوار سيدها. في جميع الأكواخ، التي حُولت إلى نُزُل، كانت النساء تطبخ العشاء مع النشاط المعتاد في الاحتفالات التي كانت تساعدهم على العيش معظم العام.

رأى تونِت منزلًا يُدعى إنفانتس، طابق أرضي من الحجر، بهيكل مرتفع من القرميد تتخلله عدة نوافذ صغيرة: بيت كبير من القرن الثامن عشر كان ينهار ببطء منذ أن توقف القناصون ذوو الدماء الملكية عن القدوم إلى ألبوفيرا، وفى الوقت الحاضر كانت تحتله حانة. أمامه

كان منزل لادِمانا، وهو مبنى من طابقين كان يبدو عملاقًا بين الأكواخ الخشبية، ويظهر في جدرانه المتقشرة عدة قضبان حديدية ملتوية وعلى سطحه ناقوس لاستدعاء القناصين لتقسيم المواقع.

دخل تونِت هذا المنزل، وهو يلقي نظرة خاطفة على قاعة الطابق الأرضي، حيث كان يتم الاحتفال. كان فانوس ضخم يرسل ضوءه الغائم على الطاولة وكراسي مستأجري ألبوفيرا. فُصلت المنصة عن بقية الغرفة بحاجز من حديد.

كان العم پالوما هناك، بصفته مراكبيًّا جليلًا، يمزح مع القناصين المشهورين، المتعصبين للبحيرة والذين كان يعرفهم منذ نصف قرن. كانوا الطبقة الأرستقراطية من القناصين. كان هناك أغنياء وفقراء: بعضهم من كبار ملاك الأراضي وآخرون جزارون من المدينة أو مزارعون متواضعون من القرى المجاورة. لا يرون بعضهم أو يبحثون عن بعضهم في بقية العام، ولكن عندما كانوا يلتقون في ألبوفيرا كل يوم سبت، في الجولات الصغيرة، أو عند الاجتماع في الكبيرة، كانوا يقتربون من بعضهم البعض بعاطفة الأخوة، يقدمون لبعضهم التبغ، يعيرون بعضهم الخراطيش وكانوا يستمعون لبعضهم بالتبادل، دون أن يرمش أحدهم، عن الحكايات الرائعة لعمليات القنص المدهشة التي حدثت في الجبال خلال فصل الصيف. مجتمع الأذواق والأكاذيب يتوحدان بشكلٍ أخوي. حمل جميعهم تقريبًا بشكلٍ واضح مخاطر هذه الهواية على أجسادهم، والتي كانت تهيمن على حياتهم. كان البعض، عند تحريك أيديهم من حماس القصة، تظهر أصابعهم المبتورة بسبب

انفجار بندقية الصيد، كان لدى آخرين خدود متشققة بسبب ندبة وميض. كان الأكبر سنًّا، المحنكون، مصابين بالروماتيزم نتيجة لقضاء شبابهم في العراء، لكن في الجولات الكبيرة لم يكونوا يتمكنون من البقاء ساكنين في منازلهم، وكانوا يأتون، على الرغم من أمراضهم، للتأسف على حماقة القناصين الجدد.

انفضَّ الاجتماع. وصل المراكبية ليعلنوا أن العشاء جاهز، وكانوا يغادرون في مجموعات، ووزعوا أنفسهم على الأكواخ المضيئة التي انعكست من أبوابها البقع الحمراء على الأرضية الطينية. كانت رائحة كحول قوية معلقة في الهواء. كان قناصو الطيور يخافون من ماء ألبوفيرا. لم يكونوا يتمكنون من شرب سائل البحيرة مثل أهل البلاد، خوفًا من الحمى، وكانوا يجلبون معهم شحنة حقيقية من الأفسنتين والروم، والتي عندما كانوا يزيحون الغطاء عنها كان الهواء يتشرب برائحتها القوية.

كان تونِت، يتذكر حكايات جده، عندما رأى سالِر متحمسةً للغاية كما لو أن جيشًا يخيم بها: العربدة التي كان ينظمها فيما مضى للقناصين الأثرياء من المدينة، حيث كانت النساء تجري عاريات، تطاردها الكلاب، الثروات التي تُدمر في الأكواخ البائسة خلال ليالٍ طويلة من لعب الورق، بين الرمية والرمية: كل الملذات الغبية للبرجوازية ذات الثروة السريعة، التي عندما كانت ترى نفسها بعيدة عن العائلة، في زاوية شبه همجية، متحمسة من مشهد الدماء ودخان البارود، تشعر بوحشية بشرية تولد فيها من جديد.

بحث العم پالوما عن حفيده ليُقدمه إلى قناصه. كان رجلًا سمينًا، دمث الخُلق ومسالمًا. رجل صناعة من المدينة كان يعتقد، بعد حياة مليئة بالعمل، أن الوقت قد حان للاستمتاع مثل الأغنياء وتقليد ملذات أصدقائه الجدد. بدا منزعجًا من عُدته المخيفة: كانت تثقله حقائب الصيد، البندقية، والأحذية الطويلة، كل شيء جديد، تم شراؤه للتو. لكن عندما لاحظ حزام الخرطوش على شكل حزام كتف يعبر صدره، كان يبتسم تحت قبعة من اللبد ضخمة، وتصور نفسه مساويًا لأحد أبطال البوير[1] الذين أعجب بصورهم في الصحف. كان يصطاد لأول مرة في البحيرة، واعتمد على خبرة المراكبي في اختيار الموقع عندما يأتي رقمه.

تناول ثلاثتهم العشاء في كوخ مع قناصين آخرين. كانت موائد العشاء في سهرات كهذه صاخبة. كان الروم يتدفق في الكؤوس، ويتجمع حول المائدة، مثل الكلاب الجائعة، الجيران من القرية، وهم يضحكون على نكات السادة، ويقبلون كل ما يقدمونه لهم، ويشربون شيئًا واحدًا يعتقد القناصون أنه كافٍ للجميع.

كان تونِت بالكاد يأكل، وهو يستمع كما لو كان في حلم إلى صراخ وضحكات هؤلاء الناس، اعتراض مبهج كانوا يستقبلون به المآثر الكاذبة للقناصين المتفاخرين. كان يفكر في نِلِتا، كان يتخيلها منكمشة من الألم في الطابق العلوي من الحانة، تتمرغ على الأرض،

(١) البوير: جماعة من المستوطنين المسيحيين الهولنديين الذين توغلوا فى أفريقيا من الجنوب باتجاه الشمال، وعُرفوا ببسالتهم في القتال.

تخنق صيحاتها، غير قادرة على الصراخ لكي تستريح من معاناتها.

خارج الكوخ، كان يدق الجرس الكبير لمنزل لادِمانا مع الجرس الصغير المهتز للأبرشية.

قال العم پالوما، الذي كان يحصي عدد الضربات باهتمام كبير، وهو خائف من أن يتأخر على لادِمانا أكثر من أن يفوت القداس.

– اثنان.

عندما رن الجرس الكبير للمرة الثالثة، غادر القناصون والمراكبية الطاولة، متجهين جميعًا إلى المكان الذي حُدد للمواقع.

تم زيادة ضوء الفانوس بواسطة مصباحي نفط وُضعا على منضدة المنصة. خلف الحاجز الشبكي كان مستأجرو ألبوفيرا، وخلفهم، حتى الجدار البعيد، القناصون المشتركون دائمًا في البحيرة، الذين كانوا يشغلون الموقع نفسه. على الجانب الآخر من الحاجز، كان المراكبية، القناصون الفقراء وعالم الصغار بأكمله مَن أتوا لإطلاق النار، يزدحمون عند البوابة وينتشرون خارج المنزل. كانت رائحة البطانيات الرطبة والسراويل الملطخة بالطين، العرق والتبغ السيئ تنتشر فوق الحشد الذي كان يضغط على الحاجز. كان القميص النصفي المشمع الخاص بالصيادين ينزلق على الأجساد المجاورة مع أزيز كان يشحذ الأسنان. في الإطار الكبير لظل الباب المفتوح، تم تمييز الموجّهات[1] البيضاء للأكواخ المجاورة مثل بقع غير واضحة الملامح.

(١) الموجَّهة: مثلث في أعلى واجهة المبنى أو الأبواب والنوافذ.

على الرغم من هذا التجمع، لم يتبدل الصمت الذي بدا أنه سيطر على الجميع بمجرد أن وطأت أقدامهم العتبة. كان هناك القلق الصامت نفسه الذي يسود في المحاكم عندما يُحسم مصير رجل، أو في القرعات عند تقرير حظهم. إذا تحدث أحدهم كان بصوتٍ منخفضٍ، بهمسٍ خجول، كما هو الحال في غرفة نوم مريض.

نهض المستأجر الرئيس:

- السادة الأفاضل...

أصبح الصمت أعمق. كان سيشرعون في طلب المواقع.

على جانبي الطاولة، كانا أقدم حارسين في ألبوفيرا منتصبين مثل رسولي سُلطة البحيرة: رجلان نحيفان، داكنا البشرة، يهتزان في حركاتهما وشفاههما غليظتان، أنقليسان يرتديان قميصين، كانا يعيشان في قاع الماء، يظهران فقط في احتفالات الصيد الكبيرة.

كان أحد الحراس ينادي الأسماء لمعرفة ما إذا كانت جميع المراكز ستنشغل في جولة اليوم التالي.

- الأول! الثاني!...

كانوا يذهبون بالتناوب، حسب المبلغ الذي كانوا يدفعونه سنويًّا والأقدمية. كان أصحاب المراكب يجيبون ، عند سماع أرقام أربابهم:

- هنا! حاضر!

بعد مناداة الأسماء، جاءت اللحظة الجليلة، لادِمانا؛ التخصيص لكل مراكبي موقع إطلاق نار، بالاتفاق مع قناصه أو على حسابه الخاص باعتباره الأكثر خبرة. قال حارسٌ من الاثنين:

- الثالث!

وعلى الفور ألقى الشخص الذي كان يحمل هذا الرقم الاسم الذي فكر فيه. «شجيرة الرب...»، «القارب المتعفن...» «رُكن أنتينا». هكذا كانت تبدو مواقع ألبوفيرا الجغرافية غريبة الأطوار، سُمِّيت الأماكن حسب ذوق المراكبية، العديد من الألقاب التي لا يمكن تكرارها دون خجل أمام النساء أو تلك التي تقلب البطون عند ذكر أسمائها على الطاولة، رغم أنها سُميت في هذا الحدث المهيب، دون أدنى ابتسامة.

الحارس الثاني، الذي كان له صوت جهوريّ، عندما سمع تسمية المراكبية، رفع رأسه، وعيناه مغمضتان ويداه على الحاجز، قال بأعلى صوته، بصرخة مؤلمة كانت تنتشر في صمت الليل:

- الثالث سيذهب إلى شجيرة الرب... الرابع سيذهب إلى زاوية سان روتشي... الخامس إلى... الحلاق.

استغرقت تسمية المواقع ما يقرب من الساعة، وبينما كان الحراس يصيحون بها ببطء، كان فتى يسجلها في كتاب كبير على الطاولة.

بمجرد الانتهاء من تسمية المواقع، كانت تُحرر إجازات الصيد المتجول لعالم الصغار: تصاريح كانت تُكلف ريالين فقط والتي يمكن للمزارعين الذهاب لها في قواربهم الصغيرة في جميع أنحاء ألبوفيرا، على مسافة معينة من المواقع، والإجهاز على الطيور التي كانت تنجو من طلقات الأغنياء.

كان القناصون الكبار يستأذنون في الذهاب وهم يصافحون بعضهم

البعض. كان البعض يريد النوم في سالِر من أجل الذهاب إلى موقعهم في الفجر، آخرون، أكثر اتقادًا، يرحلون على الفور إلى البحيرة، راغبين في أن يراقبوا بأنفسهم تركيب الخزان الضخم الذي كان عليهم قضاء اليوم فيه. «هيا!... حظًّا سعيدًا واستمتع!»، وكان كل واحد يستدعي المراكبي الخاص به ليتأكد أنه لا يوجد شيء ينقص في الاستعدادات.

لم يكن تونِت في سالِر. في صمت حَدَث لادِمانا هاجمه كرب عظيم. كانت أمام عينيه صورة نِلِتا المؤلمة وهي تتلوى من المعاناة، وحدها هناك في پالمار، كانت تسقط على الأرض دون أن تجد من يواسيها، تهددها يقظة أعدائها.

لم يستطع مقاومة حزنه وغادر منزل لادِمانا، وهو يستعد للعودة على الفور إلى پالمار، مع أن هذا سيكلفه الشجار مع جده. بالقرب من منزل إنفانتِس، حيث كانت الحانة، سمعهم ينادونه. كان سانجونِرا. كان جائعًا وعطشًا. لقد جاب موائد القناصين الأغنياء دون أن يحصل على أتفه الفضلات: كل شيء أكله أصحاب القوارب.

فكر تونِت بأن يحل المتشرد محله، لكن ابن البحيرة اندهش من اقتراحه بقيادة القارب أكثر من لو دعاه قِس پالمار لإلقاء الخطاب يوم الأحد. لم يكن جيدًا لذلك، إلى جانب أنه لم يكن يحب الإبحار بأي شخص. لقد كان يعرف فكره بالفعل: العمل هو شيء شيطاني.

لكن تونِت، المتململ والقَلِق، لم يكن يسمع حماقات سانجونِرا. لا رفض، أم يريح جوعه وعطشه بركله في القناة. الأصدقاء معتادون على إخراج بعضهم من الورطات. كان يعرف جيدًا كيف يبحر بقوارب

الآخرين عندما كان يدس أظافره في شباك مواقع صيد السمك، ويسرق الأنقليس! علاوة على ذلك، إذا كان جائعًا، يمكنه أن يُسر كما لم يحدث من قبل بحمولة المؤن التي جلبها ذلك السيد من بلنسية. عندما رأى سانجونِرا مترددًا بسبب الأمل في الشبع، انتهى إلى الفصل في الأمر بدفعات قوية، والذهاب به إلى قارب القناص وهو يشرح له كيف رتب جميع الاستعدادات. عندما يأتي السيد من الممكن أن يخبره أنه مريض وقد سعى إليه كبديل.

قبل أن ينتهي سانجونِرا المذهول من التردد، كان تونِت قد ركب بالفعل قاربه الصغير الخفيف وانطلق وهو يُبحر بالمُردي مثل الرجل اليائس.

كانت الرحلة طويلة. كان لا بد من عبور ألبوفيرا بالكامل للذهاب إلى پالمار، ولم تكن ريح تهب. لكن تونِت كان يدفعه الخوف وعدم اليقين، وكان قاربه الصغير ينزلق مثل المكوك على النسيج المزركش الداكن للماء المرقط بنقاط ضوء النجوم.

وصل إلى پالمار بعد منتصف الليل. كان مرهقًا، وذراعاه متعبتان من الرحلة اليائسة، وكان يتمنى أن يجد الحانة هادئة حتى يسقط مثل قُرمة على السرير. عندما ربط قاربه الصغير أمام المنزل، رآه مغلقًا وصامتًا مثل كل الآخرين في القرية، لكن شقوق الأبواب كانت واضحة بخطوط من الضوء الأحمر.

فتحت خالة نِلِتا الباب له، وعندما تعرفت عليه انتبهت، وأشارت بمؤخرة عينيها إلى بعض الرجال الجالسين أمام الموقد. كانوا مزارعين

من جهة سويكا جاءوا إلى الجولات: زبائن قدامى لديهم حقول بالقرب من سالِر ولا يمكن طردهم؛ خوفًا من إثارة الشكوك. لقد تناولوا العشاء في الحانة وكانوا ينامون بجانب النار، ليصعدوا إلى قواربهم قبل ساعة من بزوغ الفجر وينتشرون عبر البحيرة، في انتظار الطيور التي هربت سالمة من المواقع الجيدة.

حيّاهم تونِت جميعًا، وبعد تبادل بضع كلمات حول الحفلة في اليوم التالي، صعد إلى غرفة نوم نِلِتا.

رآها في قميصها شاحبة وأساريرها ممتقعة، تضغط على كليتيها بكلتا يديها وبتعبير مجنون في عينيها. جعلها الألم تنسى الحكمة، وكانت تطلق صيحات تُخيف خالتها. كانت العجوز تصيح:

– سيسمعونكِ!

كانت نِلِتا تتغلب على المعاناة وتضع قبضتيها في فمها أو تعض أغطية سريرها لخنق أنينها.

نزل تونِت إلى الحانة، بناءً على نصيحتها. لم يكن هناك شيء يمكن علاجه بالبقاء فوق. مرافقته لهؤلاء الرجال وإلهائهم بمحادثته من الممكن أن تمنعهم من سماع شيء يثير الشكوك.

أمضى تونِت أكثر من ساعة يدفئ نفسه في جمر المدفأة، وهو يتحدث إلى مزارعي الحصاد الماضي والجولات الرائعة التي تم تحضيرها. كانت هناك لحظة انقطعت فيها المحادثة. سمعوا جميعًا صرخة وقحة وحشية، صرخة تشبه صرخة قتيل. لكن هدوء أعصاب تونِت طمأنهم. قال:

- السيدة تشعر بالسوء قليلًا.

واستمروا في الحديث، دون أن يلتفتوا لخطوات السيدة العجوز التي كانت تتنقل من جانب إلى آخر على عجل، مما جعل السقف يهتز. بعد نصف ساعة، عندما اعتقد تونِت أن الجميع قد نسوا الحادث، عاد وصعد إلى غرفة النوم. كان بعض المزارعين تتمايل رؤوسهم، ويغلب عليهم النوم.

وفوق، رأى نِلِتا ممدة على الفراش، بيضاء، شاحبة، بلا حراك، لا حياة بها سوى بريق عينيها. قالت بضعف:

- تونِت... تونِت!

خمن العاشق في صوتها وفى عينيها كل ما تريد أن تقوله له. كان أمرًا، تفويضًا صارمًا. العزيمة العنيفة التي أذهلت تونِت مراتٍ عديدةٍ ظهرت مرةً أخرى على الرغم من حالة الضعف التام بعد الأزمة المرهقة. تحدثت نِلِتا ببطء، بصوتٍ ضعيف مثل تنهيدة بعيدة. انتهى الأمر الأصعب بالفعل: الآن جاء دوره. لترى إذا كان سيُظهر شجاعة.

قدمت الخالة- المرتجفة، التي فقدت صوابها، دون أن تنتبه لأفعالها- لتونِت صُرة من الملابس، كان بداخلها كائنٌ صغير، متسخ، كريه الرائحة وجسده بنفسجي، يتحرك.

هَلِعَتْ نِلِتا عندما رأت المولود بالقرب منها. لم تكن تريد رؤيته: كانت تشعر بالخوف من نفسها، واثقة من أنها إذا نظرت إليه للحظة، فإن أمومتها ستولد من جديد وستفتقر إلى الشجاعة للسماح له بأخذه.

– تونِت... على الفور... خذه!

أعطى الكوبي تعليماته بسرعة إلى المرأة العجوز ونزل ليودع المزارعين الذين كانوا نائمين بالفعل. وخارج الحانة، من جهة القناة، سلمته العجوز الطرد الحيّ من خلال نافذة في الطابق السفلي.

عندما أُغلقت النافذة وبقي تونِت وحيدًا في عتمة الليل، شعر أن كل شجاعته تنهار فجأة. فوضى الملابس واللحم الطري تحت ذراعه أخافته. استيقظت فيه على الفور عصبية غريبة كانت تشحذ حواسه. كان يسمع كل ضجة القرية، حتى أقلها أهمية، وبدا له أن النجوم كانت تصطبغ باللون الأحمر. هزت الريح شجرة زيتون قزمة بالقرب من الحانة، وجعل حفيف أوراقها تونِت يركض، كما لو أن القرية كلها استيقظت وأتت نحوه تسأله عما يحمل تحت ذراعه. كان يعتقد أن لاساماروكا وأقاربها، الذين علموا بغياب نِلِتا خلال النهار، سوف يحومون حول الحانة مثلما مضى وأن الساحرة الشرسة ستظهر على ضفة القناة. يا لها من فضيحة لو فاجئوه مع تلك الصرة!... يا ليأس نِلِتا!

ألقى حزمة الملابس في قاع قاربه الصغير، حيث بدأ يتصاعد بكاء يائس وغاضب وأخذ المُردي يعبر القناة بسرعة جنونية. كان يُبحر وهو غاضب، كما لو كان مدفوعًا ببكاء المولود الجديد، خائفًا من أن يرى نوافذ المنازل تُضاء وأن تسأله ظلال الفضوليين إلى أين يذهب.

سريعًا ترك وراءه المساكن الصامتة في پالمار وخرج إلى ألبوفيرا.

بدا أن هدوء البحيرة وكآبة ليلة ساكنة مليئة بالنجوم، منحه الشجاعة. في الأعلى كانت السماء الزرقاء الداكنة، في الأسفل زرقة الماء المائلة

إلى البياض، متأثرة باهتزازات غامضة جعلت انعكاس النجوم يرتجف في أعماقها. كانت الطيور تصرخ في أحواض القصب وكان الماء يخر مع اهتزاز ذيل الأسماك التي تطارد بعضها. من وقت لآخر، كان يختلط البكاء المسعور للمولود حديثًا مع هذه الضجة.

استمر تونِت، المتعب بسبب تلك الليلة من السفر المستمر، في تحريك المُردي، ودفع القارب الصغير نحو سالِر. كان جسده يشعر بخَدَر التعب، لكن كان فكره، اليقظ، والحاد بسبب الخطر، يعمل بنشاط أكثر من ذراعيه.

كان بالفعل بعيدًا عن پالمار، لكن لا يزال أمامه أكثر من ساعة للذهاب إلى سالِر. من هناك إلى المدينة مدة ساعتين أخريين طويلتين في الطريق. نظر تونِت إلى السماء: لا بد أنها كانت الثالثة. قبل ساعتين كان الفجر قد بزغ والشمس ستكون بالفعل في الأفق عندما يصل إلى بلنسية. بالإضافة إلى ذلك، كان يفكر برعب في المسيرة الطويلة عبر بستان الرُّصافة، الذي كان يحرسه دائمًا الحرس المدني عند مدخل المدينة، في أفراد التهرب من الضرائب الذين سيريدون فحص الحزمة التي كان يحملها تحت ذراعه، وفى الناس الذين ينهضون قبل الفجر وسيلتقون به في الطريق وسيتعرفون عليه. وذلك البكاء اليائس الفاضح الذي كان يتعالى ويتصاعد ويشكل خطرًا حتى في وسط عزلة ألبوفيرا!

كان تونِت يرى أمامه طريقًا لا نهاية له، غير محدود، وكان يشعر أن قوته تتخلى عنه. لن يصل أبدًا إلى شوارع المدينة، المهجورة وقت الفجر، إلى بوابات الكنائس، حيث يُترك الأطفال مثل عبء مزعج. كان

من السهل من پالمار، في عزلة غرفة النوم الصامتة، قول: «تونِت، افعل هذا»، لكن بعد المضي في رحلته كان الواقع يلوح بعقبات لا يمكن التغلب عليها.

حتى في البحيرة نفسها كان الخطر يتزايد من حين لآخر. في أوقاتٍ أخرى، كان من الممكن الإبحار من شاطئ إلى آخر دون مقابلة أي شخص، ولكن في تلك الليلة كانت ألبوفيرا مأهولة بالسكان. بين كل الشجيرات، في كل اتجاه، كان يُلاحظ عمل رجال غير مرئيين، استعدادًا لجولات الصيد.

كانت القرية بأكملها تذهب وتأتي في العتمة على القوارب السوداء الصغيرة. في صمت ألبوفيرا الذي كان ينقل الضجيج على مسافات مذهلة، كانت المطارق الخشبية تدق وهي تثبت أوتاد مواقع القناصين، ومثل النجوم الحمراء كانت مجموعات الأعشاب المشتعلة تسطع على وجه الماء، وفى ضوئها كانت تنتهي استعدادات أصحاب المراكب. كيف يتابع، بين الناس الذين كانوا يعرفونه، يصحبه بكاء المولود، نحيبًا غير مفهوم في وسط البحيرة؟ لقد صادف قاربًا مر من بعيد جدًّا، لكن في متناول الصوت. ولا شك أنهم فوجئوا بذلك البكاء. صرخ صوتٌ بعيد:

– أيها الرفيق، ماذا تحمل هناك؟

لم يقل تونِت شيئًا، لكن قواه تخلت عنه لمواصلة الرحلة، وجلس على أحد طرفي القارب، مُطلقًا المُردي. كان يريد البقاء هناك، حتى لو فاجأه الفجر. كان خائفًا من الاستمرار واستسلم بإعياء المتأخر الذي

ارتمى على الأرض وهو يعلم أنه سيموت. أدرك أنه عاجز عن الوفاء بوعده. لقد فاجأوه، علم الجميع بما حدث، لقد فقدت نِلِتا ميراثها!... لم يعد يحتمل أكثر من ذلك!

ولكن بمجرد أن تبنى هذا القرار اليائس، ظهرت فكرة في دماغه بدت وكأنها تحرقه بلمستها. في البداية كانت نقطة نار، ثم جمرة، ثم شعلة، حتى اندلعت أخيرًا مثل حريق هائل جعل رأسه منتفخًا، مهددًا بالانفجار، بينما انتشر العرق الجليدي على جبهته مثل أنفاس هذا الغليان.

لماذا الذهاب أبعد من ذلك؟... كانت أمنية نِلِتا أن يختفي الشاهد على خطئها حتى لا تفقد جزءًا من الثروة، التخلي عنه، لأنه بوجوده كان يمكن أن يعرّض هدوءهما للخطر، ولهذا لا يوجد مكان مثل ألبوفيرا، حيث كان يختبئ رجال مطلوبون من قبل العدالة في الكثير من الأحيان، وتنقذهم من الملاحقات الدقيقة.

كان يرتجف عندما يفكر أن البحيرة لن تحافظ على وجود ذلك الجسم الصغير الضعيف والناهد، ولكن هل ستكون حياة الصغير أكثر أمنًا إذا تخلى عنه في أي زقاق بالمدينة؟ «الموتى لا يعودون لتعريض الأحياء للخطر». وكان تونِت، وهو يفكر في ذلك، يشعر بقسوة كِبار عائلة پالوما، قسوة جده الباردة، الذي رأى أطفاله الصغار يموتون دون دمعة، وتفكيره الأناني بأن الموت يكون خيرًا في الأسرة الفقيرة، حيث يترك المزيد من الخبز للناجين.

في لحظة من الوضوح، خجِل تونِت من شره، من اللامبالاة التي كان

يفكر بها في موت الكائن الذي كان عند قدميه، والذي كان صامتًا كما لو كان قد تعب من البكاء الغاضب. تأمله للحظة، وبالرغم من ذلك، لم تُولِّد نظرته أي عاطفة. كان يتذكر وجهه الضارب إلى البنفسجي، وجمجمته المدببة، وعينيه المنتفختين، والفم الضخم، الذي كان يتقلص ويمتد من الأذن إلى الأذن. رأس علجوم مثير للسخرية كانت تجعله يشعر بالبرد، دون أن يخفق داخله أدنى إحساس. ومع ذلك كان ابنه!

كان تونِت، من أجل تفسير هذا البرود، يتذكر ما كان يسمعه عدة مرات من جده. الأمهات فقط يشعرن بالحنان الغريزي والهائل تجاه أطفالهن منذ لحظة ولادتهم. الآباء لا يحبونهم على الفور: فهم يحتاجون أن يمر الوقت. وفقط عندما يكبر الطفل يشعرون بالارتباط به بسبب الاتصال المستمر، مع المودة الرصينة والجادة.

كان يفكر في ثروة نِلِتا، وكمال ذلك الميراث الذي كان يعتبره ملكه. تبدل قلب الكسلان القاسي وهو يرى حلًّا لمشكلة الوجود إلى الأبد، وكانت تتساءل أنانيته عما إذا كان من الحكمة تعريض ثروة حياته الجيدة إلى الخطر من أجل الحفاظ على كائن صغير وقبيح، مثل جميع الأطفال حديثي الولادة، لم يثر داخله أدنى عاطفة.

لأنه سيختفي لن يحدث شيء سيئ للوالدين، وإذا عاش، فسيضطران إلى إعطاء نصف الخبز الذي يضعونه في أفواههما إلى أُناس كريهين. كان تونِت، الذي يخلط القسوة والشجاعة مع عمى المجرمين، يلوم نفسه على تردده، الذي جعله يتسمّر في مؤخرة القارب، فيترك الوقت يمر.

خفت العتمة. كان يُخمن قرب النهار. كانت تمر بعض مجموعات من الطيور، مثل قطرات الحبر الزلقة، فوق سماء الفجر الرمادية. بعيدًا، من جهة سالِر، كانت تدوي الطلقات الأولى. بدأ الصغير يبكي، يتعذب بسبب الجوع وبرودة الصباح.

- أيها الكوبي! أهذا أنت؟

اعتقد تونِت أنه سمع هذا النداء من قارب بعيد.

الخوف من أن يتم التعرف عليه جعله يقف وهو يمسك بالمُردي. كانت هناك نقطة نار في عينيه، تشبه تلك التي كانت تُضيء أحيانًا نظرة نِلِتا الخضراء.

أطلق قاربه الصغير في أحواض القصب، متتبعًا الأزقة المتعرجة للمياه المفتوحة بين القصب. سار على غير هدى، منتقلًا من باقة عشب إلى أخرى، دون أن يعرف مكانه، ضاعف جهوده وكأن شخصًا يلاحقه. كانت البِروة تفصل القصب وتكسره. كانت تفتح الحشائش الطويلة لإفساح المجال للقارب، وجعلته الدفعات المجنونة للمُردي ينزلق عبر أماكن شبه جافة، على الجذور الضيقة للقصب، التي كانت تشكل شِللًا سميكة.

كان يهرب دون أن يعرف ممن، وكأن أفكاره الإجرامية تجدف وراءه وهي تلاحقه. انحنى فوق القارب الصغير عدة مرات، وهو يمد يده إلى تلك الصرة من الخرق التي كانت تخرج منها صرخات غاضبة، وسحبها على الفور. ولكن عندما تشابك القارب في بعض الجذور، فإن البائس، كما لو كان يريد أن يخفف القارب من ثقل هائل، أخذ الصرة

ورماها بقوة فوق رأسه، وراء القصب الذي كان يحيط به.

اختفت الحزمة وسط طقطقة القصب. ورفرفت الخِرَق للحظة في عتمة الفجر الخفيفة، مثل أجنحة طائر أبيض سقط ميتًا في أعماق البوص الغامضة.

مرةً أخرى شعر البائس بالحاجة إلى الفرار، كما لو كان شخص ما في مداه. أبحر خلال البوص يائسًا حتى وجد مجرى ماء. تبعه في كل منعطفاته بين الشجيرات العالية، وعندما خرج إلى ألبوفيرا، مع القارب الصغير الخالي من كل وزن، تنفس، متأملًا شريط الفجر المزرق.

ثم تمدد في قاع القارب ونام وحَلِم حُلمًا عميقًا ومرهقًا: حلم الموت الذي يأتي بعد الانهيارات العصبية الكبيرة والذي يلوح عادةً بعد جريمة.

* * *

- ٩ -

بدأ يوم القناص الواثق في خبرة سانجونِرا بعقبات كبيرة.

قبل الفجر، عند تسمير الموقع، اضطر البرجوازي الحكيم أن يناشد بعض أصحاب المراكب للمساعدة، والذين ضحكوا كثيرًا عندما رأوا الوظيفة الجديدة للمتشرد.

وبسرعة العادة، سمّروا ثلاثة أوتاد في القاع الموحل من ألبوفيرا ووضعوا الخزان الضخم، الذي كان سيستخدم كملاذ للقناص، مرتكزًا عليها. ثم أحاطوا الموقع بالقصب لخداع الطيور وجعلها تقترب بثقة، معتقدة أنها قطعة من القصب وسط الماء. وللمساعدة في هذا الخداع، كانت الهياكل تطفو حول الموقع: بضع عشرات من البط والغرة المنحوتة من الفلين، والتي كانت تتحرك، مع تموجات البحيرة، على سطح الماء. كانت من بعيد تترك انطباعًا بأن سربًا من الطيور يسبح بهدوء بالقرب من القصب.

دعا سانجونِرا السيد إلى شَغل الموقع، مقتنعًا بأنه انتهى من جميع الأعمال. كان يبتعد بالقارب الصغير على مسافة معينة حتى لا يخيف

الصيد، وعندما يموت عدد من طيور الغُرة، لن يضطر إلا إلى الصراخ، وسيذهب ليجمعها من الماء.

– هيا! حظ موفق، سيد خواكين!

كان المتشرد يتحدث بمثل هذه الاستكانة وكان يُظهر مثل هذه الرغبة في أن يكون مفيدًا لدرجة أن القناص اللطيف شعر أن غضبه، بسبب أخطائه السابقة، يتلاشى. سار الأمر على ما يرام: كان يناديه بمجرد سقوط طائر. وحتى لا يشعر بالملل أثناء الانتظار، كان يمكن أن ينغمس بعض الشيء في ألوان الطعام من مؤونته. لقد زودته السيدة بمثل هذه الوفرة كما لو كان سيسافر حول العالم.

وكان يشير إلى ثلاثة أوانٍ ضخمة مغطاة بعناية، بالإضافة إلى خبز وفير، سلة من الفاكهة، وبرميل كبير من النبيذ. ارتعد خطم سانجونِرا من التأثر وهو يرى ذلك الكنز الذي كان يغريه في البِرِوة منذ الليلة السابقة، لكنه كان واثقًا في فطنته. لم يخدعه تونِت عندما تحدث عن حُسن معاملة الزبون. شكرا لك، دون خواكين! ولأنه كان جيدًا جدًّا ودعاه إلى تناول الطعام، فسيسمح لنفسه بأن يغمس القليل من الخبز في الطعام ليضيع الوقت. مجرد القليل من التغميس لا أكثر.

وبابتعاده عن الموقع، أصبح في نطاق صوت القناص، ثم انكمش في قاع القارب الصغير.

لقد بزغ الفجر وطلقات الرصاص كانت تدوي في جميع أنحاء ألبوفيرا، واتسع صوتها بسبب صدى البحيرة. بالكاد ترى في السماء الرمادية أسراب الطيور، التي كانت تطير خائفة من ضجة إطلاق النار.

كان يكفي أن تنزل قليلًا أثناء رفرفتها السريعة، وهي تبحث عن الماء، حتى ينهال عليها على الفور سحابة من الرصاص.

عندما بقي دون خواكين بمفرده في موقعه، لم يستطع تجنب شعور مشابه للخوف. كان يرى نفسه معزولًا في وسط ألبوفيرا، داخل دلو ثقيل، دون أي دعم آخر سوى بعض الأوتاد، وكان خائفًا من أن يتحرك، متشككًا في أن كل هذه المنصة المائية ستهبط، ويُدفن في الوحل. كان الماء يصطدم، مع تموجات لطيفة، بالحافة الخشبية، بأعلى لحية القناص، وأصابه صوت اصطدامه المستمر بالقشعريرة. كان دون خواكين يفكر أنه إذا غرق ذلك الشيء، بحلول الوقت الذي يصل فيه المراكبي، مع الوزن الكامل للبندقية، والخراطيش، وتلك الأحذية الضخمة، التي كانت تتسبب في حكة لا تطاق، سيكون بالفعل في القاع وقد غرق في قش الأرز الذي كان الدلو محشوًّا به. كانت ساقاه تحترقان، ويداه مخدرتين من رطوبة الفجر وبرودة البندقية الجليدية. وهل كان هذا ممتعًا؟ بعد وقتٍ قصير بدأ في العثور على المتعة المكلفة.

وماذا عن العصافير؟ أين تلك الطيور التي كان يصطادها أصدقاؤه بالدزينة؟ كانت هناك لحظة تحرك فيها بعنف في قعدته الدائرية، ورفع بندقيته إلى وجهه بعاطفة شديدة. كانت بالفعل هناك! كانت تسبح بلا مبالاة حول الموقع. بينما كان يتأمل، وكاد أن ينعس مع برودة الفجر، أتت دزينة هاربة من طلقات الرصاص البعيدة، كانت تسبح بالقرب منه بثقة من يجد ملاذًا جيدًا. كان عليه فقط أن يطلق النار عشوائيًّا... صيدًا آمنًا! ولكن عندما بدأ في إطلاق النار، تعرف على الهياكل وسرب طيور

الفلين بأكمله الذي كان قد نسيه لعدم التعود، وأنزل بندقيته، وهو ينظر حوله، خائفًا من أن يجد في العزلة أعين أصدقائه الساخرة .

انتظر مرةً أخرى. على ماذا كان هؤلاء القناصون، الذين لم تتوقف بنادقهم عن هز هدوء البحيرة، يطلقون النار بحق الجحيم؟ بعد شروق الشمس بوقتٍ قصير، تمكن دون خواكين أخيرًا من إطلاق سلاحه البكر. مرت ثلاثة طيور بالقرب من سطح الماء. أطلق القناص المبتدئ النار وهو يرتجف. وبسبب الانفعال بدت له تلك الطيور ضخمة، وحشية، نسورًا حقيقية عملاقة. أدت الطلقة الأولى إلى إحياء الرحلة بشكلٍ أكبر، وعلى الفور انطلقت الثانية، وسقطت غُرة بجناحين مطويين بعد عدة شقلبات، وبقيت بلا حراك فوق الماء.

نهض دون خواكين بعنف إلى حد أن الموقع اهتز. في تلك اللحظة كان يعتبر نفسه متفوقًا على جميع الرجال: لقد أعجب بنفسه، وكشف في داخله عن شراسة بطل لم يكن يشك بها أبدًا. صرخ بصوتٍ يرتجف من التأثر:

– سانجونِرا! أيها المراكبي! واحدة! لدينا بالفعل واحدة!

أجابته دمدمة غير مفهومة تقريبًا: فم ممتلئ، مسدود، بالكاد يفسح المجال للكلمات... جيدًا! كان سيذهب ويأخذها عندما يزيد عددها.

عاد القناص، راضيًا عن إنجازه، إلى الاختباء خلف ستارة من البوص، واثقًا من أنه وحده سيكون كافيًا لقتل الطيور في البحيرة. أمضى الصباح كله يطلق النار، ويشعر في كل مرة بسُكر أكثر حِدة من البارود، لذة الإبادة. كان يطلق النار، ثم يطلق النار دون الالتفات إلى المسافات،

حيًّا ببندقيته جميع الطيور التي مرت أمام بصره، حتى لو طارت بالقرب من السحاب. يا إلهي! كان ذلك ممتعًا! وأثناء إطلاق النار العشوائي هذا، كانت رصاصاته تلامس أحيانًا الطيور التعيسة، التي سقطت قضاء وقدر ضحايا على يد خرقاء، بعد أن نجت سالمة من أمهر القناصين.

في هذه الأثناء، ظل سانجوِنِرا غير مرئي في قاع القارب. يا له من يوم، يا إلهي! لن يكون رئيس أساقفة بلنسية أفضل حالًا في قصره منه في القارب الصغير، وهو يجلس على القش، وفى يده نصف رغيف خبز ويضغط على قِدْرٍ بين ساقيه. لا أحد يحدثه عن وفرة منزل كانيامِل! فالشح والتفاخر يمكنهما أن يفتنا الفقراء فقط! سادة المدينة هم من يعاملون أنفسهم جيدًا!

لقد بدأ بفحص القدور الثلاثة المغطاة بعناية بقطعة قماش سميكة مربوطة من الفم. أيها سيكون الأول؟ اختار عشوائيًّا، وفتح واحدة، قام بتوسيع أنفه بشهوانية ليشم عطر سمك القد مع الطماطم. كانت تلك يخنة. تمت إذابة سمك القد بين معجون الطماطم الأحمر، طريًّا جدًّا، وشهيًّا جدًّا، لدرجة أنه عندما ابتلع سانجوِنِرا اللقمة الأولى، اعتقد أن ما كان يسقط في حلقه رحيق أحلى من سائل الإبريق الزجاجي الذي كان يغريه كثيرًا عندما كان خادم الكنيسة. بقي هكذا! لم يكن هناك سبب للمضي قدمًا. أراد أن يحترم غموض القدرين الأخريين، لا أن يبدد الأوهام التي كانت توقظها أفواههما المغلقة، حيث تنبأ بوجود مفاجآت كبيرة خلفهما. الآن إلى ما كنا عليه! وضع الوعاء زكي الرائحة بين ساقيه، بدأ يبتلع بهدوء حكيم، مثل شخص أمامه اليوم بأكمله ويعلم

أنه لا يمكن أن يفوته بالمشاغل. كان يغمس ببطء، لكن بمهارة، عندما أدخل يده المسلّحة بقطعة خبز في الحلة، خفض المستوى بشكل كبير. ملأت اللقمة الضخمة فمه، وانتفخ خداه. لقد كان فكاه يعملان بقوة وانتظام عجلة الطاحونة، وفى غضون ذلك، كانت عيناه، المثبتتان على الوعاء، تستكشفان أعماقه، وهو يحسب الرحلات التي لا يزال يتعين على يده القيام بها لنقل كل شيء إلى فمه.

من حين لآخر كان يوقظ نفسه من هذا التأمل. يا إلهي! يجب على الرجل الصادق المجتهد ألا ينسى واجباته وسط المتعة. كان ينظر خارج القارب، عندما رأى الطيور تقترب أطلق تحذيره:

– دون خواكين! من جهة پالمار!... دون خواكين! من جهة سالِر!

بعد تحذير القناص من أين تأتي الطيور، شعر بالتعب من العمل الكثير وأغرته بقوة قِربة النبيذ الصغيرة، واستأنف الحوار الخافت مع القِدر.

حمل السيد المنهك ثلاثة من طيور الغُرة، عندما ترك سانجونِرا جانبًا الحلة شبه فارغة. في القاع، كانت تلتصق بعض النُّسالة بالجدران الطينية. شعر المتشرد بنداء ضميره. ماذا سيبقى للسيد إذا أكل كل شيء؟ يجب أن يكتفي بالقليل من الغموس لا أكثر. وعندما كان يحفظ القِدر أسفل البِروة، ويغطيها بعناية، دفعه فضوله إلى فتح الثانية.

يا للعجب، يا لها من مفاجأة! لحم خاصرة الخنزير، سجق، أفضل لحم خنزير، كل شيء بارد، لكن أريج الدهون أثّر في المتشرد. كم من الوقت اعتادت معدته على لحم الأنقليس الأبيض عديم الطعم، لم

يعد يشعر بثقل الأشياء الجيدة التي تُصنع في المدن الداخلية! ووبخ سانجونِرا نفسه على عدم احترامه للسيد واحتقار القِدر الثانية. سيكون الأمر أشبه بقول إنه -كمتشرد جائع- لم تتحرك عواطفه أمام الأشياء الجيدة التي طُهيت في منزل دون خواكين. القناص لن يغضب إن كان الغموس أكثر أو أقل.

ومرة أخرى استقر في قاع القارب، ورجلاه متقاطعتان والوعاء بينهما. ارتجف سانجونِرا بقوة عندما ابتلع اللقمات: أغلق عينيه لتقدير نزولها البطيء إلى معدته بشكلٍ أفضل. يا إلهي، يا له من يوم، يا له من يوم عظيم!... بدا له أنه كان يمضغ لأول مرة طوال الصباح. الآن كان ينظر بازدراء إلى القِدر الأولى، المدسوسة تحت البِرِوة. كان هذا الصنف من الطعام صالحًا للتسلية ولخداع المعدة وترفيه الفكين. كان هذا أجود، النقانق المحشوة بالدم والتوابل، السجق، لحم خاصرة الخنزير الشهي الذي يذوب بين الأسنان، تاركًا هذه النكهة، لدرجة أن الفم يبحث عن قطعة أخرى، وأخرى لاحقًا، دون أن يكتفي.

شعر سانجونِرا، عندما رأى السهولة التي تم إفراغ الإناء الثاني بها، بلهفة لخدمة سيده، والوفاء بواجباته بدقة، ودائمًا بفكيه المشغولين، كان ينظر في كل مكان، أطلق بعض الصرخات التي بدت مثل الخوار:

- من جهة سالِر! من جهة پالمار!

ولكي لا تتشكل سدادة في حلقه، أمسك قِربة النبيذ الصغيرة بصعوبة. كان يشرب ويشرب من ذلك النبيذ، إنه أفضل بكثير من نبيذ نِلِتا، وبدا أن السائل الأحمر يثير شهيته، ويفتح هُوات جديدة دون قاع

في معدته. لمعت عيناه بنار السُّكر السعيد، تلون وجهه، بقوةٍ، بصبغةٍ ضاربة إلى اللون البنفسجي، وكان يحركه التجشؤ الصاخب من قدميه إلى رأسه. بابتسامة لطيفة ضرب بطنه المنتفخة. سأل بطنه، كما لو كانت صديقًا يصفق له:

– إه! كيف حالك؟ كيف تسير الأمور؟

وكان سُكره أحلى من أي وقتٍ مضى: سُكر رجل أكل جيدًا حتى أنه يشرب أثناء الهضم، ليس السُّكر الحزين الكئيب الذي كان يصيبه في بؤسه عندما كان يُلقي أكوابًا وأكوابًا في معدته الفارغة، يلتقي على ضفاف البحيرة بأُناس كانوا يدعونه دائمًا للشرب، لكن لا أحد كان يقدم له قطعة خبز.

انغمس في سُكره وهو يبتسم بينما لا يزال يأكل. كان يرى ألبوفيرا متلونة باللون الوردي. كانت تبدو السماء، باللون الأزرق المضيء، وكأنها تتمزق بابتسامة مثل تلك التي داعبته ذات ليلة على الطريق المؤدي إلى دِئِسا. كان يرى فقط سواد القِدر التي كان يحتفظ بها بين ساقيه مثل ظلمة قبر فارغ. لقد أكل كل شيء. لم يتبقَّ شيء من النقانق.

ظل للحظة مرعوبًا من شَرَهه. لكن شهيته جعلته يضحك فيما بعد، ولتجاوز مرارة الخطأ، رفع القِربة الصغيرة لفترة طويلة.

كان يضحك بقهقهة وهو يفكر فيما سيقولونه في پالمار عندما يعلمون بمآثره، ومع رغبته في استكمالها، تَذَوق كل مؤونة دون خواكين. كشف غطاء القِدر الثالثة.

يا للعجب! ديكان مخصيان عالقان بين الجدران الطينية، بجلدهما الذهبي والذي تسيل منه الشحوم: مخلوقان رائعان من صنع الرب، بلا رأسين، وأفخاذهما متصلة بجسديهما بعدة لفات من الخيوط المحمصة وصدرهما بارزان وأبيضان مثل صدر سيدة شابة. إذا لم يضع يديه على ذلك، لن يكون رجلًا! حتى لو أطلق دون خواكين النار عليه! منذ متى لم يتذوق مثل هذه الحلوى! لم يأكل اللحم منذ أن كان كلب تونِت، وكانا يصطادان بشجاعة في دِئِسا. لكن تفكيره في لحم طيور البحيرة الثخين والخشن، زادت من متعته التي كان يلتهم بها الألياف البيضاء للديكين، والجلد الذهبي، الذي يخشخش بين أسنانه بينما كانت الدهون تقطر من زاوية شفتيه.

لقد أكل مثل تمثال متحرك، بإرادةٍ صلبة على الابتلاع والابتلاع، وهو ينظر بقلق إلى ما تبقى في قاع القِدر، كما لو كان ملتزمًا برهان.

من حين لآخر كان يشعر بنوبات طفولية: الرغبة في أن يكون في حالة سُكر، إثارة الفوضى وعمل المقالب القذرة. أخذ التفاح من سلة الفاكهة وألقى بها على الطيور التي كانت تطير بعيدًا، كما لو كان بإمكانه الوصول إليها.

كان يشعر بحنان شديد تجاه دون خواكين بسبب السعادة التي منحها إياه، كان يتمنى أن يكون بقربه ليعانقه، ويتحدث معه بأُلفة، ومن دون أن يرى طائرًا في الأفق، كان يخور بخوار لا نهاية له:

- تشيمو! تشيمو[1]!... أطلق النار، على مَن تهرب منك!

كان القناص يلتفت وهو ينظر في كل مكان دون جدوى. لم يكن يرى طائرًا. ماذا يريد ذلك المجنون؟ ما كان عليه فعله هو الاقتراب لالتقاط طيور الغُرة الميتة التي كانت تطفو حول الموقع. لكن سانجونِرا كان ينكمش مرة أخرى في القارب دون إطاعة الأمر. بقي لوقتٍ! سأذهب لاحقًا! كانت أمنيته أن يقتل الكثير!... ولحرصه على تذوق كل شيء، كشف الغطاء الآن عن الزجاجات، وتذوق الروم والأفسنتين النقي، وبينما بدأت ألبوفيرا تُظلم بالنسبة له تحت أشعة الشمس الكاملة، كان يبدو أن ساقيه انغرزتا في ألواح القارب دون قدرة على تحريكهما.

في الظهيرة، نادى دون خواكين- الجائع والمتشوق للخروج من ذلك الدلو الذي أجبره على البقاء بلا حراك- على المراكبي. كان صوته يرن في الصمت بلا جدوى:

- سانجونِرا! سانجونِرا!

كان المتشرد يحدق في وجهه، ورأسه فوق الحافة، وهو يكرر أنه آتٍ في الحال، لكنه ظل بلا حراك، كما لو أنهم لم ينادوه. عندما هدده القناص، وقد احمر وجهه من الصراخ، بطلقة من بندقيته، بذل جهدًا، ووقف وهو يترنح، وبحث عن المُردي في جميع أنحاء القارب، رغم أنه في يديه، وأخيرًا بدأ يقترب ببطء.

(١) تشيمو: تصغير لاسم خواكين في اللغة الكتالونية.

عندما قفز دون خواكين إلى القارب الصغير، استطاع مد ساقيه المخدرتين من ساعات الانتظار الطويلة. بدأ المراكبي، بأمرٍ منه، في جمع الطيور الميتة، لكنه فعل ذلك وهو يتحسس طريقه، كما لو أنه لا يراها، ويُلقي بجسده إلى الخارج بقوة، حيث كان سيسقط عدة مرات في الماء لولا أن سيده سنده. كان القناص يصرخ:

- أيها الملعون! هل أنت سكران؟

سرعان ما حصل على التفسير وهو يتفحص مؤونته أمام نظرة سانجونِرا الغبية. القدور فارغة، القِربة الصغيرة متجعدة وذابلة، الزجاجات مفتوحة، كسرات قليلة من الخبز، وسلة الفاكهة يمكن أن تنقلب على البحيرة دون خوف من سقوط أي شيء!

شعر دون خواكين بالرغبة في رفع عَقِب بندقيته على المراكبي، ولكنه أغفل هذا الحافز، وهو يحدق فيه بدهشة. هل فعل وحده ذلك الدمار؟ يا لها من طريقة يأكل بها المتسكع لقيمات مغموسة! أين وضع الكثير من الأشياء؟ هل يمكن أن تتسع معدة الإنسان؟

لكن سانجونِرا، عندما سمع القناص الغاضب، الذي وصفه بأنه وغد ووقح، عرف فقط كيف يرد بصوتٍ يئنّ:

- آه دون خواكين! أنا مريض! مريض جدًّا!

أجل، كان يشعر بالسوء. كان يجب فقط رؤية وجهه المصفر، وعينيه اللتين تجاهدان دون جدوى لفتحهما، وساقيه اللتين لا تستطيعان الوقوف منتصبتين.

كان القناص الغاضب على وشك ضرب سانجونِرا عندما انهار في قاع القارب الصغير، وغرس أظافره في خصره كما لو كان يريد فتح بطنه. انحنى على شكل كرة، مع تشنجات مؤلمة تهز وجهه، أضفت على عينيه عتامة زجاجية.

كان يتأوه وفي الوقت نفسه يتقوس في تشنجات عميقة، يكافح من أجل أن يتخلص جسده من الشراهة المذهلة، والتي بدت أنها تخنقه بثقلها.

لم يعرف القناص ماذا يفعل، ومرة أخرى وجد رحلته إلى ألبوفيرا مزعجة. بعد نصف ساعة من السُّباب، وبينما كان يعقد العزم على أخذ المُردي والانطلاق بمفرده إلى سالِر، أشفق بعض الفلاحين، الذين كانوا يصطادون متفرقين بالقرب من البحيرة، على صرخاته.

تعرفوا على سانجونِرا وخمنوا شرهه. لقد كانت شراهة حتى الموت. لا بد أن ينتهي ذلك المتشرد هكذا.

بدافع من أخوة أهل الريف، والتي تحثهم على مساعدة حتى أكثر الناس تواضعًا، قاموا بحمل سانجونِرا في قاربهم لنقله إلى پالمار، بينما بقي أحدهم مع القناص، راضيًا أن يعمل كمراكبي عن أن يُطلق النار من بندقيته.

في منتصف المساء، رأت نساء پالمار المتشرد وهو يَخُر على ضفة القناة، كأنه صرة جامدة. صرخن جميعهن:

- الوغد! أسرف في الشراب!

لكن الرجال الطيبون- الذين قاموا بعمل صدقة وحملوه عاليًا مثل الميت إلى كوخه البائس- كانوا يهزون رؤوسهم حزنًا. لم يكن الأمر مجرد سُكر، وإذا نجا المتشرد من ذلك، فيمكن القول إن جسده قوي. كانوا يحكون عن ذلك الاختناق العجيب الذي كاد يودي بحياته، وضحك أهل پالمار بدهشة، دون أن يخفوا رضاهم حينها، فرحين لأن أحدهم أظهر مثل هذه المعدة الهائلة.

سانجونِرا المسكين! انتشرت أخبار مرضه في جميع أنحاء المدينة، وذهبت النساء في مجموعات إلى باب الكوخ، محدقات في هذا الكهف، الذي كان الجميع يفرون منه في السابق. كان سانجونِرا ممددًا على القش- وعيناه الزجاجيتان مثبتتان في السقف ووجهه الشمعي يرتجف- يهدر من الألم، كما لو أن أحشاءه الداخلية تتمزق. كان يطرد حوله أنهارًا مقززة من السوائل والطعام نصف الممضوغ. كانوا يسألون من الباب:

- كيف حالك يا سانجونِرا؟

كان المريض يُجيب بتذمر مؤلم، وهو يغير وضعه ليُدير ظهره، منزعجًا من موكب القرية بأكملها.

دخلت نساء أخريات، أكثر نشاطًا، جثون إلى جانبه، وتحسسن بطنه، راغبات في معرفة مكان الألم. كن يتناقشن فيما بينهن حول أنسب الأدوية، ويتذكرن تلك التي كانت تؤتي ثمارها مع عائلاتهن. ثم بحثن عن بعض النساء المسنات المشهورات بعلاجاتهن، اللاتي كن يتمتعن باحترام أكبر من احترامهن لطبيب پالمار المسكين. كان يصل بعضهن

ومعهن لبخات من أعشاب محفوظة بشكلٍ غامضٍ في أكواخهن. ظهرت أخريات ومعهن إناء من الماء الساخن، يردن من المريض أن يبتلعه في الحال. كان الرأي الذي اتفق عليه الجميع. توقف الطعام في فم التعيس من بطنه وكان لا بد من أن يُطرد... يا إلهي، شيء مؤسف ما يحدث لهذا الرجل! مات والده من السُّكر، وأصيب هو بالشراهة. يا لها من عائلة!

لم يكتشف سانجونِرا خطورة حالته إلا عندما اعتنت به النساء. لقد انعكست حالته في نظرة الشفقة العامة كما في مرآة، وخمن الخطر عندما وجد نفسه يتلقى الرعاية من النساء أنفسهن اللاتي سخرن منه في اليوم السابق، وتشاجرن مع أزواجهن وأطفالهن عندما وجدوهم في صحبته. كن يتهامسن جميعهن:

– المسكين! المسكين!

وبتلك الشجاعة التي تجعل النساء قادرات على مواجهة المحنة، أحطن به، وهن يقفزن فوق الفضلات النتنة التي تدفقت من فمه. كن يعرفن ما كان ذلك: كان لديه عقدة في مصارينه، وقررن بتدليل الأمهات أن يفتحوا فكيه، المضغوطين بسبب التشنج، وجعلوه يبتلع جميع أنواع السوائل العجيبة، والتي بعد وقتٍ قصير تقيأها عند أقدام الممرضات.

في نهاية الليل تركوه. كان عليهن طهي العشاء في منازلهن، وتُرك الرجل المريض وحده في عمق الكوخ، بلا حراك تحت الضوء الأحمر للقنديل الذي علقته النساء في أحد الشقوق. كانت كلاب القرية تطل بأنوفها من الباب تتأمل لفترة طويلة بأعينها الغائرة الرجل المريض، ثم تغادر بعواء حزين.

خلال الليل كان الرجال هم من يزورون الكوخ الخشبي. كانوا يتحدثون في حانة كانيامِل عن الحدث، وأراد أصحاب المراكب، المندهشون من أفعال سانجونِرا، رؤيته للمرة الأخيرة.

كانوا يطلون من الباب بخطوة مترددة، فقد كان معظمهم في حالة سُكر بعد تناول الطعام مع القناصين.

– سانجونِرا! يا بنيّ! كيف حالك؟

لكنهم تراجعوا على الفور، مصابين برائحة الفراش القذر الذي كان يتقلب فيه المريض. تقدم الأكثر حماسًا إليه ليمازحوه بسخرية فظة، ودعوه إلى شرب آخر كأس في منزل كانيامِل، لكن المريض كان يُجيب بأنين خافت فقط ويُغلق عينيه، ويغرق مرة أخرى في سباته، المتقطع بالتقيؤات والارتجافات. في منتصف الليل تُرك المتشرد.

لم يرغب تونِت في رؤية رفيقه القديم. كان قد عاد إلى الحانة بعد نوم طويل في القارب، نوم عميق وحشيّ، تقطعه أحيانا كوابيس حمراء وتهدهده طلقات القناصين النارية، التي كانت تتبعثر في دماغه مثل الرعد الذي لا ينتهي.

عندما دخل، تفاجأ برؤية نِلِتا جالسة أمام البراميل، شاحبة بلون الشمع، لكن دون أدنى قلق في عينيها، وكأنها قد قضت الليل بسلام. كان تونِت مندهشًا أمام شكيمة حبيبته.

تبادلا نظرة ذكية عميقة، مثل شخصين بائسين ارتبطا بقوة التواطؤ الجديدة.

بعد وقفة طويلة، تجرأت على سؤاله. كانت تريد أن تعرف كيف أنجز مهمته. وأجابها، ورأسه محنية وعيناه منخفضتان كأن كل الناس ينظرون إليه... أجل، لقد تركه في مكانٍ آمنٍ. لن يستطيع أحد اكتشافه.

بعد هذه الكلمات، المتبادلة بسرعة، ظل الاثنان صامتين، متأملين: هي خلف المنضدة، وهو يجلس عند الباب، وظهره إلى نِلِتا، يتجنب رؤيتها. بدوا مذهولين، كما لو أن وزنًا هائلًا كان يثقل كاهلهما. كانا خائفين أن يتحدثا مع بعضهما البعض، حيث كان صدى صوتهما يُحيي ذكريات الليلة السابقة.

لقد خرجا من الوضع الصعب: لم يعودا في خطر. اندهشت نِلِتا المفعمة بالحيوية من السهولة التي حُل بها كل شيء. لقد وجدت الشجاعة، وهي ضعيفة ومريضة، لتظل كما هي، لا أحد يستطيع أن يشك فيما حدث أثناء الليل، ومع ذلك شعر العاشقان فجأة أنهما غريبان عن بعضهما. كان هناك شيء ما قد كُسر بينهما إلى الأبد. كَبُر بشكلٍ هائل الفراغ الذي خلفه اختفاء ذلك الطفل الصغير الذي بالكاد رأوه، وعزل البائسين. كانا يعتقدان أنه من الآن فصاعدًا لن يقتربا من بعضهما إلا بنظرة يتبادلانها وهما يتذكران جريمتهما القديمة. كان القلق أكبر داخل تونِت عندما تذكر أنها لا تعرف المصير الحقيقي للطفل.

عندما حلّ الليل، امتلأت الحانة بأصحاب المراكب والقناصين الذين كانوا يعودون إلى أراضيهم في ريبِرا، حيث تظهر حزمة من الطيور الميتة، المربوطة من مناقيرها. جولة صيد رائعة! شربوا جميعًا، معلقين على مصير بعض القناصين وفِعل سانجونِرا الفظ. كان تونِت ينتقل من

مجموعة إلى أخرى، وهو يرغب في أن يُلهي نفسه، يتجادل ويشرب مع جميع المجموعات. رغبته في النسيان عن طريق السُّكر جعلته يشرب ويشرب بفرح مصطنع، واحتفل أصدقاؤه بروح الدعابة الطيبة للكوبي. لم يروه أبدًا سعيدًا إلى هذا الحد.

دخل العم پالوما الحانة وعيناه الصغيرتان المتفحصتان مثبتتان على نِلِتا.

- أيتها الملكة! كم أنت شاحبة! هل أنت بخير؟

تحدثت نِلِتا بشكلٍ غامض عن صداع لا يسمح لها بالنوم، بينما غمز الرجل العجوز عينيه بخبثٍ، وهو يربط الليلة السيئة بهروب حفيده غير المبرر. ثم واجهها بهذا. لقد استهزأ به أمام ذلك السيد من بلنسية. لم يكن سلوكه جدير بمراكبي من ألبوفيرا. لأسباب أقل من ذلك كان يصفعه أكثر من صفعة في أيام شبابه. فقط رجل ضائع مثله هو من يفكر في جعل سانجونِرا مراكبيًّا، وهو الذي انفجر من الشبع بمجرد أن تركوه بمفرده.

اعتذر تونِت. كان الوقت مناسبًا بالنسبة له لخدمة ذلك السيد. ففي غضون أسبوعين سيكون عيد سانتا كاتالينا، وكان تونِت قد قبِل أن يكون المراكبي الخاص به. قال العم پالوما، وهو يُهدئ من غضبه أمام تفسيرات حفيده، إنه دعا بالفعل دون خواكين للصيد في أحواض القصب في پالمار. سيأتي في الأسبوع التالي، وسيكون هو وتونِت ملاحيه. لا بد من إرضاء أهل بلنسية؛ حتى يكون لدى ألبوفيرا دائمًا أصدقاء جيدون. إذا لم يسر الأمر هكذا، فماذا سيحل بأهل البحيرة؟

في تلك الليلة ثمل تونِت، وبدلًا من الصعود إلى غرفة نِلِتا، ظل يشخر بجوار الموقد. لم يبحث أي منهما عن الآخر، بدا أنهما يفران من بعضهما، ويجدان بعض الراحة في عزلتهما. كان يرتجفان لرؤية بعضهما البعض معًا في الغرفة. كانا يخشيان أن تُبعث ذكرى ذلك الكائن الذي مر بينهما مثل نحيب حياة اختنقت على الفور.

في اليوم التالي عاد تونِت للسُّكر مرة أخرى. لم يكن يريد أن يكون وحيدًا مع عقله، كان يحتاج إلى أن يخدره بالكحول ليبقيه صامتًا ونائمًا.

وصلت أنباء جديدة إلى الحانة عن حالة سانجونِرا. كان يحتضر دون علاج. عاد الرجال إلى صيدهم، وأدركت النساء اللاتي كن يدخلن كوخ المتشرد عجز علاجاتهن. كانت النساء الأكبر سنًّا تفسرن مرض بطنه.

وصل الطبيب من سويانا في إحدى زياراته الأسبوعية، وذهبوا به إلى كوخ سانجونِرا. هز مُياوم[1] العلم رأسه بالسلب. لم يتبق شيء لفعله. لقد كان التهاب الزائدة قاتلًا، نتيجة للإفراط غير العادي الذي ملأ الطبيب بالدهشة. وكانوا يكررون في جميع أنحاء القرية كلمة التهاب الزائدة، حتى أن النساء كن تتسلين بنطق الكلمة الغريبة بالنسبة إليهن.

اعتقد القِس، دون ميجيل، أن الوقت قد حان لدخول كوخ ذلك المارق. لا أحد يعرف مثله كيف يُتم الأمر بسرعة وبصراحة. قال وهو عند الباب:

---

(١) مُياوم: أجير باليومية.

- يا رجل! هل أنت مسيحي؟

وأبدى سانجونِرا إيماءة دهشة. هل كان مسيحيًّا؟ ولأن السؤال مثير للاستنكار، نظر إلى سطح كوخه، وهو يتأمل بشرود وأمل قطعة السماء الزرقاء التي يمكن رؤيتها من خلال أشلاء الغطاء.

حسنًا إذن، لا داعي للمراوغة بين الرجال! واصل القِس. كان لا بد أن يعترف لأنه سيموت... لا أكثر ولا أقل. لم يكن ذلك القسيس ذو البندقية يستخدم الطرق الملتوية مع أبناء رعيته.

مرت نظرة رعب في أعين المتشرد. تجلى له وجوده، المليء بالبؤس، مع كل سحر الحرية المطلقة. فرأى البحيرة بمياهها البراقة، دِئِسا الحارقة، بأدغالها المعطرة، المليئة بالزهور البرية، وحتى منضدة كانيامِل، التي كان يحلم أمامها ويتأمل في الحياة الوردية من خلال الكؤوس... كان سيتخلى عن كل ذلك! بدأت الدموع تنهمر من عينيه الزجاجيتين. لم يكن هناك علاج، حان وقت موته. سيتأمل أفضل في العالم الآخر الابتسامة السماوية، والرحمة الهائلة، التي كانت تداعبه ذات ليلة على ضفاف البحيرة.

وبهدوء مفاجئ، بين الغثيان والتوتر، اعترف بصوتٍ منخفضٍ للقِس بسرقته للصيادين، التي لا تعد ولا تُحصى، لدرجة أنه لم يستطع تذكرها إلا بشكلٍ جماعي. إلى جانب خطاياه، كشف آماله: إيمانه بالمسيح الذي سيأتي ثانية ليخلص الفقراء، لقاءهما الغامض في أحد الليالي على شاطئ البحيرة. لكن القسّ قاطعه بوقاحة:

- سانجونِرا، دعك من اللغو، أنت تهذي! الحقيقة، قل الحقيقة.

لقد قيلت الحقيقة بالفعل. كل آثامه هي الهروب من العمل، لاعتقاده أنه مخالف لأوامر الرب. ذات مرة استسلم ليكون مثل الآخرين، ليقدم المساعدة للرجال، ويتواصل مع الثروة ووسائل الراحة، وللأسف! دفع ثمن هذا التناقض مع حياته.

تأثرت جميع نساء پالمار بنهاية المتشرد. عاش كهرطوقيّ بعد هروبه من الكنيسة، لكنه مات كمسيحي. لم يسمح له مرضه باستقبال الرب، فأدار القِس القربان الأخير، ملطخًا ثوبه بقيئه.

لم يدخل الكوخ إلا بعض المسنات المفعمات بالحيوية اللاتي كن يكرسن أنفسهن بتفانٍ لتكفين كل من كانوا يموتون في المدينة. كانت النتانة في الكوخ لا تُطاق. كان الناس يتحدثون بغموض ودهشة من احتضار سانجونِرا. منذ اليوم السابق، لم يكن طعامًا ما كان يتقيأه من فمه. كان شيئًا أسوأ. وكان الجيران، وهم يضغطون على أنوفهم، يتخيلونه مستلقيًا على القش، محاطًا بالقذارة.

تُوفي في اليوم الثالث من المرض، ببطنٍ منتفخ، ووجهٍ متشنج، وتقلصت يداه بسبب المعاناة، وتمدد فمه من الأذن إلى الأخرى بسبب التشنجات الأخيرة.

شعرت أغنى النساء في پالمار، اللاتي كن يترددن على بيت الراهب، بالتعاطف الحنون مع ذلك التعيس الذي تصالح مع الرب بعد حياة كلب. لقد أرادوا منه أن يقوم بالرحلة الأخيرة بكرامة، وسرن إلى بلنسية لتحضيرات الدفن، وأنفقن مبلغًا لم يره سانجونِرا في حياته مطلقًا.

ألبسوه ثوبًا دينيًّا، داخل تابوت أبيض بشرائط فضية، وسار سكان القرية أمام جثة المتشرد.

كان رفاقه السابقون يفركون أعينهم الحمراء من الكحول، وهم يتمالكون أنفسهم من الضحك عندما رأوا صديقهم نظيفًا لهذه الدرجة، في صندوق بمفرده ويرتدي زي راهب. حتى موته بدا وكأنه مزحة. وداعًا يا سانجونِرا!... لن تُفرغ الأكياس الشبكية قبل وصول أصحابها، لم يعد يزين نفسه بأزهار الضفة مثل وثني مخمور! لقد عاش حرًّا وسعيدًا، دون تعب العمل، وحتى في لحظة الموت عرف كيف يذهب إلى العالم الآخر بعُدة رجل ثري، على حساب الآخرين.

في منتصف الليل وضعوا التابوت في عربة الأنقليس، بين سلال الصيد، وقاد خادم كنيسة پالمار، مع ثلاثة أصدقاء آخرين، الجثة إلى المقبرة، وتوقفوا في جميع الحانات على طول الطريق.

لم يُعر تونِت انتباهًا لوفاة رفيقه. كان يعيش في الظلمة، يشرب دائمًا، وكان السُّكر يسبب له صمتًا عميقًا. كان الخوف يكبت كلامه، كان يخشى أن يتكلم كثيرًا. كانوا يقولون له في الحانة:

- لقد مات سانجونِرا! رفيقك!

كان يُجيب بهمهمات، وهو يشرب وينام، بينما أرجع الزبائن صمته إلى حزنه على وفاة رفيقه.

كانت نِلِتا، الشاحبة والحزينة، كأن شبحًا يمر ويرجع أمام عينيها طوال الوقت، تحاول منع حبيبها من الشرب. كانت تقول بعذوبة:

– تونِت، لا تشرب.

وكانت خائفة من لفتة التمرد والغضب المكتوم التي كان يُجيب بها السكير عليها. كانت تخمن أن سيطرتها على تلك الإرادة تتلاشى. أحيانًا كانت ترى كراهية وليدة تلمع في عينيه، عداوة العبد المصمم على الصدام مع مضطهده السابق، والقضاء عليه.

لم يكن منتبهًا إلى نِلِتا، كان يملأ كأسه من جميع البراميل في المنزل. عندما كان يفاجئه النوم، يرقد في أي زاوية، ويبقى هناك كما لو كان ميتًا، بينما كانت ثِنتِيا، بغريزة الكلاب اللطيفة، تداعب وجهه ويديه.

لم يكن تونِت يرغب في استيقاظ تفكيره. حالما كان السُّكر يبدأ في التلاشي، كان يشعر بقلق مؤلم. كانت ظلال مَن يدخلون الحانة، التي تظهر على الأرض، تجعله يرفع رأسه في حالة من الذعر، وكأنه يخشى ظهور شخص يكدر أحلامه مع قشعريرة من الرعب. كان بحاجة إلى أن يستأنف السُّكر، لا أن يخرج من حالته الوحشية التي تُغرِق روحه، وتبلد أحاسيسه.

كان يبدو كل شيء له بعيدًا، مشتتًا وغير واضحٍ من خلال الأحجبة التي كان السُّكر يغلف بها أفكاره. كان يعتقد أن سنوات عديدة قد مرت منذ تلك الليلة في البحيرة. آخر مرة كان فيها إنسانًا، والأولى في حياة الظلال، التي كان يتلمسها، بدماغه المظلمة بسبب الكحول. كانت ذكرى تلك الليلة تجعله يرتجف بمجرد أن يشعر بتلاشي السُّكر. كان المخمور وحده يمكنه تحمل هذه الذكرى التي يراها غير واضحة، كواحدة من هذا الخزي البعيد الذي كان استحضاره يسبب ألمًا أقل لأنه ضاع في ضباب الماضي.

جاء جده ليفاجئه في هذا الخدر. كان العم پالوما ينتظر في اليوم التالي وصول دون خواكين للصيد في القصب. هل يريد الحفيد أن يفي بوعده؟ حثته نِلِتا على القبول. كان مريضًا، وكان من المناسب له أن يُلهي نفسه، وكان قد مر أكثر من أسبوع لم يغادر الحانة. انجذب الكوبي إلى وعد اليوم المضطرب. وُلد من جديد حماس القناص. هل كان سيعيش دائمًا بعيدًا عن البحيرة؟

أمضى اليوم في تحميل الخراطيش، وتنظيف بندقية كانيامِل الرائعة، ولأنه كان مشغولًا بهذا فقد شرب أقل. كانت تقفز ثِنتِيا من حوله، وهي تنبح بسعادة عندما رأت الاستعدادات.

ظهر العم پالوما في صباح اليوم التالي، حاملًا دون خواكين في القارب الصغير بكل معدات الصيد الفخمة.

نفد صبر الرجل العجوز فكان يحث حفيده على الإسراع. كان يريد التوقف فقط لفترة كافية حتى يتناول السيد لقمة، ثم إلى القصب على الفور. كان لا بد من الاستفادة من الصباح.

غادروا بعد وقتٍ قليل: تونِت في الأمام، يحمل ثِنتِيا في قاربه الصغير مثل قِناع للمقدمة، ثم قارب العم پالوما، حيث كان دون خواكين يفحص بذهول بندقية الرجل العجوز، ذلك السلاح الشهير المليء بالترميمات الذي قيل الكثير عن مآثره في البحيرة.

غادر القاربان إلى ألبوفيرا. رأى تونِت أن جده يُبحر إلى اليسار، وأراد أن يعرف إلى أين يذهبون. اندهش الرجل العجوز من السؤال.

كانوا في طريقهم إلى بولودرو، أكبر منطقة شجيرات بالقرب من القرية. كانت ديوك القصب ودجاج الماء تتوافر هناك أكثر من أي مكان آخر. أراد تونِت الذهاب بعيدًا. إلى الشجيرات في وسط البحيرة. وبدأ نقاش حاسم بين الرجلين. لكن الرجل العجوز انتصر أخيرًا، وكان على تونِت أن يتبعه مجبرًا، ويحرك كتفيه كما لو كان مستسلمًا.

دخل القاربان الصغيران في زقاق في المياه بين القصب الطويل.

كانت عشبة البِرَك تنمو بكثرة بين القصب، كان القصب والأسل يختلطان ، والنبات المعترش، بتويجاته البيضاء والزرقاء، كانت تتشابك في هذه الغابة المائية مكونة أكاليل من الزهور. أعطى تشابك الجذور الغامض مظهرًا متينًا لأحواض القصب. في الزقاق، كان الماء يُظهر في قاعه نباتات غريبة ترتفع حتى السطح، ولم يكن يُعرف في بعض الأوقات ما إذا كانت القوارب الصغيرة تُبحر أو تزحف فوق حقول خضراء مغطاة بزجاج ضعيف.

كان صمت الصباح عميقًا في هذه الزاوية من ألبوفيرا، والتي كانت تبدو أكثر وحشة في ضوء الشمس: ومن وقت لآخر كانت صرخة طائر في الدَّغَل، ضوضاء من الفقاعات في الماء، تكشف عن وجود هوام مخبأة بين لزوجة القاع.

كان دون خواكين يعد البندقية، في انتظار مرور الطيور من جانب لآخر في أحواض القصب الكثيف. أمر العجوز:

– تونِت، قم بجولة.

وغادر الكوبي بقاربه الصغير ليدور حول الشجيرات، ويهز القصب وهو ينتقل من أحد طرفي حوض القصب إلى آخر، وهو ما يخيف الطيور.

استغرق الأمر أكثر من عشر دقائق ليتجول في القصب. عندما عاد بجانب جده، كان دون خواكين يطلق النار بالفعل على الطيور التي كانت مضطربة وخائفة، كانت تغير مخبأها، فتعبر الفضاء المفتوح.

فُزعت الديوك في ذلك الزقاق الخالي من القصب، مما جعل طريقها مكشوفًا. لقد ترددت للحظة في المخاطرة بأنفسها، لكن أخيرًا، طار بعضها وسبح بعضها، كانت تعبر الممر المائي، وفى اللحظة نفسها كانت تصلها رصاصة القناص.

في هذه المساحة الضيقة، كانت التسديدة آمنة، وكان دون خواكين يستمتع برضا رامٍ عظيم، حيث رأى السهولة التي يُصرع بها القطيع. ألقت ثِنتِيا بنفسها من القارب، وسبحت إلى الطيور التي كانت لا تزال على قيد الحياة، وأحضرتها مع تعبير المنتصر حتى يدي القناص. لم تكن بندقية العم پالوما عديمة النفع. كان الرجل العجوز مصممًا على تملق الزبون، وإطرائه بطلقات نارية، كما كانت عادته. عندما كان يرى طائرًا على وشك الهروب، كان يطلق النار، مما يجعل البرجوازي يعتقد أنه هو مَن أطلق عليه النار.

سبحت شرشير شتوي[1] جميلة، وبمجرد أن أطلق دون خواكين والعم پالوما النار، اختفت في القصب. صرخ صاحب المركب العجوز:

(١) شرشير شتوي: من أصغر أنواع البط.

- لقد جُرحت!

أصيب القناص بخيبة أمل. يا للأسف! ستموت بين القصب دون أن يتمكن من حملها... صرخ تونِت في كلبته:

- ابحثي عنها، ثِنتِيا! ابحثي عنها!

ألقت ثِنتِيا بنفسها من القارب، وارتمت في حوض القصب مع ضجيج كبير سبّبه القصب الذي كان ينفتح أثناء مرورها.

ابتسم تونِت، واثقًا من النجاح: ستحضر الكلبة الطائر. لكن الجد أظهر بعض الشك. كانا قد أصابا تلك الطيور في أحد طرفي ألبوفيرا، ولكنها حققت تقدمًا وستموت في الطرف الآخر. إلى جانب ذلك، كانت الكلبة عجوزًا مثله. فيما مضى، عندما اشتراها كانيامِل، كانت جيدة، لكن الآن لا يجب الوثوق في حاسة الشم الخاصة بها. واكتفى تونِت، الذي كان يحتقر آراء جده، بتكرار:

- سترى الآن! سترى الآن!

كان من الممكن سماع بقبقة الكلبة في وحل القصب، منذ أن كانت قريبة حتى ابتعدت، وتبع الرجال في صمت الصباح تطوراتها اللامتناهية، مسترشدين بطقطقة القصب وصوت كسر الشجيرات قبل اندفاع شديد القوة. بعد دقائق قليلة من الانتظار، رأوها تخرج من القصب، تبدو محبطة وعيناها حزينتان، ولا شيء في فمها.

كان صاحب القارب العجوز يبتسم منتصرًا. ماذا قال؟... لكن تونِت، الذي كان يعتقد أنه سخيف، نهر الكلبة، وهددها بقبضته حتى لا

تقترب من القارب. عاد ليأمر الحيوان المسكين بغطرسة:

- ابحثي عنها! ابحثي عنها!

ومرة أخرى اندست بين القصب، وهي تحرك ذيلها بتعبير يدل على عدم ثقة.

سوف تجد الطائر. زعم تونِت ذلك، حيث كان يجعلها تؤدي وظائف أكثر صعوبة. مرة أخرى سُمعت بقبقة الحيوان في الغابة المائية. كانت تنتقل من جزء إلى آخر بتردد، وتغير المسار في كل لحظة، دون ثقة في سيرها المضطرب، دون أن تتجرأ على إظهار هزيمتها، لأنها بمجرد أن عادت في اتجاه القاربين، وبدت رأسها بين القصب، رأت قبضة سيدها وسمعت ابحثي عنها! والتي كانت بمثابة تهديد.

عادت لتشم المسار مرة أخرى عدة مرات، وفى النهاية تجولت بعيدًا في مساراتها غير المرئية لدرجة أن القناصين توقفوا عن سماع صوت قدميها.

نباح بعيد، تكرر عدة مرات، جعل تونِت يبتسم. كيف حالكما؟ قد تستغرق شريكته العجوز بعض الوقت، لكن لا يفلت منها شيء.

ظلت الكلبة تنبح بعيدًا، بعيدًا جدًّا، بتعبير يائس، لكن دون أن تقترب. صفر الكوبي:

- هنا، ثِنتِيا، هنا!

بدأ سماع بقبقة صوتها أقرب من أي وقتٍ مضى. كانت تقترب وهي تكسر القصب، وتقطع الأعشاب، مع جلبة كبيرة للماء المتحرك.

ظهرت أخيرًا بشيءٍ في فمها، وهي تسبح بجهد. واصل تونِت الصراخ:

– هنا، ثِنتِيا، هنا!

مرت بقارب الجد، ورفع القناص يده إلى عينيه، وكأن البرق يضربه. تأوه في رعب عندما انزلقت البندقية من يديه:

– يا أم الآلهة!

انتصب تونِت، بنظرة مجنونة، يهتز من قدميه إلى رأسه، كما لو أن الهواء اختفى فجأة من رئتيه. رأى بالقرب من حافة قاربه حزمة من الخرق، وفيها شيء حيوي وهلامي مليء بالعلقات: رأس صغيرة منتفخة، مشوهة، سوداء اللون، مع مِحجَرتين فارغتين ومعلقة من إحداها كرة العين: كل شيء مثير للاشمئزاز، كريه الرائحة، لدرجة جعلته يبدو وكأن الماء والفضاء أظلما فجأة، مما تسبب في سقوط الليل على البحيرة وسط أشعة الشمس.

رفع المُردي بكلتا يديه، وكانت الضربة هائلة لدرجة أن جمجمة الكلبة طقطقت كما لو أنها انكسرت، وغرق الحيوان المسكين، وهو يعوي، وفريسته في المياه الدوامة.

ثم نظر بعينين زائغتين إلى جده، الذي لم يستطع تخمين ما حدث، وإلى دون خواكين المسكين الذي بدا مذهولًا من الرعب، وأبحر بشكل غريزي، وخرج منطلقًا مثل سهم عبر الممر المائي، كما لو كان شبح الندم، الذي غفا لمدة أسبوع، يلحق به ويركض وراءه، ممزقًا ظهره بأظافره التي لا تلين.

- ١٠ -

كان طريقه قصيرًا. عندما غادر ألبوفيرا، رأى بعض القوارب في الجوار، وسمع صراخ القائمين عليها، وحاول الاختباء بخجل من يرى نفسه عاريًا أمام أناس غرباء.

بدت الشمس وكأنها تؤذيه: سطح البحيرة الهائل أخافه. كان يحتاج إلى الاختباء في زاوية مظلمة، لا أن يرى، ولا يسمع، فاستدار عائدًا ليندس في أحواض القصب.

لم يذهب بعيدًا. غرقت بِروة القارب الصغير بين القصب، وسقط البائس، تاركًا المُردي، في قاع القارب ورأسه مخبأ بين يديه. ظلت الطيور صامتةً لوقتٍ طويل، وتوقفت الضوضاء في القصب، كما لو أن الحياة المخبأة بين القصب صمتت، خائفة من الصيحات البرية، عويل متقطع بدا وكأنه شهقة عالية لشخصٍ يحتضر.

كان البائس يبكي. بعد الوحشية التي جعلته متبلد المشاعر تمامًا، ظهرت الجريمة أمامه، وكأن الوقت لم يمر، وكأنه قد ارتكبها للتو. عندما اعتقد أن ذكرى جريمته كانت على وشك أن تُمحى إلى الأبد، جعلها القدر تولد من جديد، وعرضها أمام عينيه، وبأي طريقة!

أحيا الندم فيه غرائز الأب الميتة منذ تلك الليلة المشؤومة. جعله الرعب يشعر بقساوة جريمته. كان ذلك اللحم الذي تركه لزواحف البحيرة هو لحمه، كان غطاء القيح ذلك، مَربى للعلقيات والديدان، ثمرة انفعالاته العاطفية، من حبه النهم في صمت الليل.

فداحة الجريمة سحقته. لا أعذار، لا يبحث عن حجج مثل أوقاتٍ أخرى ليتابع حياته. لقد كان بائسًا لا يستحق أن يعيش، غصنًا جافًّا من شجرة عائلة پالوما، المستقيمة دائمًا، القوية دائمًا، مع قسوة وحشية، لكنه سليم في وسط عزلته. يجب أن يختفي الفرع السيئ.

كان جده على حق في احتقاره. والده، والده المسكين، الذي يتأمله الآن بعظمة القديسين، فعل خيرًا في طرده مثل بُرعم وجوده مشين. كانت لابوردا التعيسة، بأصلها المخزي، ابنة عائلة پالوما أكثر منه.

ماذا فعل خلال حياته؟ لا شيء، كانت رغبته هي بذل مجهود في الهروب من العمل. كان سانجونِرا التعيس أفضل منه: وحده في العالم، من دون عائلة، من دون احتياجات في حياة التشرد القاسية، كان يمكنه أن يعيش كسولًا، بلا مبالاة لطيفة مثل الطيور. لكنه، بعد أن تلتهمه الشهوات المتأججة، يهرب بشكلٍ أناني من الواجب. كان يريد أن يكون غنيًّا، ويعيش مستريحًا، سلك دروبًا متعرجة، متجاهلًا نصيحة والده الذي توقع الخطر، وبسبب كسله المهين وقع في الجريمة.

كانت جريمته تخيفه. عندما استيقظ ضميره الأبوى كان يخدشه، لكنه لا يزال يعاني من جرح أكبر وأكثر دموية. كبرياؤه الرجولي، عناؤه في أن يظهر قويًّا وأن يهيمن على الرجال بشجاعة، جعله يعاني من

أقسى العذاب. لقد كان يرى العقوبة من بعيد، سجن الأشغال الشاقة، ومَن يعرف ما إذا كانت سقالة الإعدام ستكون تمجيدًا للرجل-البهيمي! كان يتقبل كل هذا، ففي النهاية خُلق ذلك للرجال، لكن من أجل شيء يستحقه الرجل القوي، للشجار، للقتال وجهًا لوجه، مصبوغًا بالدم حتى المرفقين، مع الجنون الهمجي للكائن البشري الذي يتحول إلى وحش... لكن قتل حديث المولد دون دفاع آخر غير بكائه! أن يعترف أمام العالم بأنه، الرجل الشجاع، المحارب السابق، لم يجرؤ إلا على قتل أحد أبنائه لارتكاب جريمة!

وبكى، بكى وهو يشعر، أكثر من الندم، بالعار من جبنه وبالغيظ بسبب خسته.

في ظلمات فكره كانت تبرق بعض الثقة بالنفس كنقطة نور. هو لم يكن سيئًا. كان يحمل دم أبيه الطيب. كانت جريمته الأنانية، الإرادة الضعيفة التي جعلته ينسحب من الكفاح من أجل الحياة. كان المنحرف هو نِلِتا، تلك القوة الخارقة التي كبلته بالسلاسل، تلك الأنانية الحديدية التي كانت تطغى عليه، تطويه من جميع نواحيه مثل الثوب المرن. آه، لو لم يقابلها! لو لم يجد العينين الخضراوين مثبتتين عليه عند عودته من الأراضي البعيدة والتي بدتا وكأنهما تقولان له: «خذني، الآن أنا غنية، لقد أدركت وهم حياتي. الآن اشتقت إليك»!

كانت هي الإغواء، الدافع الذي ألقاه في الظل. الأنانية والجشع بقناع الحب الذي قاده إلى الجريمة. للحفاظ على فتات ثروتها، لم

تتردد في التخلي عن قطعة من أحشائها، وهو، عبد غير واعٍ، أكمل العمل وأنهى حياة ابنه.

كم بدت حياته بائسة! كانت تمر في ذاكرته رواية سانتشا القديمة، حكاية الثعبان التي كانت تكررها الأجيال على ضفاف البحيرة. كان هو مثل راعي الأسطورة: لقد كان يداعب الحية الصغيرة ، كان يُطعمها، ويُعيرها حتى دفء جسده، وعندما عاد من الحرب، اندهش لرؤيتها كبيرة، قوية، ازدادت جمالًا بمرور الوقت، بينما كانت هي تلف نفسها حوله في عناق قاتل، متسببة في موته بمداعباتها.

كانت حيته في القرية، مثلها مثل حية الراعي في السهل البري. كانت تلك سانتشا الخاصة ببالمار، من مقعدها في الحانة، هي مَن قتلته بحلقات الجريمة غير المرنة.

لم يكن يريد العودة إلى العالم. مستحيل العيش بين الناس، لم يستطع النظر إليهم، سيرى في كل مكان رأسه المشوه، المنتفخ، الوحشي، بمِحجَرتيه العميقتين اللتين التهمتهما الديدان. فقط عندما فكر في نِلِتا رأى حجابًا من الدم أمام عينيه، وفى خضم توبته نشأت الرغبة القاتلة، الدافع لقتل الشخص الذي اعتبره الآن عدوه العنيد... لماذا جريمة جديدة؟

هناك، في وحدته، بعيدًا عن كل الأعين، كان يشعر بتحسن، وهناك أراد البقاء.

علاوة على ذلك، نشأ داخله خوف يمتصه بكل قوة الأنانية، العاطفة الوحيدة في حياته. ربما في تلك الساعة كانت أخبار الحدث المروع

تنتشر عبر پالمار. سيصمت جده، لكن هذا الغريب القادم من المدينة لم يكن مضطرًّا إلى الصمت. سيبحثون، وسيتحققون، سيأتي أصحاب القبعة ثلاثية الأطراف اللامعة من بستان الرُّصافة، لن تكون لديه الشجاعة لتحمل نظراتهم، ولن يعرف كيف يكذب، سيعترف بجريمته، وسيموت والده، ذلك الكادح الطاهر أمام الله، خزيًا... وإذا استطاع أن يحبس نفسه في كذبته لينقذ رأسه، فماذا يجني من ذلك؟ هل كان سيعود إلى أحضان نِلِتا ليرى نفسه مرة أخرى وحلقات الزاحفة تضغط عليه؟ لقد انتهى كل شيء. لقد كان الفرع السيئ ويجب أن يسقط، يجب ألا يكابر على الاستمرار، ميتًا ومن دون روح، متمسكًا بالشجرة، وهو يشل حياتها.

لم يعد يبكي. خرج بجهد إرادته الفائق من الاستغراق المؤلم.

سقطت بندقية كانيامِل في البِرِوة. نظر تونِت إليها بسخرية. كم سيضحك صاحب الحانة إذا رآه! فلأول مرة، سيوظف شبحه المتطفل السمين شيئًا كان قد اغتصبه منه في فعل جيد.

بهدوء تمثال متحرك، خلع نعلًا واحدًا، وألقى حذاءه الكتاني بعيدًا. ركّب مفتاحي البندقية، وفك أزرار بلوزته وقميصه، ومال على البندقية حتى استقر صدره العاري فوق الماسورتين.

صعدت القدم العارية برفق على طول العَقِب لتبحث عن الزناد، وهز انفجار مزدوج حوض القصب بقوة لدرجة أن الطيور طارت من جميع الجهات، وقد جُنت من الخوف.

لم يعد العم پالوما إلى پالمار حتى حلول المساء.

كان قد ترك قناصه في سالِر، الذي كان يتمنى مغادرة البحيرة في أسرع وقت ممكن والوصول إلى المدينة، وأقسم على عدم العودة إلى تلك الأماكن. في رحلتين، مصيبتان! كانت تحتفظ له ألبوفيرا بمفاجآت رهيبة. آخر واحدة كانت ستمرضه. المواطن الهادئ، أب لذرية كبيرة، لم يستطع أن يزيل من ذاكرته الغطاء الكئيب الذي مر أمام عينيه. بالتأكيد عندما يعود إلى المنزل سيذهب إلى السرير مدعيًا أي مرض. لقد هزته المفاجأة بشكلٍ عميق.

كان الصياد نفسه قد نصح العم پالوما بالتحفظ التام. لا تدع أي كلمة تفلت منك! لم يروا شيئًا. ينبغي أن يوصي حفيده المسكين بالصمت، الهارب بلا شك بسبب تأثير المفاجأة الرهيبة. كانت البحيرة قد ابتلعت السر مرة أخرى، وسيكون من السذاجة أن يتكلموا، وهم يعلمون كيف تصيب العدالة الأبرياء عندما يرتكبون حماقة البحث عنها. يجب على الرجال الصادقين تجنب أي احتكاك بالقانون... والسيد المسكين، بعد أن هبط على البر، لم يدخل الترتان الخاص به حتى أقسم صاحب المركب، الذي كان مشغول البال كثيرًا، عدة مرات أنه سيلتزم الصمت.

عندما وصل العم پالوما إلى پالمار في الليل، ربط القاربين الصغيرين اللذين غادروا فيهما في الصباح أمام الحانة.

تبحث نِلِتا، الواقفة خلف المنضدة، بنظراتها عن تونِت دون جدوى.

خمن العجوز. قال بصوتٍ أجش:

- لا تنتظريه. لن يعود ثانيةً.

وبلهجة مجردة، سألها عما إذا كانت تشعر بتحسن، وتحدث عن شحوب وجهها لجعل نِلِتا ترتجف. خمنت صاحبة الحانة على الفور أن العم پالوما كان يعرف سرها. عادت لتسأل بصوتٍ قلق:

– لكن، وتونِت؟

كان العجوز يتحدث وهو يدير عينيه، كأنه لا يرغب في رؤيتها، لكي يحافظ على هدوئه المصطنع. لن يعود تونِت مرة أخرى. لقد فر بعيدًا، بعيدًا جدًّا: إلى بلد لا يعود منه المرء أبدًا. كان أفضل شيء يمكن أن يفعله. هكذا يظل كل شيء منتظمًا وغامضًا. تأوهت نِلِتا من القلق، وهي خائفة من أن يتكلم العجوز:

– لكن حضرتك؟ حضرتك؟

سوف يصمت العم پالوما. أكد ذلك وهو يضرب على صدره. كان يحتقر حفيده، لكنه كان مهتمًّا بعدم الكشف عن أي شيء. اسم عائلة پالوما، بعد قرون من المكانة المحترمة، لم يكن من الممكن تلطيخه من قبل كسلان وعاهرة. قال صاحب المركب بغضب:

– ابكي أيتها العاهرة، ابكي.

كان لا بد أن تبكي طوال حياتها، لأنه كان ضياعًا لعائلة. احتفظت بمالها! لن يكون الشخص الذي يأتي ليطلبه منها مقابل الصمت. وإذا أرادت أن تعرف أين عشيقها، وأين ابنها، ما عليها إلا أن تنظر إلى البحيرة. ألبوفيرا، والدة الجميع، ستحافظ على السر بأمانة مثله.

ظلت نِلِتا ترتعد من هذا الكلام، لكنها كانت وسط دهشتها الهائلة

تنظر بقلق إلى العجوز، خائفة على مستقبلها. عندما رأته هكذا وثقت في صمت العم پالوما.

ضرب الرجل العجوز صدره مرةً أخرى. أتمنى أن تعيش بسعادة وتتمتع بثروتها! سيصمت دائمًا.

كانت ليلة كئيبة في كوخ عائلة پالوما. في ضوء القنديل الخافت، تحدث الجد والأب، الجالسان وجهًا لوجه، لفترة طويلة، بجدية شخصين بعيدين بطبعهما، لا يمكنهما الاقتراب من بعضهما إلا بسبب المحنة.

لم يستخدم العم پالوما المسكنات في قول الخبر. كان قد رأى الصبي الميت، وقد دمر صدره بحشوتين من الخُردق[1]، وغرق في طين الشُّجيرات وساقاه خارج الماء، بجوار القارب الصغير المهجور. بالكاد طرف العم توني عينيه. زمّ شفتيه فقط بتشنج، ويداه المتوترتان تخدشان ركبتيه.

أتى عويل طويل حاد من الزاوية المظلمة للكوخ حيث كان المطبخ، كما لو أنهم ذبحوا شخصًا ما في هذا الظلام. كانت لابوردا هي التي تئن، ترتعد من الخبر. صرخ العجوز بغطرسة:

– اصمتي، يا فتاة.

قال الأب:

– اسكتي، اسكتي.

(١) الخُردق: كرات صغيرة من مادة الرصاص تُحشى بها طلقات بنادق الصيد.

بكت البائسة بصمت، مضطهدة في ألمها بصرامة هذين الرجلين ذوي الإرادة الحديدية، اللذين، بعد أن عضتهما المصيبة، ظلا عديمي التأثر من الخارج، دون أدنى عاطفة في أعينهما.

كان العم پالوما يروي ما حدث بخطوط عريضة، ظهور الكلبة بفريستها الرهيبة، هروب تونِت، لاحقًا، عند عودته من سالِر، استكشافه الدقيق للشجيرات، واستشعاره لمصيبة، واكتشافه للجثة. كان يتكهن بكل شيء. يتذكر اختفاء تونِت عشية جولة الصيد، شحوب نِلِتا وضعفها. ظهورها مريضة بعد تلك الليلة، وبمكرها القديم بدأت الولادة المؤلمة في صمت الليل، مع رعب من أن يسمعها الجيران، ولاحقًا قتل الطفل، وهي جريمة جعلته يحتقر تونِت، كونه جبانًا أكثر من مجرم.

ارتاح العجوز بعد البوح بسره. تبع حزنه سخط. تعيسان! تلك النِلِتا كانت عاهرة مندفعة ضيعت الصبي، ودفعته إلى الجريمة للحفاظ على مالها، لكن تونِت كان جبانًا مرتين، كان يبغضه أكثر بسبب جريمته عندما رآه وقد قتل نفسه، خائفًا لدرجة الجنون من العواقب، أطلق الرجل رصاصتين قبل أن يواجه، لقد وجد أن الاختفاء أكثر راحة من دفع ثمن خطئه، والمعاناة من العقوبة. دائما يهرب من الالتزام، ويبحث عن طرق سهلة خوفًا من القتال. يا لها من أوقات. يا إلهي! أي شباب كان ذلك؟

كان ابنه بالكاد يستمع إليه. بقي بلا حراك، مذهولًا من المصيبة، وأحنى رأسه، كما لو كانت كلمات والده بمثابة ضربة ستسقطه إلى الأبد.

عادت لابوردا تئن. قال العم توني بصوتٍ أجش:

- اصمتي، قلت اصمتي.

بالنسبة إلى حزنه الهائل، العميق والصامت، أزعجه أن الآخرين قد ارتاحوا بالبكاء، في حين أنه بسبب صلابة الرجل القوي، لم يستطع التنفيس عن الألم بالدموع.

أخيرًا تحدث العم توني. لم يكن صوته يرتجف، لكنه كان محجوبًا ببحة بسيطة من الانفعال.

كان الموت المخزي لذلك البائس نهاية مستحقة لسلوكه. كان قد تنبأ به: سينتهي بشكلٍ سيئ. عندما تُولد فقيرًا، فإن الكسل هو الجريمة. هكذا نظم الله الأمر، وعليك أن تتلاءم معه... ولكن للأسف! كان ابنه... ابنه! لحمه! كانت استقامته الحديدية كرجل أمين تُظهره عديم الإحساس أمام الكارثة، ولكن هناك، داخل صدره، كان يشعر ببعض الظلم، كما لو أنهم اقتلعوا جزءًا من أحشائه وقدموه في ذلك الوقت بمثابة مرعى لأنقليس ألبوفيرا.

كان يرغب في رؤيته للمرة الأخيرة، هل كان يفهمه والده؟ كان يريد أن يمسكه بين ذراعيه، كما كان صغيرًا، عندما كان يهدئه ويعترف له أن الأب يعمل ليجعله مزارعًا ثريًّا، صاحب حقول كثيرة. كان يقول للعم پالوما بصوتٍ ينم عن القلق:

- أبي، أبي! أين هو؟

أجاب العجوز بسخط. كان لا بد من ترك الأمور كما رتبتها الصدفة. كان من الجنون تغيير مسارها. لا فضائح ولا إزالة طرف من الغموض. كان الأمر جيدًا هكذا: كل شيء اختفى.

الناس، الذين لن يروا تونِت، سيعتقدون أنه هرب بحثًا عن المغامرة والحياة الممتعة، كما حدث عندما ذهب إلى أمريكا. كانت البحيرة تحتفظ بأسرارها جيدًا: مرت سنوات قبل أن يمر شخص بالموقع الذي انتحر فيه. تغطي نباتات ألبوفيرا كل شيء. بالإضافة إلى ذلك، إذا تحدثوا، إذا نشروا الموت، فسيريد الجميع معرفة المزيد، وستتدخل العدالة، وستنكشف الحقيقة، وبدلًا من پالوما المختفي، الذين يعرفون هم فقط بعاره، سيكون لديهم پالوما شائن قتل نفسه ليهرب من السجن وربما من منصة الحكم. لا، تونو. قالها بسلطة الأب. خلال الأشهر القليلة المتبقية من حياته، لا بد له من احترامه، لا أن ينغص أيامه الأخيرة بالعار. كان يريد أن يشرب بسلام مع أصحاب المراكب الآخرين، وهو قادر على النظر إليهم وجهًا لوجه. كان كل شيء على ما يرام: أن تصمت، حسنًا... علاوة على ذلك، إذا اكتشفوا الجثة فلن يدفنوها بطريقة مقدسة. جريمته وانتحاره حرماه من أن يُدفن في الأرض نفسها مثل الآخرين. من الأفضل أن يكون في الماء، غارقًا في الوحل، محاطًا بالقصب، مثل آخر سليل ملعون من سلالة الصيادين الشهيرة.

دفع بكاء لابوردا العجوز إلى تهديدها. كان عليها أن تصمت. هل كانت تريد أن تفقدهم؟

كان الليل لا ينتهي، صمت مأساوي. كان يبدو الجو الكئيب للكوخ أكثر قتامة، كما لو أن أجنحة المصيبة السوداء تُلقي بظلالها عليه.

غرق العم پالوما- عديم التأثر، العجوز القاسي والأناني الذي يريد إطالة حياته، على كرسي من الحَلْفاء- في النوم. أمضى ابنه الساعات بلا حركة، وعيناه مفتوحتان بحدة، ترتكزان على موجة من الظلال رسمها الضوء المرتعش للقنديل على الحائط. كانت لابوردا، الجالسة بجانب الموقد، تنتحب بضعف، مختبئة في الظل.

مرت لحظة ارتجف فيها العم توني، وكأنه يستيقظ. انتصب واقفًا، ذهب إلى باب الكوخ الخشبي، وفتحه، ونظر إلى السماء المرصعة بالنجوم. لا بد أنها الثالثة. بدا أن هدوء الليل يخترقه، مؤكدًا القرار الذي اتخذه للتو بإرادته.

اقترب من العجوز ودفعه حتى استيقظ. قال له بصوت مستعطف:

- أبي، أبي! هل هو بخير؟

احتج العم پالوما، وهو نصف نائم، بشراسة. يجب أن يتركه في سلام. ليس هناك علاج لذلك. كان يريد النوم، ويا ليته لا يستيقظ أبدًا!

لكن العم توني ظل يتوسل. لا بد أن يتذكر أنه حفيده، وهو والده، الذي لن يستطيع العيش إلا بعد أن يتأمله للمرة الأخيرة. سيتخيله طوال ساعات في قاع البحيرة، يفسده الماء، تلتهمه الوحوش، دون قبر في الأرض كان يحصل عليه أشد الناس بؤسًا، حتى سانجونِرا، الذي عاش من دون أب. آه! كان يعمل وهو يعاني طوال حياته، ليؤمن الرزق لابنه

الوحيد، فيتخلى عنه لاحقًا، دون أن يعرف مكان قبره، مثل الكلاب الميتة التي تُلقى في ألبوفيرا! لا يمكن أن يكون أبًا! كان قاسيًا جدًّا! لن تكون لديه الشجاعة أبدًا ليُبحر في البحيرة، وهو يفكر أن قاربه ربما يمر فوق جثة ابنه. كان يتوسل للعجوز النائم تقريبًا وهو يحركه:

- أبي، أبي!

وقف العم پالوما منتصبًا وكأنه سيضربه. ألا يريد أن يتركه وشأنه؟ هل يبحث مرة أخرى عن ذلك الجبان؟ اتركه حتى ينام! لم يكن يرغب في تقليب الوحل، خوفًا من نشر وصمة عار أسرته. كان الأب يسأل بقلق:

- لكن، هل هو بخير؟

سيذهب هو وحده. لكن بالله عليه! لا بد أن يخبره بالمكان. لو لم يتكلم الجد، كان سيقضي بقية حياته يفتش في البحيرة، حتى لو أعلن سره. قال العجوز في النهاية:

- في شجيرات بولودرو. سيكون من الصعب عليك أن تجده.

وأغمض عينيه ومال برأسه لكي يستأنف ذلك الحلم الذي لا يريد أن يستيقظ منه.

قام العم توني بعمل إيماءة للابوردا. حملا مجارف حفّاري القبور، ومُردي القوارب، والحربات الثلاثية الحادة التي كانت تُستخدم في صيد القطع السميكة، وأضاءوا فانوسًا في ضوء القنديل، وفى صمت الليل عبرا القرية ليُبحرا في القناة.

أمضى القارب الأسود الصغير، والفانوس في مقدمته، طوال الليل يتجول داخل أحواض القصب. كان يُنظر إليه على أنه نجم أحمر يتجول بين القصب.

قرب الفجر انطفأ النور. لقد عثرا على الجثة بعد ساعتين من البحث المروع، كما رآه الجد، رأسه غارق في الوحل، ورجلاه خارج الماء وتحول صدره إلى كتلة دموية، متحطمًا بسبب شظايا خراطيش الصيد.

التقطاه بحرباتهما الثلاثية من قاع الماء. ظن الأب، عندما ثبت حربته الكبيرة في تلك الحزمة الطرية، ورفعها إلى القارب بجهدٍ خارقٍ، أنه كان يغرسها في صدره هو.

ثم سارا ببطء وبألم، وهما ينظران في كل مكان، كمجرمين يخشيان أن يتم القبض عليهما. كانت لابوردا، التي لا تزال تبكي، تبحر بالمُردي في البِروة، ساعدها الأب على الطرف الآخر من القارب، وبين هاتين الهيئتين الجامدتين، اللتين كانت تبرُز صورتهما الظِّلية السوداء في الضوء المنتشر لليل المرصع بالنجوم، كانت ترقد جثة المنتحر ممددة.

اقتربا من حقول العم توني، تلك التربة الاصطناعية، التي تشكلت قفة فوق قفة، بالقوة وبإصرار مجنون.

أخذ الأب ولابوردا الجثة، وقاما بإنزالها بعناية على الأرض، كما لو كان رجلًا مريضًا يمكنه الاستيقاظ. ثم بدأا في حفر قبر بمِجرافيّ حفاري القبور الدؤوبين.

قبل أسبوع كانا لا يزالان يجلبان التراب من جميع أطراف البحيرة. الآن يقومان بإزالته لإخفاء وصمة عار العائلة.

كان قد بزغ الفجر عندما أنزلا الجثة إلى قاع القبر، الذي كان يرشح ماءً من جميع الجهات. ينتشر ضوء بارد وأزرق فوق ألبوفيرا، مما يمنح سطحها انعكاس الفولاذ الصلب. كانت أولى أسراب الطيور تمر على شكل مثلث عبر الفضاء الرمادي.

نظر العم توني إلى ابنه للمرة الأخيرة. ثم أدار ظهره، كأن الدموع التي كسرت قساوة عينيه، أخجلته.

انتهت حياته. سنوات عديدة يتعارك مع البحيرة، معتقدًا أنه كان يجمع ثروة، وهو يعد، دون أن يعلم، قبر ابنه!

ضرب بقدميه تلك الأرض التي كانت جوهر حياته. أولًا كرس لها عرقه، قوته، أوهامه. الآن، عندما كان يتعين عليه دفع ثمنها، سلمها أحشاءه، ابنه، خليفته وأمله، لقد منحها نهاية عمله.

ستؤدي الأرض مهمتها: سينمو المحصول مثل بحر من السنابل النحاسية على جثة تونِت. لكن ما الذي تبقَّى بالنسبة له ليقوم به في العالم؟

بكى الأب وهو يتأمل خواء حياته. الوحدة التي كانت تنتظره حتى الموت، واضحة، رتيبة، لا نهاية لها، مثل تلك البحيرة التي كانت تبرق أمام عينيه، دون أن يقطع قارب سطحها المستوي.

وبينما كان نحيب العم توني يشق صمت الفجر كصرخة يأس،

انحنت لابوردا، وهي خلف والدها، على حافة القبر وقبّلت رأسه الداكن بقبلة متأججة، بعاطفة هائلة، بحب بلا أمل، بجرأة، أمام غموض الموت، لتكتشف لأول مرة سر حياتها.

❊ ❊ ❊